فضل الله بن محب الله المحبّي الدمشقي

المتوفى سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م



الرحلتان الرومية والمصرية

تحقيق

د. عماد عبد السلام رؤوف

التفسير

DAR AZ-ZAMAN Publishing

الرحلتان الرومية والمصرية

الكتاب: الرحلتان الرومية والمصرية

تأليف: فضل الله بن محب الله المحبي الدمشقي

تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف

الطبعة الأولى : 2012



❖ **الناشر: دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع**

دمشق – سوريا : ص. ب 5292

تلفاكس: 00963 11 5626009

موبايل: 00963 932 806808

E.mail: zeman005@yahoo.com

E.mail: zeman005@hotmail.com

Web sit: www.darzaman.net

❖الناشر التفسير

للنشر والاعلان

اربيل – شارع المحاكم – تحت بناية فندق شيرين بالاص

هاتف: 2221695 -2230908 -2518138

موبايل:07504605122- 07701387291

E.mail:tafseeroffice@yahoo.com

E.mail:altafseero@hotmail.com

E.mail:tafsseroffice@maktoob.com

web sit: www.al-tafseer.com

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

الإخراج الداخلي: دار الزمان

الرحلتان الرومية والمصرية

تأليف فضل الله بن محب الله المحبي الدمشقي

المتوفى سنة 1082هـ/1671م.

تحقيق

د. عماد عبد السلام رؤوف

دار الزمان

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الرحلتان الرومية والمصرية نصّان مهمان في أدب الرحلات في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) ، لم يُعرفا، ولم يُنشرا، بل لم تجر الإفادة منهما في أية دراسة من قبل.

المؤلف

هو فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين أبي الفضل العلواني الحموي الدمشقي، عالم نابه من أهل القرن الحادي عشر للهجرة، ولد من أسرة مثقفة جمعت بين العلم والأدب، وبين الفقه والشعر، وورثت مع ذلك روح دعابة محببة، ورغبة في السفر والسياحة، ووجاهة بين الناس.

فأما جدُه، محمد مُحب الدين، فهو أول من قدم من حماة إلى دمشق، وكان عالماً واسع المعرفة، أتقن علوم التفسير والفقه والنحو والمعاني والفرائض والحساب والمنطق والحكمة والفنون الغريبة، وهي التي تتعلق بالكشف عن المغيبات، هذا إلى عذوبة في اللفظ والنثر، ومهارة في فنون الخط، وألف كتباً في التفسير والمعاني والبيان، فضلاً عن تسجيله وقائع رحلاته فيما سماه (الرحلة المصرية والرومية والتبريزية)[1]، وإذ نفهم أسباب رحلاته إلى مصر والروم، فإننا لا نعرف سبب رحلته إلى تبريز، عاصمة الصفويين عصر ذاك، إلا أن يكون في صُحبة إحدى الحملات العسكرية العثمانية المتوجهة إلى هناك. وعلى أية حال فإنه تولى القضاء في مصر، ثم وَلِيَه في في حمص وحصن الأكراد ومَعَرَّة النعمان ومعرةً نسرين وكلس

---

(1) لكل من هذه الرحلات عنوان مستقل، فالرحلة المصرية بعنوان (حادي الأظعان النجدية إلى الديار النجدية)، وقد استغرقت المدة من 12 شعبان 978هـ إلى أوائل رمضان سنة 980 هـ/9 كانون الثاني (يناير) 1571-5 كانون الثاني 1573م، وقد حققها محمد عدنان البخيت، مؤتة 1993، وذكر المؤلف في آخرها أنه سيقوم برحلة أخرى إلى الروم، فقال أنه عزم على إنشاء رحلة رومية يكتب فيها «ما يقع من الحوادث اليومية، بحيث تكون كالذيل على تلك الرحلة [يعني المصرية].. فسميتها بوادي الدموع العندمية بوادي الديار الرومية».

وعزاز، قبل أن يستقر في دمشق سنة 993هـ/1585م، حيث تولى نيابة القضاء، وقضاء العسكر فيها، كما تولى التدريس في عدد من مدارسها الشهيرة، إضافة إلى توليه الإفتاء، وله مؤلفات عدا كتب رحلاته، منها (عمدة الحكام) في الفقه و(تنزيل الآيات) في التفسير فضلاً عن عشرين رسالة أخرى، وكانت وفاته سنة 1016هـ/1607م[1].

وأما أبوه فكان عالماً عرف بوجاهته وثروته أيضاً، فهو «صدر الشام في زمنه ومرجع خاصتها وعامتها، وقد أوصله الله تعالى بين علماء دمشق إلى مرتبة لم يصل إليها أحد فيما تقدمه منهم، وأقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً، وتوفرت له دواعي المعالي، وملك من الذخائر والتحف ما لا يضبط بالإحصاء، ورزق [من] الأبناء الكثير»، وكان قد توصل عن طريق ملازمته لشيخ الإسلام يحيى بن زكريا إلى أن يلي قضاء الحج وقضاء العسكر في صحبة الوزير أحمد باشا كوجك في أثناء حملته على الأمير فخر الدين المعني في بلاد الشام، ثم تولى التدريس في بعض مدارس دمشق، وأعطي رتبة القدس، وتولى التدريس في عدد من مدارس دمشق، وكان مما تولاه من المناصب التصرف بنيابة الشام وقسمتها العسكرية مدة ست عشرة سنة، حتى وفاته بدمشق سنة 1047هـ/1637م[2].

ولد فضل الله في دمشق في 7 محرم من سنة 1031هـ/21 تشرين الثاني 1621م ، في جو مثقف مترف، ووسط أسرة تورثت التقاليد العلمية، والمكانة الاجتماعية، أباً عن جد، فتلقى العلم والأدب على علماء مدينته وأدبائها، ومالت نفسه إلى الأدب، فقرأ الكثير من الكتب الأدبية بتوجيه من الشيخ أحمد بن شمس الدين الصفوري، حتى «تفتحت له أبواب الشعر»، وصار «حسن المعرفة بفنون الأدب»، وتدرب على فنون الخط صبياً، لا سيما خط التعليق، حتى أثار اعجاب شيوخه، ونظم الشعر وهو شاب غض فلفت نظرهم إلى مواهبه المبكرة، وتعلم اللغتين التركية والفارسية، كشأن أدباء ذلك العصر. وعلى الرغم من ميوله الأدبية فإنه توجه إلى الدرس العلمي، على وفق تقاليد أسرته، فأخذ الفقه على الشيخ

---

(1) محمد أمين المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة 1305، ج2 ص122.
(2) خلاصة الأثر ج3 ص308.

عبد اللطيف الجالقي، كما أخذ الحديث عن العلامة نجم الدين الغزي، حتى منحه هذا (إجازة عامة) في العلم سنة 1048هـ/1638م وهو في السابعة عشر من عمره. وكان أبوه قد توفي قبل هذا التاريخ بعام، مما دفعه إلى ملازمة أستاذ أبيه العلامة عبد الرحمن العمادي، يأخذ منه ويتأثر به، حتى «تخرج بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، وراض نفسه على أخذ نمطه في الإنشاء».

ومثلما ورث الفتى عن أسرته الرغبة في العلم، فأنه ورث عنها أيضاً طموحها الدائم إلى المناصب العليا، وصادف أن قصد شيخ الإسلام يحيى بن زكريا مدينة حلب مصاحباً للحملة العسكرية الكبرى التي قادها السلطان مراد الرابع لاسترجاع بغداد من الصفويين سنة 1048هـ/1638م، فما كان منه إلاّ أن سافر إلى هذه المدينة ليلتقي به، ولا ندري ما إذا كان قد نجح في اللقاء به في خلال المدة القصيرة التي أقام فيها الشيخ في حلب، لكننا وجدناه يسعى سنة 1051هـ/1641م إلى القسطنطينية ليكون واحداً من طلبة هذا الشيخ الملازمين له، كما أنه ولي في الوقت نفسه التدريس في مدرسة الأربعين هناك، وامتدت اقامته في العاصمة العثمانية نحو سنة ونصف، إلاّ أن ملازمته لشيخ الإسلام لم تؤد إلى أن يتولى منصباً رفيعاً، على نحو ما جرى لأبيه من قبل، لأنه اضطر إلى مغادرة القسطنطينية والعودة إلى دمشق حيث «أقام مشتغلاً فيها بالتأليف»، فكتب، وهو لم يبلغ العشرين من العمر، شرحاً مطولاً على متن الآجرومية في النحو وكتباً أخرى، وتولى التدريس في المدرسة الدرويشية، التي كان يتولاها أبوه، فضلاً عن دروس كان يلقيها في المدرسة الأمينية .

وفي سنة 1059هـ/1649م غادر دمشق مرة أخرى، إلاّ أنه قصد هذه المرة القاهرة، ليلتقي بقاضيها محمد بن عبد الحليم البورسوي، وهو أحد من تعرف عليهم في أثناء اقامته في القسطنطينية، فما كان من هذا إلاّ أن ولاه نيابة قضاء المحكمة الصالحية «ممتعاً بالتفاته وحظي عنده». وأفاد فضل الله من وجوده في مصر بأن واصل دراسته على أيدي كبار علمائها، وأهمهم العلامة الأديب شهاب الدين محمود بن محمد الخفاجي، المتوفى سنة 1069هـ/1658م، فأخذ يتردد على مجلسه، يأخذ عنه، ويجاوره، وسعى بعض حساده لتكدير صفو صلته بالقاضي البُورسَوي، بأن أخبروه بأن سبب وجود فضل الله في مجلس الشهاب الخفاجي هو

الاساءة إليه وهجوه، ولم تكن صلة الشهاب بالبورسوي حسنة، فما كان من الأخير إلاّ أن «غضّ نظره عنه»، ولم يعد يلتفت إليه، والظاهر أن هذا التوتر نجح في تكدير حياة فضل الله، لأن حياته لم تستقر في القاهرة إلاّ بعد أن عُزل البُورسوي عن منصبه.

شرع فضل الله في أخذ العلم على كبار علماء الجامع الأزهر، منهم علي الأجهوري شيخ المالكية في عصره في القاهرة، المتوفى سنة 1066هـ/1655م ، وعلي الشبراملسي، المدرس في الجامع الأزهر، المتوفى سنة 1087هـ/1676م، وشهاب الدين محمد بن أحمد الشوبري، المفتي بالأزهر، المتوفى سنة 1069هـ/1659م وغيرهم، ولم يمنعه عن مواصلة سيرته العلمية هذه إلاّ اصابته بالمرض، فقرر أن يعود إلى دمشق، بعد معاناة التشوق إلى مرابع طفولته وصباه فيها. والظاهر أن مرضه حال وهو في دمشق من أن يتولى منصباً ما، فانصرف بكليته إلى التأليف، حيث جمع منتخبات من الشعر في مختلف الأغراض التي يحتاجها كتاب الرسائل. ودفعه مرضه الشديد إلى الاهتمام بالطب، فشرع يتدارس كتبه، ويراجع الأطباء، «حتى تمهرً في علم الطب جداً». وكان يشجعه على ذلك ما أصابه من الوسواس بسبب المرض المذكور. وذكر ابنه محمد أمين أنه انقطع بسبب وسواسه هذا عن أكل العنب والمشمش مدة سبعة عشر عاماً، وهو ما يبعث إلى الظن بانه كان يعاني من مرض (السُكَري)، وربما كان هذا الداء سبب موته فيما بعد.

عاش فضل الله سنوات اقامته بدمشق مشغولاً بمداراة صحته المُتعَبَة، بعيداً عن المناصب العلمية والشرعية، فلما تولي قضاء دمشق الشيخ محمد عِزّتي التفت إليه، واقترح أن يعود إلى شغل بعض المناصب القضائية، فكتب إلى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية أبي سعيد أسعد زاده يطلب إليه أن يولي فضل الله القضاء في آمد (ديار بكر)، وكان هذا قد تولى القضاء من قبل في مدينة دمشق، فما كان منه إلاّ أن ولاه ذلك المنصب. والظاهر أن نفسه كانت تطمح إلى ما هو أكبر من ذلك، إذ قرر مطلع سنة 1073هـ/ آب1662م أن يسافر مرة أخرى إلى القسطنطينية، حيث أقام هناك مدة أربع سنوات، وقعت له في أثنائها «ماجريات وأشعار وترسلات»، ولما يئس من تحقيق أمانيه وملَّ الإقامة أشار إليه بعض أصدقائه أن ينظم قصيدة

يعرض فيها طلبه ويرفعها إلى الوزير أحمد باشا، ووَجَدت القصيدة استجابة من أرسلت إليه، إذ «نالته شفاعة الوزير» فولي قضاء بيروت، وحينذاك غادر القسطنطينية مسرعاً عائداً إلى دمشق، فلبث فيها ثلاثة أشهر، ثم غادرها، مستصحباً ابنه محمد أمين معه إلى مقر عمله الجديد، وبعد مضي سنة وعشرة أشهر، ترك منصبه وعاد إلى دمشق حيث تفرغ لكتابة كتاب ضم تراجم علماء عصره وأدبائه ليكون ذيلاً لكتاب (تراجم الأعيان من أبناء الزمان) للحسن البُوريني، المتوفى سنة 1024- 1615م، وبالغاية والأسلوب نفسيهما، كما جمع أشعاره في ديوان.

ولم تصبو نفسه بعدها إلى شغل من قضاء وتدريس، أو أنها صَبَت لكنها لم تجد إلا إهمالاً من المسؤولين، فضلاً عما كان يعانيه من مرض مُمض. وقد جمع كل هذه الآلام والمُحبطات في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه يقول فيها «قد طالت العلة، وطابت العُزلة، فليس في الحركة هذا الآن بَركة، والإنقطاع أريح متاع، والاجتماع جالب للصداع.. فهو زمان السكوت، وملازمة البيوت!». وكشف عن ضيق نفسه ويأسه من أصحاب السلطة ومن الناس معاً، بأبيات منها:

لزوم البيت أرْوَجُ في زمانٍ	عدمنا فيه فائدة البُروز
فلا السلطان يرفع من مَحلّي	ولستُ على الرعية بالعزيز

وكتب إلى طبيب له اسمه منصور الغزواني:

أنا أصبحتُ لا أطيق حراكاً	كيف أصبحتَ أنت يا منصور!

وكان مما زاد حالته سوءاً اصابته بوسواس شديد أقض مضجعه وزاد من اضطرابه.

وليس أجمل من تقديمه نفسه في رحلته المصرية بهذه العبارات المؤثرة التي تدل على رقة في الطبع، واعتزاز بالوطن، ورغبة بالإطلاع، إذ قال «إني فرع نما في دوحة الشام، وغصن سما بين الأراك والبشام، من فتية ارتدوا أردية المجد، وحازوا قصب السبق في مضمار العُلى عن أبٍ وجد، فمذ زالت عنه قائمه، وتفتحت من أزاهير الشباب كمائمه، لم يزل مغرماً برؤية المدائن والأمصار، وإيداع الأوراق طرائف ثمار الأخبار، مستنشدا غرر الأشعار، من كل قائل، وسائلاً عن أحوال

الاقطار كل قافل، وكأني كرة لعبت بها صوالج الأقدار، أو باقة نرجس تقاذفت بها أمواج الأسفار»[1].

وكانت وفاته- رحمه الله- في نهار الثلاثاء 13 جمادي الآخرة سنة 1082هـ/16 تشرين الأول 1671م، عن عمر ناهز الواحد والخمسين عاماً، وصُلّي عليه في جامع بني أمية، ثم دفن في قبر جده ووالده بمدفن الأسرة قبالة جامع جرّاح[2] بدمشق[3].

وكان من توفيقه أن رُزق بولد صالح، أحسن تربيته وتأديبه، يصطحبه معه في رحلاته، ويوجهه في كل خطواته، فأخذ هذا بمنهجه وزاد، وهو المؤرخ الشهير محمد أمين المُحبّي الذي ذاع صيته من خلال مؤلفيه النافعين (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، و(نفحة الرَّيحانة ورشحة طلاء الحانة) اللذين يُعدان مرجعاً أصيلاً لتاريخ الحركة الفكرية والاجتماعية في المشرق العربي الحديث.

مؤلفاته

قال ابنه محمد أمين في كتابه (نفحة الريحانة) أن «له تآليف ضربت من الإجادة بسهم، وأقر لها أهل البلاغة من كل شهم. هي لعقد الفضل واسطة النظام»[4]، ويفهم مما أورده في كتابه (خلاصة الأثر) أنه ألف عدداً من المؤلفات، ذكر منها:

1- شرح على متن الآجرومية في النحو. قال عنه ابنه «أطال الكلام فيه، وذكر أشياء لطيفة».

---

(1) المخطوط، الورقة 185.

(2) تقع مقبرة الأسرة على عتبات مقبرة باب الصغير في جادة جراح حالياً، ومقابلاً للمدرسة الصابونية، أما مسجد الجراح فقد كان في أصله مسجداً صغيراً، ثم أصبح جامعاً كبيراً في عهد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل رحمه الله في سنة 631هـ.

(3) اعتمدنا في عرضنا لحياته وتاريخ أسرته على ما كتبه ابنه المؤرخ محمد أمين في خلاصة الأثر ج3 ص275. وفي نفحة الريحانة ص405 وقد كتبت الدكتورة ليلى الصباغ دراسة مسهبة عن عصر المحبي، وأسرته، وبيئته، في كتابها (محمد أمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، دمشق 1986.

(4) نفحة الريحانة ص406.

2- الرحلة الحلبية. وصف فيها وقائع رحلته إلى حلب سنة 1048هـ/1638م، وكان إذ ذاك في السابعة عشر من عمره.

3- الرحلة الرومية. وصف فيها وقائع رحلته إلى القسطنطينية سنة 1051هـ/ 1641م واقامته فيها ثم عودته منها إلى دمشق. (وهي ما يضمه هذا الكتاب).

4- الرحلة المصرية. وصف فيها مدة اقامته في القاهرة سنة 1059هـ (وهي ما يضمه هذا الكتاب أيضاً)

5- الرحلة الرومية الثانية. وعد بها في رحلته الرومية الأولى إذ قال «وتعليق الأمل بالسعي في رحلة أخرى»[1]، وقد وصف فيها وقائع رحلته الأخيرة إلى القسطنطينية سنة 1073هـ/1662م . قال ابنه محمد أمين أنه «وقع له في بلاد الروم ماجريات وأشعار وترسلات أثبت منها كثيراً في رحلته الأخيرة، وهي أحسن آثاره». ولم تصل إلينا هذه الرحلة.

6- جمع وصنف كتاباً طريفاً جمع فيه مفردات الأبيات التي يحتاجها كتاب الرسائل للإستشهاد بها في رسائلهم، ورتبها على أبواب بحسب الأغراض التي قيلت فيها . منه نسخة في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد[2].

7- ديوان جمع فيه ما تفرق من أشعاره.

8- مجموعات ضمت نماذج من رسائله الأدبية.

9- مجموعات ضمت تراجم أدباء عصره ضمت نماذج من قصائدهم ورسائلهم أراد أن يذيل بها على كتاب (تراجم الأعيان) للحسن البُوريني، وقد أدرج ابنه محمد أمين مادتها في كتابه (خلاصة الأثر).

أسلوبه

أكد ابنه محمد أمين أن أسلوبه النثري كان أفضل من شعره، وأثنى على هذا الأسلوب فقال «وبالجملة فنثره – كما تراه- مُفرَغ في قالب السلاسة، خال من

---

(1) المخطوط، الورقة 183.

(2) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط5، بيروت 2002، ج5 ص153.

وصمة التعقيد، وفيه معان عذبة وألفاظ رائعة». وفي الواقع فإن القطع النثرية التي أوردها ابنه في ترجمته، وما قرأناه في رحلتيه الرومية والمصرية، تدل على أن أسلوبه كان يعد نموذجاً متقدماً لأساليب أدباء عصره، فهو يعتمد على السجع دائماً، وعلى بعض المحسنات البلاغية، والاستشهاد بأبيات من الشعر بحسب ما تقتضيه الغاية من الكتابة، وعباراته في وجه عام تميل إلى القصر، إلاّ أنه يضطر إلى تطويلها نزولاً عند متطلبات السجع، ومع ذلك فنثره يميل إلى الوضوح التام، فلا يستخدم ألفاظاً حوشية ماتت في عصره، أو قل استخدامها حتى لم تعد تفهم، وإنما كان يختار من كلمه ما رق لفظه، وسهل على المتلقي فهمه.

وكان قاضي سالونيك، الذي نسخ رحلتيه الرومية والمصرية قد انتقد اسلوبه انتقاداً لاذعاً فقال أنهما «لا يخلوان من سقطات من جهة اللفظ والمعنى، لا يرتضيها كل عالم مُهذَّب كما لا يخفى، لكنني كتبتهما على ما فيهما من عوَج، ومع ما يوجد في تضاعيفهما مما يُعاف ويُمَج، لأن غالبها عند ذوي الانصاف يليق بالاستجادة والاستظراف، ولا يترك اللبيب النبيل الخير الكثير لاجل الشر القليل، ولا يهجر الورد بلا شك لما يقارنه من الشوك. هذا وقد أصلحت عند الكتابة، بعدما عدم فيه الإصابة، مما لا يحتاج الى تكرير النظر، قل أو كثر، وأما الهنات التي تحتاج الى كثير من المحو والاثبات، فتركتها على تلك الحالات، إذ ما انا بانشاء أثر من لسانه بضَمين، وما أنا باصلاح ما أفسد قبل سؤاله بقمين، ولو التمس ذلك مني لوجدني غير ضنين»[1]. ونحن لم نجد لأسلوب هذا الناسخ ميزة على أسلوب فضل الله، فكلاهما مسجوع، ويميل إلى المحسنات اللفظية، ولا يبعد أن يكون كلامه محمولا على نوع من المنافسة، أو الموقف الشخصي، فهو معاصر له، وتولى المناصب القضائية مثله، وبينهما معرفة يؤكدها قوله أنه لم يكن ليبخل عليه بإصلاح لغة كتابه لو كان قد عرض عليه ذلك، وفي هذه العبارة ما ينطوي على شيء من التعالي كما هو واضح.

وعمد إلى تزيين أسلوبه بذكر أبيات من الشعر توافق المعنى وتؤكده، وهي مما عني باختياره من دواوين الشعراء ومصادر الأدب، وتخريج هذه الأبيات يكشف عن

(1) المخطوط، الورقة 224.

تنوع قراءاته الأدبية، وذوقه الرفيع، وحسن استشهاده بالشعر في مواضعه، لكنه لم يذكر أسماء الشعراء الذين رجع استشهد بشعرهم إلاّ نادراً، ثم أنه استشهد أيضاً بأبيات مفردة، ومتفرقة انتقاها من قصائد نظمها هو في مناسبات مختلفة، دون أن يطيل في النقل خشية من إدخال الملل على القارئ، لكنه أشار إلى عدد أبيات القصيدة التي انتقى منها ما أراد.

أهمية المخطوط

وقفنا على رحلتين مهمتين من أصل ثلاث رحلات كتبها فضل الله بن محب الله في حياته، هما:

1- الرحلة الرومية. وفيها وصف لمراحل الطريق الذي قطعه منذ مغادرته دمشق وحتى وصوله إلى القسطنطينية، وقد سجل المؤلف تاريخ شروعه بالسفر بكلمة (غنا) وهو ما قيمته على وفق حساب الجمل سنة 1051، وحدد ذلك بالأيام فذكر أنه كان في 15 شعبان من ذلك العام، فوافق هذا اليوم التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة 1641م[1]، ولم يكن عمره قد تجاوز آنذاك العشرين عاماً. وقد ذكر سبب تسجيله لوقائع هذه الرحلة فقال «فلم أرَ لي مُشغلاً في هذه البطالة، ولا مُسلياً في كل حالة، سوى التسلي بترويح النفوس، ونقش السطور في الطُروس، وتحبير وجوه هذه الصحائف، بذكر بعض الوقائع واللطائف، فكان ذلك باعثاً لي على تحرير هذه الرحلة، وسائقاً إلى هذه الطريقة السهلة، وقد جمعت فيها أسماء الطرقات والمنازل، وذكر ما لاقيته من الأماكن والمناهل، متكلاً في ذلك على فهمي، وقانعاً بحظي[2] وإن قل سَهمي، فإن النفس تهوى أن تضرب في كل فن بسهم ونصيب، ولا عليها أن تخطئ الغرض أو تصيب، سالكاً طريق الإيجاز، في الحقيقة لا المجاز، وهو تاريخ وقائع، ومجموع أدب جامع، لأن الكتابة قيد العلوم، وحفظ ما أفاده المنطوق والمفهوم، والنظم الرقيق عروس الآداب»[3].

---

(1) الورقة 129.

(2) في الأصل (بخطي).

(3) المخطوط، الورقة 130.

وصف مراحل الطريق من القرى والخانات والمدن التي نزل فيها، وقد بلغت أربعين مرحلة، تبلغ المسافة بين كل مرحلة وأخرى نحو أربعين كيلومترا، وقد تزيد أو تنقص بحسب وعورة الطريق أو سهولته، وجاء وصفه لما مر به من تلك المعالم حياً معبراً عن حالها من العمارة، فقال عن بلدة القصير قرب دمشق أنها «قرية غرّاء، ذات أرض خضراء، واسعة الأرجاء، حسنة الأنحاء،بها نهر عذب الماء، وخان متداعي البناء»[1]، ووصف قرية القطيفة بأنها «ظريفة عالية، بها تكية لطيفة سامية، وخان حسن وجامع ذو بناء مستحسن وحمام ، صحيحة الهواء، وسوق حسن البناء، رحب الفناء»[2] ووصف حماة بقوله «من أحسن البلاد وألطفها وأنزهها وأترفها ، ذات قلعة شامخة، عالية باذخة، مليحة الأبراج والأبواب، لكنها الآن مُشرفة على الخراب، وبها جوامع ومساجد ومآثر ومعاهد، حاوية للبهاء والرٍّونق، ومنقوشة البناء بالحجر الأبلق، مستدير بها العاصي على غالبها من الشرق والشمال»[3] ووصف خان قلعة المضيق بأنه «خان منازله واسعة، وقبابه شاسعة»[4]، ومثله حديثه عن قرية جسر الشغور، إذ قال أنها «قرية بلا شك ولا مرية، وليس فيها سوى هذا الخان، وهو مهدوم الجدران، وبالي الأطلال والأركان»[5]. ووصف خاناً كان قد شيده بيرام باشا، الوزير الأعظم، بأنه «خان معد لأبناء السبيل، لطيف البنيان»[6]، ووصف خان بيري باشا «وهو خان قديم، لكن بنيانه غير رميم، فرحم الله تعالى بانيه على بنيانه، فإنه أحكم أساس جدرانه»[7]، وعين تاريخ إنشاء خان محمد باشا، من محطات الطريق، إذ قال «وهو خان وأي خان، محكم المباني، عظيم البنيان، لم يُعمَّر على مثاله، ولا بُني على منواله، وهو حصين متين، حادث في سنة سبع وعشرين [وألف][8]»، ووصف بلدة أركلي بقوله «هي قصبة صغيرة، وأشجار بساتينها كثيرة، وبها جامع لطيف

---

(1) المخطوط الورقة 128.

(2) الورقة 129.

(3) الورقة 134.

(4) الورقة نفسها

(5) الورقة نفسها.

(6) الورقة 146

(7) الورقة 138.

(8) وتقابل سنة 1617م.

فريد، وخارجه منارة عالية ذات طول مديد، مفردة ترى من نحو نصف بريد»[1]، وغير ذلك كثير.

وبهرته استانبول بجوامعها ومدارسها الكبيرة والكثيرة، وسجل إعجابه بها بقوله «أنها، تعجز عن وصفها الألسن، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، لا زالت دار السلام والايمان، ومستقر الأمن والأمان»[2]. ووصف ما ضمته من المنشآت، ومنها جامع آيا صوفيه، وجامع السلطان سليم، وجامع السليمانية، وجامع شهزاده، وجامع السلطان أحمد الثالث، ووضح مزاياها، فمما قاله في جامع آيا صوفيه مثلاً أنه «الجامع الكبير المشهور، فهو أعظم معاهدها وأجل مشاهدها، يَحار النظر فيه ويتحيَّر دون تصور قوادمه وخوافيه، ذو أبنية غريبة جميلة، وأعمدة عجيبة جليلة، وقبة مُحيِّرة للعقل في التدوير والتقويس[3]، والتربيع والتدليس، فكم من بناء داخل بناء، وقوس داخل آخر، وكم من إحكام مرتفع وتحريف مصطنع، كأنه بذلك إرَم ذات العماد، وفاخر فلا يحيطه نظر ولا تفكر ولا يحكيه عقل ولا تصور، فلما تأملت قبتَها العالية، ورأيت أبنيتها الهائلة، تذكرت قبة النسْر بجامع بني أميَّة، بدمشق المحميَّة»[4]. كما أشار إلى معالم القسطنطينية الأخرى، منها مدرسة المنلا الكوراني، والكاغد خانه (معمل الورق)، وقلعة روميلي حصار، ومدرسة السكبانية، ومدرسة القلندرخانه، وغير ذلك من المعالم. وتحدث عن مراسم المولد النبوي فيها تفصيلاً، وتطرق إلى من التقى بهم من العلماء الكبار، ومنهم شيوخ الإسلام، ومفتون، وقضاة، ومدرسون. وعاد إلى دمشق، ماراً بحلب ثم حمص، واصفاً كلا منهما على عادته. ووصل دمشق في سنة 1052هـ/1642م، وذكر هو أنه فرغ من تحرير رحلته في مستهل جمادى الأولى من تلك السنة[5].

اعتمد المؤلف في كتابه على مشاهداته العيانية لما مر به من معالم، لكننا وجدناه في بعض المواضع يقتبس عبارات في وصف بعض المراحل من كتاب بدر

---

(1) الورقة 139.

(2) المخطوط الورقة 150.

(3) في الأصل (والتقديس).

(4) المخطوط 166.

(5) المخطوط الورقة 184.

الدين محمد بن رضي الدين الغزي الدمشقي (المتوفى سنة 984هـ/1577م) المعنون (المطالع البدرية في المنازل الرومية)[1]، وهو كتاب يقترب منه موضوعاً وأسلوباً.

2- الرحلة المصرية. وصف فيها وقائع رحلته إلى مصر وإقامته في القاهرة، وذكر أنه دخل القاهرة في 16 رمضان، ولم يُعيِّن سنة ذلك، لكن ابنه محمد أمين عَيَّن حدوثها في سنة 1059هـ/23 أيلول 1649م، وذكر هو أنه قام بها اقتداءً بجده فضل الله الحموي الدمشقي، حين قصدها ملازماً للعلامة الشيخ محمد الشهير بجوي زاده، وصرح أن «العلة الغائية والفاعلية» لرحلته هي طلب تعيينه في بعض المناصب الشرعية، لما تناهى إلى علمه من تعيين محمد بن عبد الحليم البورسوي قاضياً لقضاتها، وكان هذا زميلاً له في التلمذة على شيخ الإسلام يحيى بن زكريا حينما أقام بالقسطنطينية قبل ثماني سنوات، فكان يرجو أن يكون ما بينهما «من الحقوق القديمة» سبباً في تحقيق مطلبه، وقد حقق له القاضي طلبه بأن عينه نائباً له في بعض محاكم القاهرة.

وتختلف رحلته هذه عن رحلته الرومية بعض الإختلاف، فهو لم يذكر المراحل التي قطعها في طريقه من دمشق إلى القاهرة، وإنما انتقل فجأة لوصف انطباعاته الأولى عن القاهرة بعد أن دخلها، مسمياً إياها «المدينة العظيمة»، مسجلاً دهشته لاتساع مساحتها، وارتفاع مبانيها، وأناقة ما دخل إليه من منازلها، وكثرة الزحام في طرقها، وعذوبة نيلها، كما أنه سجل اعجابه بمتنزهاتها، لا سيما بركة الفيل، وقد سحره منظرها فقال «وأما بُركة الفيل فيحق بها المقام والمَقيل، لاسيما إذا جرى على لُجَين الماء ذهب الأصيل، وأشرقت من أفقها كواكب النيل، وهي كالبدر والمناظر فوقها تسر النواظر، وإذا قابلتها الشمس فلها بذلك منظر عجيب، ومرأى حسن ورونق غريب»[2].

وذهب إلى أهرام الجيزة، فوصفها بقوله «وأما الأهرام فقد كنا شغفنا بأخبارها في الشام، فلم يتيسر رؤيا الا من بعيد، لعدم رفقة في تلك الايام. وقد

---

(1) وقد تولى المهدي عيد الرواضية تحقيقه، أبو ظبي- بيروت 2004.

(2) الورقة 191

هالنا أبو الهَول، وضاق في وصفه مجال القول، واستصغرنا في جنب الهَرَمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكلٌ يأتي في وصفها بما نقله لا بما عقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توَهُم حدوده، فيا له من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية في آبائه وجدوده، وسُمّار الأخبار تذكر حديث أحداث عاده وثمودِه، ويَدلّ إحكامه وعلوه على علو همة بانيه في بأسه وجوده...وهما كالطودين الراسخين، وكالجبلين الشامخين، قد فنيت الدهور وهما باقيان»[1].

وأبدى تقديره للجامع الإزهر، في كثرة أوقافه، وسعته، وكثرة طلبته، فقال «هو أشهر من أن يُذكر، فكل بَركة في هذه الديار، فمن بَركة ما يُتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار، من تلاوة القرآن العظيم، وإملاء حديث النبي النبيه الكريم، وأصول الدين وبقية العلوم، كما هو مشهور معلوم، به من الرَونق والرَواقات، وانبساط النفس في جميع الساعات، ما لا يوجد في غيره من الجوامع، مع كمال نظافتها وتزخرفها بأنواع النقوشات، وذلك سرٌ مُودَع فيه، وهو أكبر دليل على خلوص نيَّة بانيه، ولا غَرْوَ فإن لله خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وقد وجدت فيه من الأنس ما لا يمكن عنه وصف، وبه من أهل الله الواصلين الى رَبِّه الكشف، لو اقسموا على الله لأبرَّهم، ولو سألوا منه دوام السرور لمنحهم ما سَرَّهم، وبه جم غفير لا يعلم بعددهم إلاّ العليم الخبير»[2]. ثم أنه انتقل إلى ذكر من التقى بهم من علماء القاهرة في مختلف العلوم، ومن زارهم من أحفاد العلماء الذين قرأ لهم، وأرباب الأسر النبيلة.

ومن الرحلتين نسخة في ضمن مجموع يحتفظ به المركز الوطني للمخطوطات في بغداد، تحت العدد 9177، وتشغل الرحلة الرومية الأوراق 126-183، بينما تشغل الرحلة المصرية الأوراق 184-223[3]، ويبلغ عدد السطور في كل ورقة 27 سطراً،

---

(1) الورقة 192

(2) الورقة196.

(3) وقع أحد الموظفين في المركز الوطني للمخطوطات ببغداد في جملة من الأخطاء أثناء فهرسته لهذا المخطوط، أولها أنه نسب (الرحلة الرومية) إلى عبد الرحمن العمادي، ولا علاقة لهذا العالم بالرحلة من قريب أو بعيد.. فقال «لم يرد اسم صاحب الرحلة صراحة وإنما ورد

ومقياس الورقة 25.5× 5.15 سم، وقد كتبت بخط نسخ متقن. وتتقدم الرحلة الرومية مجموعة من الرسائل التي كتبها بعض علماء دمشق من معاصري المؤلف، لأغراض مختلفة، ومن الواضح أنها من جمعه، وهي تشغل الأوراق 110-125[1].

وفي آخر النسخة تعليقة لناسخ الرحلتين، وهو قاضي سلانيك السابق عبد الله الشهير بسعدي، تشير إلى أنه فرغ منها في شهر ربيع الأول سنة 1073هـ/1662م.

على أن هاتين الرحلتين ومرفقاتهما من الرسائل لم تصلنا بخط الناسخ المذكور، وإنما بخط ناسخ متأخر، نقل ما وجده بأمانة، وأضاف إليها رسائل أخرى لا علاقة لها بمضمون الرحلتين، ونرى أنه بغدادي عاش في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) لأن أكثر تلك الرسائل هي لعلماء بغداديين عاشوا في تلك الحقبة. وعلى الرغم من دقة الناسخ الأخير في نسخ الأصل وجمال خطه، إلاّ أن ما نسخه لم يخلو من أخطاء إملائية قليلة هنا وهناك.

ضمن نص في تقريض الكتاب اسم شهاب الدين العمادي سنة 1059هـ/1649م»، وكاتب التقريض هو عبد الرحمن العمادي فظن أنه من تأليفه، والواقع أن اسم فضل الله المحبي ورد صراحة في نص الرحلة، الورقة 157، وفي تذييل للناسخ في آخر الرحلة. وثانيها أنه ذكر أن مؤلف الرحلة الثانية، أي المصرية، هو فضل الله بن محب الله المحبي قابل في أثناء هذه الرحلة «كثيراً من الأعلام المعروفين في المدن التي مر بها وفيهم بعض أساتذة والده يحيى بن زكريا وإبراهيم الماهري ومحمد بن إدريس»، وليس في الرحلة من يدعى ابراهيم الماهري، وأما محمد بن إدريس فهو الإمام الشافعي وهو قد زار قبره، لأنه توفي قبل هذه الرحلة بعدة قرون، وثالث تلك الأوهام أنه تصور أن المخطوط الذي ضم الرحلتين هو «بخط عبد الله السيد الشريف المعروف بسعدي زاده سنة 1073هـ/1662» مع أن المخطوط بخط ناسخ عراقي من القرن الثالث عشر للهجرة (19م) نسخه عن الأصل الذي كتبه ذلك الناسخ سعدي زاده، ورابعها أنه سمى أبا فضل الله (محب الدين) والصحيح أنه (محب الله) كما وصف نفسه في الورقة المذكورة، وكما سماه ابنه محمد أمين المحبي في (خلاصة الأثر)، وكل هذه الأخطاء ورد في بضعة سطور للمُفهرس المذكور، وتكثر مثل هذه الأوهام في الفهارس التي يعدها أمثال أولئك الموظفين. اسامة النقشبندي: الرحلات الخطية في دار صدام للمخطوطات، مجلة المورد، العدد4، المجلد 18، 1989ص236-245.

(1) الأوراق 110- 126.

خطتنا في التحقيق

ونظراً لأهمية هاتين الرحلتين وجِدّة معلوماتهما فقد وجدنا من المفيد تحقيقهما ونشرهما، ملتزمين الخطوات الآتية:

1- تصحيح الأخطاء الإملائية وإثبات ذلك غالباً في الهامش.

2- تخريج الآي الكريم والحديث الشريف.

3- تخريج الأبيات الكثيرة التي استشهد بها المؤلف ما أمكن، عدا ما كان من نظمه هو.

4- الترجمة للأعلام الذين مر ذكرهم في الكتاب على نحو موجز يوضح مكانتهم في عصر المؤلف، من صدور عظام، ووزراء، وشيوخ، وعلماء، ومؤلفين، ومدرسين. ومقابلة ما كتبه عنهم على ما دوَّنه ابنه محمد أمين في (خلاصة الأثر) بسبب أن الأخير اعتمد على هاتين الرحلتين، وعلى أوراق المؤلف الأخرى، في ضمن ما اعتمده من مصادر.

5- متابعة المؤلف في المراحل التي قطعها في أثناء رحلته، وتدقيق أسمائها ومواقعها ومقابلة ذلك على ما ورد في كتب الرحلات قريبة العهد من المؤلف، وتعيين أماكنها في الوقت الحاضر ما أمكن ذلك.

6- توضيح معاني الألفاظ والمصطلحات الحضارية كلما وردت في الكتاب.

7- وضع التواريخ الميلادية ازاء التواريخ الهجرية تسهيلاً للباحثين الذين يعتمدون التاريخ الميلادي في أبحاثهم.

8- استخرجنا من حديثه عن المعالم التي مر بها عنوانات جانبية حصرناها بين عضادات تيسيراً للقارئ.

9- ألحقنا الرسائل والتقاريض التي كتبها علماء عصره من الشاميين وغيرهم بالكتاب، بعد أن وضعنا لكل منها عنواناً ورقماً متسلسلاً، فهي تقدم نماذج مهمة لأدب الرسائل في ذلك العصر.

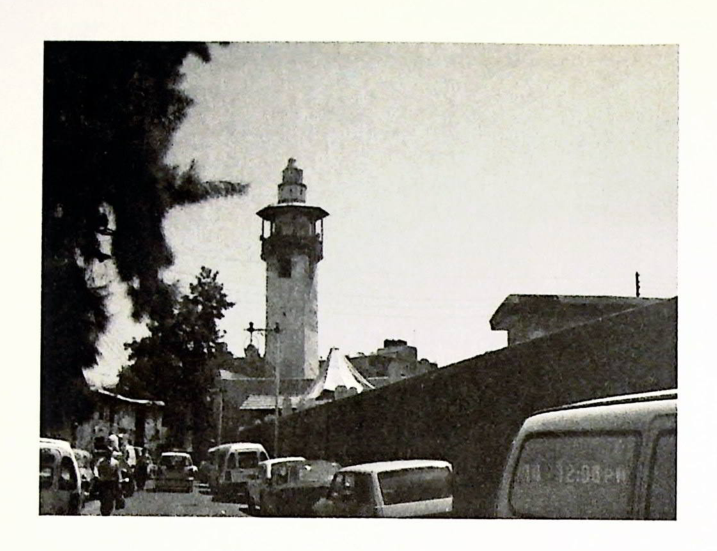
وأخيراً فهذا نص جديد في أدب الرحلات عند العرب، يساهم في إكمال صورة هذا الأدب في العصر العثماني، الذي نعتقد أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث عن نصوصه ووثائقه لتكون معيناً للدارسين والباحثين.

ولابد هنا أن أسجل وافر شكري وتقديري للباحث الدؤوب السيد زين أحمد النقشبندي الذي كان له الفضل في الحصول على نسخة مصورة عن النسخة المخطوطة التي اعتمدتها في تحقيق الكتاب. جزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

والله تعالى من وراء القصد

عماد عبد السلام رؤوف

إربل 2011/11/11

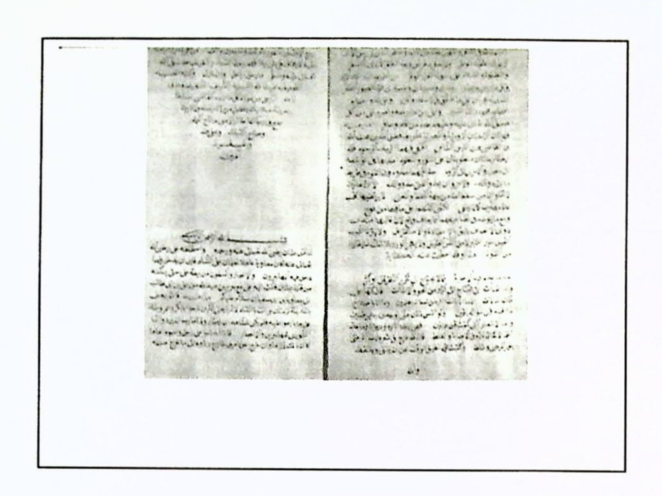


جامع الجراح بدمشق حيث مدفن آل المحبي

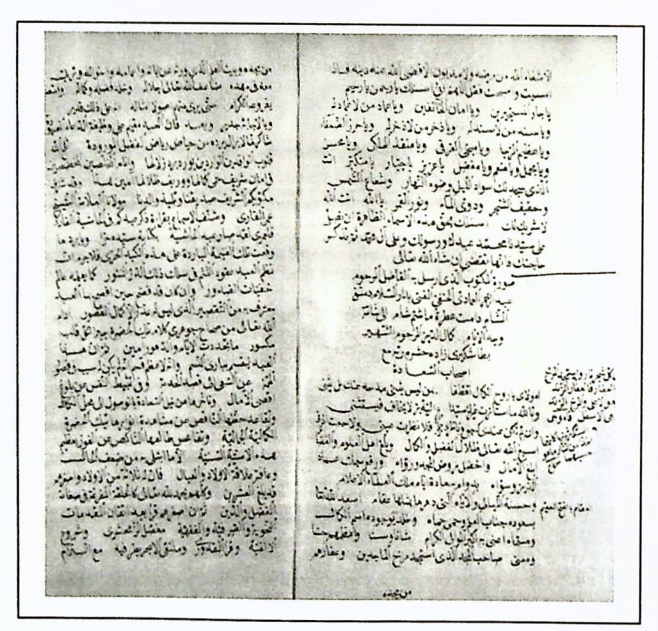
الورقة الأولى من الرحلة المصرية

الورقة الأخيرة من الرحلة الرومية

الورقة الأولى من الرحلة المصرية



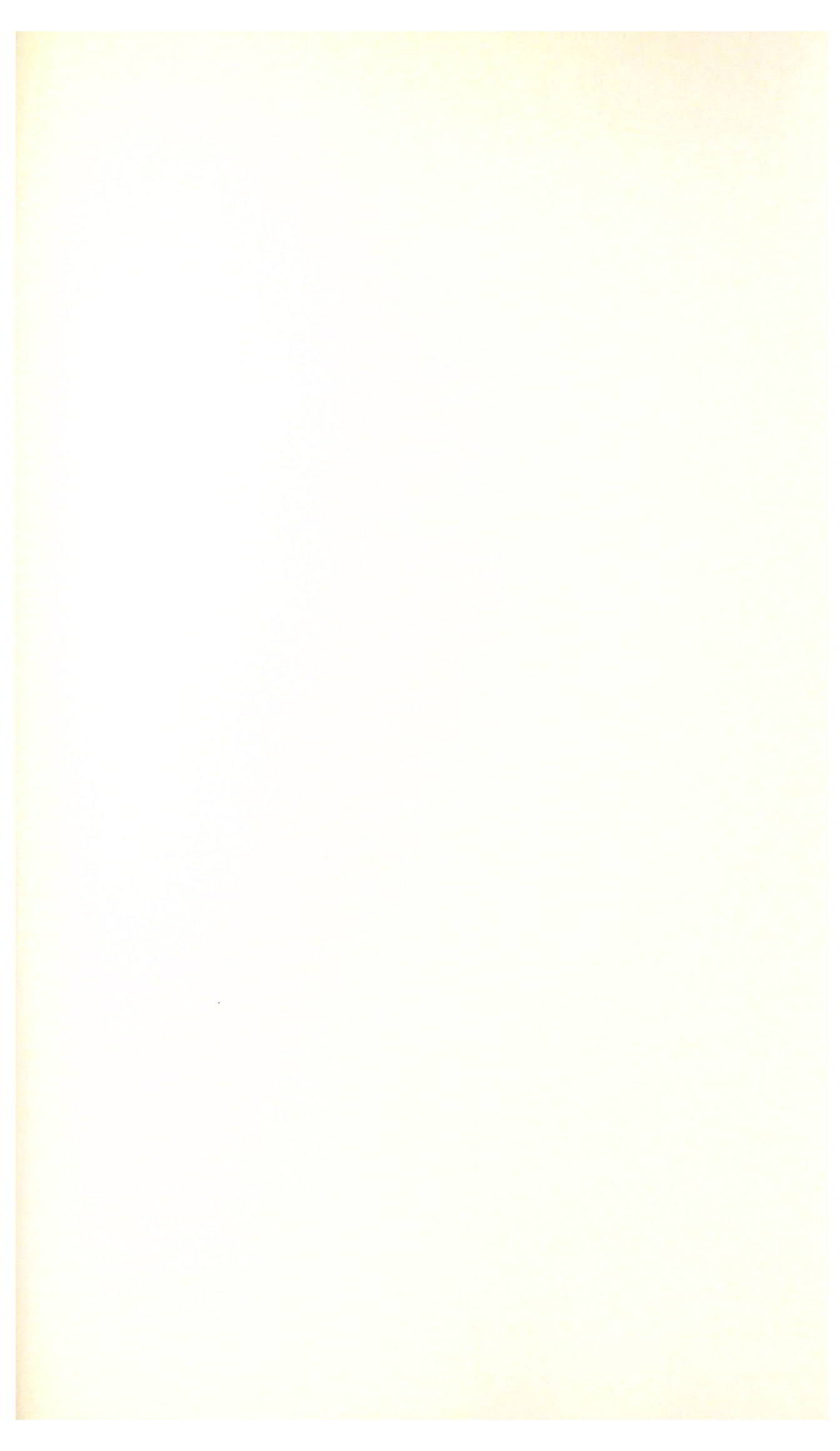
الورقة الأخيرة من الرحلة المصرية



رسالة من عبد الرحمن العمادي إلى طاشكبري زاده



الرحلة الرومية



الحمد لله المُنعم على عباده بالإعانة والتوفيق، الصاحب في السفر الرفيق، ونعم الرفيق، الهادي بفضله إلى سُبُل الخيرات وأقوم طريق، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء ويُوليه من شاء من كل فريق، وأفضل الصلوة وأتم السلام على سيدنا محمد صاحب الهجرة التي هي الغُرّة لتاريخ الإسلام، شفيعنا وملاذنا وعصمتنا ومعاذنا مَن عَمّت أنوار هَدْيه الآفاق والأقطار، وتاهت بحلول مُنيف ركابه القفار والأمصار، وباهت بشريف جنابه الأدوار والأعصار، من سَنّ لسُنته سُننا سَنيا، وحاز سالك شريعته الغراء طريقاً عليّا، وعلى آله الحائزين بعظيم نسبته فخراً بَهيّا، وأصحابه الفائزين بكريم صُحبته، بأيهم اقتدى مُقتدٍ اهتدى صَراحاً سَوياً، الناهجين مناهج خطابه المتأدبين بآدابه، المُعفّرين جباهَهم بطيِّب ترابه، ما عزمت عزيمة امرئ بسفر، وما طلع صُبح المُنى وأسفر.

وبعد، فقد عزمتُ بعدما استشرت بعنفوان الشباب، وجَزَمتُ غب ما استخرت بعنوان شريف الكتاب، فشدَدَتُ مَطيّة ركابي، وشيّدت دعائم الرِّجلة كذهابي[1]، وركبت جواد الأخطار، لبلوغ المُراد والأمطار، فمن أحب السلامة كان التقصير أمامه، شعر[2]:

حُبُّ السَّلامةِ يثني عَزمَ صاحبه   عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ

وقصدت السفر إلى القسطنطينية المحمية، دار السلطنة العلية، للثم العتبة العالية، والتشرف بالدوحة السامية، أعني بها سُدَّة سلطان العلماء الأعلام [و 127] على الإطلاق، مولى الموالي الكرام بالاستحقاق، مُحرِّر المعقول والمنقول، مقرر الفروع والأصول، كشاف أسرار حقائق التنزيل، مصباح أنوار دقائق التأويل، مغني اللبيب بإيضاح تقريره، ومحيي ذوي الأفهام بدُرَر غُرر تحريره، بحر الخير والجبر، كنز العزة والفخر، مختار الملوك، مرشد أهل الطريق والسلوك، كبير المملكة السلطانية، بَركة الدولة العثمانية الخاقانية، شعر:

هو الدين والدنيا هو اللفظ والمعنى   هو الذروة العليا هو الغاية القصوى

---

(1) هكذا ولم نقف على أي معنى يريد.

(2) البيت من لامية العجم للطغرائي.

مَنْ سارت الركبان بجميل ذكره، وروى كل انسان حديث جَبره، واحد الزمان، وثاني النُعمى الذي لم تأت بنِدِّه الأيام والشهور، ولم تسمح بمجده الأعوام والعصور، شعر[1]:

مضت الدهور وما أتيْن بمثله ولقد أتى فعجزنَ عن نظرائه

مجدد عصره، ومجتهد دهره، قطب زمانه، ونادرة أوانه، الطَوْد الأشم، والبحر الخضَم، المُطوِّق أعناق الأمم، بحُلى النعم، الذي عجزت عن حصر وصفه الصِفَة، وقصَّرت فلم تزده معرفة، شعر[2]:

من كان فوقَ مَحلَّ الشمسِ موضعه فليس يرفعه شيءٌ ولا يَضَع

أستاذي[3] وأستاذ والدي، وكهفي وملاذي في طارفي وتالدي، شيخ الإسلام ابن شيخ الإسلام، حضرة المولى يحيى بن زكريا بن بيرام[4]، أمتع الله بحياته الإسلام والمسلمين، وأسبغ وَريف[5] ظلالها على العالمين، وأبقى بابه الشريف باباً

---

(1) البيت لأبي الطيب المتنبي.

(2) البيت لأبي الطيب المتنبي.

(3) في الاصل (أستاذ).

(4) ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ناقلا عن أبيه، ولكن بغير هذه العبارة التي أوردها في الرحلة، فقال - بعد أن أثنى عليه ثناءً كثيراً- أنه ولد بالقسطنطينية سنة 960هـ/ 1553م ولازم ودرس في مدارسها، وحج في خدمة والده سنة 994هـ1585م، وتولى قضاء حلب سنة 1004هـ/ 1595م، ثم عزل، وعين بعدها على قضاء مصر، فبروسة، ثم ولي قضاء أدرنه ثم قضاء القسطنطينية، ثم صار قاضي عسكر بأناطولي، ثم بروميلي، وعزل بعد ذلك، وولي بعد مدة الافتاء سنة 1031هـ/ 1621م، ولبث فيه عشر سنين، وتكرر توليه القضاء وعزله عنه. وقال: ولم يتفق لأحد من المفتين ما اتفق له من طول المدة والإقبال والحرمة والجلالة ولم يمدح أحد بما مدح به من مشاهير تكفل والدي بجمع حصة منها بلغت مقدار ثلاثة كراريس وهي قطرة من بحر ورزق السعادة في الجاه والحفدة، وقد جمع شيخ الإسلام محمد البورسوي فتاويه التي وقعت في عهده في كتاب سماه فتاوي يحيى. وتوفي في ذي الحجة سنة1023هـ/ 1644م. وينظر في ترجمته أيضاً: شمس الدين سامي:قاموس الأعلام ج4 ص765 واسماعيل البغدادي: هدية العارفين ج4 ص532 وأحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام ج1 ص468.

(5) الوريف: الظِّلُ الواسعُ الطويل الممتد.

مجريًا للقبول والإقبال، وأعتابه المُنيفة محط الرجال مطافاً للأفاضل، وحَرَماً لوضع الجباه، ما دار الفلك، وسار نجمٌ في الحَلَك.

ثم لما أذّن داعي الفلاح، ولمع نور الفجر ولاح، أنشدت ما قيل، وكفى بذلك في هذا المقام من دليل، شعر:

إن يكن للصباح فضل على الليـ ـل بتنويره دُجى الأحلاك

فله في تفرق الشمس فعل لم تسعه دوائر الأفلاك

فأخذت في فكر دواعي الإغتراب والرحيل، وقلت: عسى أن يَهديني رَبّي[1] سواء السبيل [و 128]، وأخذ الأصحاب في أنواع الوداع، وهو ما بين مؤمّن وداع، شعر[2]:

حُشاشة نفسٍ ودّعت يوم ودَّعوا فلم أدرَ أي الضاعنين أشيّع

وحين أمتطيت متن الجَواد، تلا القلب مع بعض الأحباب الأمجاد: (إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)[3]. وأنشد بعضهم البيتين المُجرّبين في عَوْد من أنشد له عند الوداع سالماً إلى وطنه، كما نصَّ عليه حجة الإسلام الغزالي، أمدنا الله تعالى بمَدَد سرّه وعلنه، شعر:

يا من يريد الرحيل عنّا أسعدك الله في ارتحالك

كــان لــك الله خــير واقِ أمنَــك الله في المــسالك

[التوجه من دمشق]

فتوجهت من دمشق الشام المحروسة، بخدمة قاضيها الهُمام، صاحب الذات المأنوسة، وساحب أذيال الفخار، السائر في منازل الكمال كالقمر السيأر، من حاز قصب السَّبق في مضمار العلوم، وفاز بالقدْح المُعلّى في المنثور والمنظوم، نتيجة المقدَّم والتالي، الإمام الذي يقتدي به المُصلّي في جادة المعالي، الذي أجرى طرف

---

(1) في الأصل تكررت كلمة (ربي).

(2) البيتان لأبي الطيب المتنبي.

(3) القصص، الآية 85.

فضله المُجلى في حَلبة[1] الرهان، وضربت له خيام المدح بين أبناء الزمان، فسوابق فصاحته لا تجارى، ولواحق بلاغته لا تبارى، بحر الأدب الذي ما للُجَّته ساحل، من ترك القاضيين الفاضل والسعيد[2] بمراحل، العديم النظير في حل المشكلات والمباحث، وليس له في القضاة ثان، بل لعَمْري إنه الثالث، ما زال حكم الله يشرق في وجهه في الأرض مُذ نيطت به الأحكام، فثمار علومه يانعة، وأنوار أفكاره ساطعة، إن كتب طرَّز بالليل رداء نهاره، أو نثر فالنجوم الزُهر بعض نِثاره، فطبعه ألطف من الصَبا، وأبهى من زهر الرُبى، من أصبح في ثغر الدهر ابتساما، ولجيد الزمان عِقداً ونظاماً، شعر:

له الكلم الغُر التي لو تجسمت لكانت لوجه الدهر عَينا وحاجبا[3]

جَلَّت معاني صفاته أن يصفها بَياني، أو يحصر نعوت فضائلها قلم بناني، فمُطوَّل ثنائي عليه مختصر، وجُلُّ ولائي لديه مقتصر، من إليه انتمائي ونِسبتي، المولى [و129]، الأجل محمد عِصْمتي[4]، وقد كنت نُظمت في سلك خدمه، ورتعت في رياض فضله وكرَمه، وتشرفت بنيابة بعض خدمه، وامتزجت بحضرته امتزاج الراح بالماء القراح، ولزمته لزوم الظل في الغدو والرَّواح، وصرت مُضافاً لجنابه الإضافة المعنوية، لما بينه وبين الوالد المرحوم من المحبة القلبية القبلية، وقد

---

(1) في الأصل (حلية).

(2) القاضي الفاضل هو عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد أديب نابغ، ولد في بيسان سنة 529هـ وعمل في ديوان المكاتبات في مصر حيث برزت موهبته الأدبية، فصار يضرب به المثل في الأدب والترسل، انشأ في القاهرة مدرسة وألحق بها خزانة كبرى للكتب. وتوفي سنة 596هـ. والقاضي السعيد هو هبة الله بن جعفر بن المعتمد، المعروف بابن سناء الملك، ولد سنة 550 وتوفي سنة 608هـ، عرف بالسعيد لوفرة ثروته وكثرة نعمه.

(3) أصل البيت (له الشيم الشم التي لو تجسمت) وهو لشبل الدولة أبي الهيجاء مقاتل بن عطية البكري الحجازي كما في وفيات الأعيان ج5 ص257 .

(4) هو محمد بن فضل الله بن محمد البركوي المتخلص بعصمتي: عالم له شعر، تولى صدارة روم ايلي. له (ديوان شعر) تركي، وله كتاب في الآداب والفضائل بالعربية بعنوان (مجمع المهمات في فعل الطاعات) بخطه، في الأزهر برقم [294] 4198، فرغ منه سنة1070هـ/1660م وتوفي سنة 1076هـ/ 1666م وترجم له المحبي في خلاصة ج4 ص 11 واسماعيل البغدادي: هدية العارفين ج2 ص 291 وفهرس المكتبة الأزهرية ج3 ص 734.

استخلصني لنفسه، وأمرني بلزوم عالي مجلسه، فاعداني فضلاً، وهذبني قولاً وفعلاً فتعلمت الترسل من نثره، وأصبحت شاعراً برواية شعره[1]:

لازمت خدمته فأدّب خاطري فالمدح من إحسانه معدود

فإذا نظمت له المديح فإنما أبدى بضاعته له وأعيد

وكان يجاملني مجاملة الوالد الشفيق، ويحاملني محاملة الرفيق الرفيق، ونظرت من وافي فضله، ووافر لطفه، ما يعجز البَنان عن بعض وصفه، ولله درّ القائل حيث قال، وأبان عن الحال، شعر:

وإذا بليتَ بفقد أهلك والحمى وشغلت في قطع الفلا والفدفد

لا تنزلنْ سوى بساحة ماجدٍ أو في حمِى عذب المراشف أغيد

لا زالت شموس دولته طالعة من أفق الكمال، ودام لكل أريب ذخرا، ولكل فاضل أديب فخرا، شعر:

ما اشتاق أهلاً ومنزلاً دَنِفٌ وما بكى من نواه مُرتَحِلُ

وكان الارتحال عن الأوطان سنة (غنا)[2] صبيحة النصف من شعبان[3].

فبينما نحن في المسير، في خدمة المولى النحرير، إذ رأينا حضرة الوزير المشير، صاحب القدر الخطير، أحمد باشا[4] محافظ المملكة الشريفة الشامية، واقفاً

---

(1) البيتان لعمارة اليمني كما في خريدة القصر للعماد الكاتب الاصبهاني.

(2) هذا بحساب الجمل، وقد كتب تحتها بالأرقام العدد 1051.

(3) ويوافق 19 تشرين الثاني من سنة 1641م.

(4) ترجم له المحبي في ج1ص380 فقال أنه أحمد باشا المعروف بالحافظ، أحد وزراء الدولة العثمانية، وانه كان عارفا بالعربية والفارسية وبعلوم الأدب والعَروض وله فيها تآليف، لم يزل يترقى في المناصب حتى ولي كفالة دمشق سنة 1018هـ/1609م فكان فيها جباراً ظالماً، صادر الأموال، وولته الدولة قيادة الجيش الذي كلف بقتال الأمير فخر الدين المعني، فلم يظفر به، ثم ولي كفالة آمد، ثم ولاه السلطان قيادة الجيش المكلف بتخليص بغداد من بكر صوباشي، وحاصر بغداد من غير جدوى، وذهب إلى القسطنطينية، ولكنه عزل وقتل في سنة 1041هـ/1631م. وله ترجمة مفصلة أخرى أوردها معاصره البوريني: تراجم الأعيان ج1 ص201-219.

لوداع المولى وللتشرف بحضرته العلية، فلما أخذا في السلام والكلام، وعمنا جميعاً من حضرة الوزير غاية الإكرام وقفا وقفة طويلة، وذكر كل منهما لآخر جميله.

[القصير]

ثم بعد موادَعة حضرة الوزير، حثثنا الرُكاب في المسير، حتى وصلنا إلى المرحلة الأولى، وهي قرية القصير[1]، فنزلناها ونحن راجون من كرمه سبحانه كل سؤل وخير، وهي قرية غرّاء، ذات أرض خضراء، واسعة الأرجاء، حسنة الأنحاء، بها نهر عذب الماء، وخان متداعي البناء. وقد صحبتني أخوتي مع أخصّاء [و130] الأحباب، فودعتهم جميعاً عندما عزموا على الذهاب، وأنشدت شقيقي الصغير[2]، مَن حُبُّه قامن[3] وإن ترحلت عنه في الضمير، بعد أن صبرت النفس على ألم فداعه[4]، وسألته تعالى أن يقرب أيام اجتماعه. شعر[5]:

إذا رأيتَ الوداع فاصبر ... ولا يَهُمّنك البُعـاد

وأبصر العَودَ عن قريب ... فإن قلب الوداع عـاد

وعندما عطف المودَّعُون بالقفول والرجوع، وانقطع التابع عن المتبوع، وقد فارقني من كنت أهواه، وأتملى بطلعة مُحيَّاه، فتزايدت بعد فراقه[6] الأشجان، واضرمت في الفؤاد لواعج النيران، فنطق لسان الحال، مفصحاً عن الحال، وقال: شعر:

يا ليت موقف توديعي لما كانا ... قد زاد قلبي أشواقاً وأشجانا

إلى آخر الأبيات عددها 11.

---

(1) بلدة تبعد عن حمص بنحو 35 كم، تأخذ مياهها من نهر العاصي، كانت مأهولة في عصور سحيقة في القدم، تجاورها بقايا مدينة قادش الأثرية، وتضم قنطرة وطاحون أثريين يرقيان إلى العصر الروماني، وآثار قديمة أخرى. كانت تعد أول مراحل الطريق من دمشق إلى حمص فحماة فحلب.

(2) ذكر المحبي أن اسمه (فيض الله) وقال أنه مات صغيراً. خلاصة الأثر ج3 ص279.

(3) كذا في الأصل، ولعلها من (قمن) أي ثبت.

(4) كذا في الأصل، ويمكن أن تكون (فراقه) لولا السجعة.

(5) البيت لمحمد بن عبد الرحمن التجيبي الأندلسي، كما في معجم شيوخ الدبوسي، الحديث رقم 58، ينظر موقع (موسوعة الحديث)

(6) في الأصل (فارقة).

[القطيفة]

ثم سرنا حين شاب مَفرِق الليل، وولّى من الصباح مُشمِّر الذيل، حتى وصلنا إلى المرحلة الثانية، وتسمى بقلعة القطيفة[1]، وهي ظريفة عالية، بها تكية لطيفة سامية، وخان حسن وجامع ذو بناء مستحسن وحمام ، صحيحة الهواء، وسوق حَسَن البناء، رَحب الفناء، وباني هذه الخيرات ومُرَتِّب تلك المَبَرَّات، المرحوم المغفور له سنان باشا، الوزير الأعظم- رحمه الله تعالى- على ما أحسن في وضع بنيانه وأحكم. وهو صاحب الخيرات المأثورة في أكثر البلاد، وحاوي المساعي المشكورة بين العباد، من رائح وغاد[2].

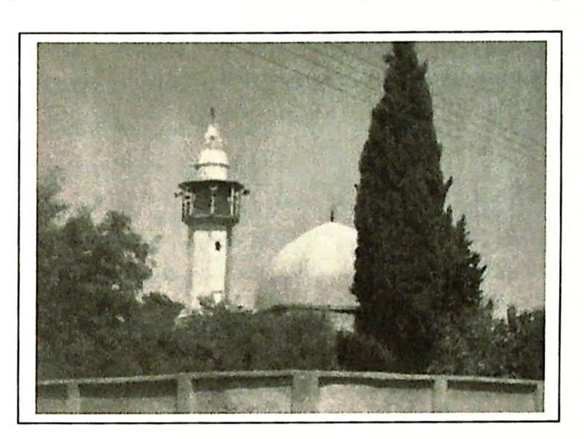
---

(1) كانت القطيفة في عهد ياقوت الحموي (معجم البلدان، دار صادر 1956، ج4 ص278) قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص، وعدّها ابن فضل الله العمري (التعريف بالمصطلح الشريف ص250) مفترقاً بين طريقي دمشق- حلب، ودمشق – الرحبة، ووصفها بدر الدين الغزي بأنها «قرية عامرة ذات خيرات وافرة، وغلال متكاثرة.. وهي من وقف الملك العادل نور الدين الشهيد، من جملة أوقافه على المرستان، وهي الآن ذخيرة السلطان». المطالع البدرية ص312.

(2) أنشأ سنان باشا مجموعة المنشآت هذه في القطيفة سنة 1000هـ/ 1591م، وهي تشتمل على قلعة وحمام وجامع وسوق ودكاكين ومطبخ ومشروع إروائي عرف بقبة العصافير، ويحيط بها سور مزين بالأحجار المضرسة. وكانت هذه المنشآت مبعث اعجاب كل من مر به من الرحالين، إذ ذكر محمد كبريت المدني (رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سيد طنطاوي، بيروت 1385هـ ص210) أنها «روضة غناء وغيضة حسناء كأنما قطفت من الجنة» ووصف خانها بأنه «للواردين وقاية وجنة، وهو الخان الذي لا يرى له عديل، ولا يدانيه في المحاسن مثيل، وفيه تكية للوافدين. وقال الخياري (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، تحقيق رجاء السامرائي، بغداد 1980، ج1 ص177) خان متسع الأكناف تام الاتساع» وضبطها عبد الله السويدي (النفحة المسكية في الرحلة المكية، بتحقيقنا، أبوظبي 2001، ص230) بأنها بتشديد الياء المكسورة، وقال أن فيها «خان كبير واسع، في باطنه خان آخر فيه بركة ماء أكثر من عشر في عشر، وفيه خان آخر للشتاء.. وفي الخان جامع كبيرخطب فيه.. وفي هذا الخان قلعة صغيرة يصنع فيها طعام للمسافرين، واليوم إنما يُطعمون الظلمة! وللمتولي بيت فوقاني ذو شبابيك تطل على البر والبساتين، مفرح في غاية حسن الموقع، وقف جميع ذلك سنان باشا رحمه الله تعالى» وقد أصاب الخراب جانباً من هذه المنشآت، فتهدم السوق والدكاكين، واندثر السور والمطبخ، كما زالت قبة العصافير أيضاً. أما سنان باشا فهو والي دمشق من سنة 994هـ إلى 997هـ/ 1585-1588م شغل منصب الصدارة العظمى في الدولة

ولما نزلنا في هذا الخان المذكور، حصل لنا فيه كمال السرور، وترحَّمتُ على من سَنَّ الخير في ذلك المكان، ودعوتُ للناظر فيه بخير وإحسان. وقد توجه صُحبة المولى جماعة من خواص أحبابه، ومن أكبر الملازمين له والمتعبدين بخدمة جنابه، فوقفت بعد موادعتهم وقفة المُسَلِّم، المتفكر المتأمل المتألم، شعر[1]:

خليلي هذا موقف من متيم   فعوجا قليلاً وأنظراه يسلم



من منشآت سنان باشا في القطيفة

[النبك]

ثم سِرنا بعزم غير مُرتاب، نطوي البيد كطَيِّ السِّجل للكتب، حتى وصلنا إلى المرحلة الثالثة، وهي قرية النَبك، فنظرناها خراباً، ولم نجد بها سوى ماء لطيف شراباً، فإنها غير معمورة، وبالبرد الشديد مغمورة مشهورة[2]، فلما نزلتها ضاق بها

العثمانية وتولى حلب ومصر وله اعمال عسكرية مهمة في اليمن وتونس كما اثرت عنه اعمال عمرانية كثيرة منها هذا الخان، وتوفى سنة 1004هـ/1595م..

(1) البيت لأبي نواس.

(2) تقع النبك في منتصف المسافة بين دمشق وحمص، وتبعد عن دمشق بنحو 80 كم، مر بها ابن جبير ووصفها بأن بها ماء جاريا ومحرثاً متسعا (رحلة ص180)، قال السويدي سنة 1157هـ/1744م ص229 «قرية كبيرة شربها من عين اعذب من الاولى وحواليها بساتين كثيرة وبظاهرها خان كبير لابناء السبيل وفي داخله خانان للشتاء وفيه جامع خطبة» (ص229)، قلنا: وهي اليوم مركز منطقة القلمون. .

عطني[1]، وقد بعدت عن أهلي ووطني، والسفر قد حال بيني وبين الإخوان، وأبعد عن الأحباب والخلان، فأنشدت صاحبي عندما غلب الوجد علي، شعر[2]:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بِسقَط اللوى بين الدُخول فحَوَملِ

فلم أرَ لي مُشغلاً في هذه البطالة، ولا مُسلياً في كل حالة، سوى التسلي بترويح النفوس، ونقش السطور في الطُروس، وتحبير وجوه هذه الصحائف، بذكر بعض الوقائع واللطائف، فكان ذلك باعثاً لي على تحرير هذه الرحلة، وسائقاً إلى هذه الطريقة السهلة، وقد جمعت فيها أسماء الطرقات والمنازل، وذكر ما لاقيته من الأماكن والمناهل، متكلاً في ذلك على فهمي، وقانعاً بحظي[3] وإن قل سَهمي، فإن النفس تهوى أن تضرب في كل فن بسهم ونصيب، ولا عليها أن تُخطئ الغرض أو تصيب، سالكاً طريق الإيجاز، في الحقيقة لا المجاز، وهو تاريخ وقائع، ومجموع أدب جامع، لأن الكتابة قيد العلوم، وحفظ ما أفاده المنطوق والمفهوم، والنظم الرقيق عروس الآداب، والنثير المحرر فخر الكتاب، وليس إلى حفظ الفضائل باب أضبط من كتاب، شعر:

قيِّد بخطِّكَ ما ترى من حِكمةٍ   فالعلم صَيدٌ والكتابة قيْدُهُ

وليس هذا من الإعجاب، ولا من تزكية النفس بملكة الآداب، ولكن تذكرة لأولي الألباب، ومذكرة للمسافر بعد الإياب، وهدية للأصحاب، فإن الفقراء إذا قدموا من الأسفار، فهم في الهدايا والتحف على قصور واقتصار، وكفى بالأدب هدية لمن نفسه أبيّة، فإنه أحرى بقبولها، مغبوط بحصولها.

[حسية]

ثم سرنا عند بزوغ القمر، وحين أن تبين نوره وظهر، حتى وصلنا إلى المرحلة الرابعة، وهي قلعة حسية[4]، فقدمناها ونحن من اللصوص في خِشية، وأضحى

---

(1) العطن: مبرك الجمال ومربض الغنم حول الماء.

(2) المطلع المشهور لقصيدة امرئ القيس.

(3) في الأصل (بخطي).

(4) نوه كبريت المدني بموضع هذه القرية (رحلة الشتاء والصيف ص 210) بوصفه واد فيه قلعة ومياه غزيرة. ولم تكن القرية قد تكونت بعد، وذكر الخياري (تحفة الأدباء ج1 ص180) أن

بعضنا متطيّراً وَجِلاً، وإن رأى شبحاً مُقبلاً ظنّه رجلاً، وقبل أن وافينا هذه المنزلة المذكورة، تلاقينا مع قاضي دمشق [و131] ذي العدالة المشهورة، والمناقب العديدة المأثورة، صدر العلماء والموالي، وحائز رتب المجد والمعالي، جوهرة تاج الشريعة الشريفة وواسطة عقدها، ومالك زمام الأحكام بالإحكام في حلها وعقدها، جناب المولى عبد الرحمن الشهير بحُسام زاده[1]، ضاعف الله عليه فضله وزاده، فحيانا بالتحية والسلام كما هو جاري العادة، وقد وقفنا وقفة قليلة، مع خدمته الجليلة، وبعد ذلك سار نحو دمشق المحمية، حُميت عن حوادث البلية، فودعنا حضرته العلية.

[حِمص]

ثم سرنا حين تكامل من الليل شبابه، واستتار وجه النهار وصفا إهابه، حتى وصلنا إلى المرحلة الخامسة، وهي مدينة حِمص، وقد رأيناها واسعة الأفنية، متينة الأبنية، قديمة العمائر، عظيمة المآثر، فدخلنا داخلها بنية الزيارة، فوجدنا غالب دورها سُود الحجارة، وقصدنا جامعها الكبير، وزرنا بظاهرها سيدي خالد

في هذا الوادي «خان عامر مشتمل على أماكن ينزلها المسافر»، وذكر السويدي ص228 انها «قرية صغيرة لها خان كبير لابناء السبيل فيه جامع يخطب فيه وفيه بركة ماء كبيرة وخارج القرية بركة اكثر من عشر في عشر وشرب اهل القرية من عين عذبة صافية وحول القرية بساتين من سائر الاشجار». قلنا: وحسية بلدة قديمة تابعة لمحافظة حمص وتبعد عن مدينة حمص 40كم. وتوجد فيها اسواق اثرية ومبان وقنوات مياه تعود للعصر الروماني وغيرها من المعالم التاريخية.

(1) ترجم له المحبي وأثنى عليه، فقال انه كان «عالماً متبحراً كثير الإحاطة بمواد التفسير والعربية جم الفائدة» وأنه «أشهر المتأخرين من علماء الروم في ديار العرب وأكبرهم شأناً». درس في مدارس القسطنطينية وسافر مع ابيه إلى القدس سنة 1018هـ/1609م، وأخذ فيها الحديث عن الشيخ محمد بن احمد الدجاني.. وولي تفتيش الأوقاف ثم تولى التدريس في المدارس وولي قضاء حلب، فقضاء دمشق سنة 1051هـ/1641م، ثم عزل عنه، وسافر إلى الروم، ثم صار قاضي دار السلطنة، فقاضيا لعسكر اناطولي، ثم قاضيا بولاية الروم سنة 1062هـ/1651م، ثم تولي قضاء طرابلس الشام، لكنه ارسل عنه نائبا واستقر هو في دمشق، ثم عزل عن طرابلس وولي قضاء الجيزة في مصر، حيث اقام بقية حياته معظما مبجلا وكان كبراء مصر وعلماؤها يهرعون اليه ويعظمون حضرته التعظيم البليغ، وكان يُدرِّس في بيته التفسير، ولد سنة 1003هـ/1594م وتوفي هناك سنة 1081هـ/1670م خلاصة الأثر ج3 ص158.

بن الوليد الصحابي الجليل الشهير، رضي الله تعالى عنه وعن جملة الأصحاب والتابعين والأحباب[1]، فكتبت بديهة على الجدار، وأنا في غاية الإنكسار هذه الأبيات، وأردت أن يكون لها في هذا المحل وجود وإثبات، وهي قولي، شعر:

سيدي خالد هو ابن الوليد   وهو غوثي في كل خطب شديد

الخ عدد 6.



قلعة حمص كما رسمها الرحالة الفرنسي كاساس عام ١٧٨٥م

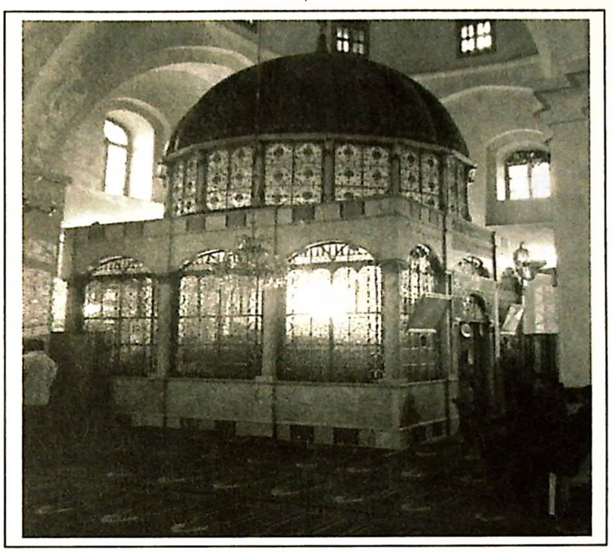
وهي أصح بلاد الشام هواءً، وأعدلها تربة وماء، وأهلها عندهم تفضل شديد، وحماقة ما عليها مزيد، ولهم حكايات مشهورة، وقصص في بعض الكتب مسطورة، لا حاجة إلى تسطيرها، ولا طائل في هذا المحل تحت تحريرها، فقد شاع ذلك وذاع[2]، وقد شاهدناه رأي العين بعد السماع، فمما اتفق ونحن ذاهبون إلى شريف ذلك المزار، وقاصدون التشرف بتلك الآثار، أن رأينا شخصاً شريف النجار، راكباً برذونة دَنيَّة أدنى من الحمار، فنزل عنها وترجَّل، ومشى نحونا وعلينا أقبل،

---

(1) يقع جامع خالد بن الوليد في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة حمص، ويعود بناؤه إلى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وهو يضم أيضاً ضريحي عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وفيه كثير من المقامات مثل مقام أبو الهول وأبو موسى الأشعري، والصحابي عمرو بن عنبسة والصحابي العرباط بن سارية في الحولة ومقام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وغيرها .

(2) في الأصل (فداع)

وابتدأنا بالسلام والكلام، وأبرَم علينا بالركوب الإبرام التام، ولم يزل [و133] مُلِّحاً من حين التلاق، حتى حلَف بالطلاق، فلزم من ذلك ركوب البرذونة[1].



ضريح الصحابي خالد بن الوليد

[لصاحب الأحباس برذونة]	بعيدة العهد عن القرط
وإن رأت خيلاً على مربط	تقول: سبحانك يا مُعطي!
تمشي إلى خلف إذا ما مشت	كأنما تكتب بالقبطي[2]

فوصلنا إلى الزيارة المذكورة على هذه الصورة، فتعجبنا من حمقه وعتهه، وقلة عقله وبَلهه، حيث كنا سئمنا ركوب الطرف، طالبين تسريح النظر والطرف، فكلفنا ما لا نريد، وأقسم بهذا اليمين الأكيد، ولم يكن بيننا وبينه مفارقة قديمة توجب هذه الألية الذميمة.

---

(1) الأبيات الآتية كتبها المؤلف بوصفها نثراً، وأسقط صدر البيت الأول، فأكملناه من الأبشيهي: المستطرف ج2 ص223.

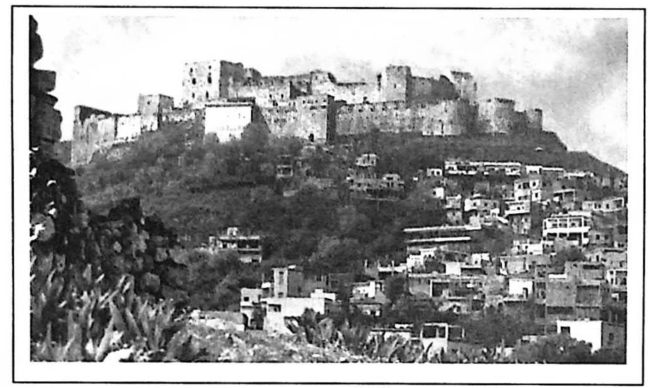
(2) موطن التشبيه أن اللغة القبطية تكتب من اليسار إلى اليمين على خلاف العربية.

وقد قال القزويني[1]: إن من خصائصها الصورة التي على باب المسجد، نصفها الأعلى صورة إنسان، ونصفها الأسفل صورة عقرب بذنب وزبان، تطبع تلك الصورة المذكورة بالطين الحر، وتلقى في ماء، فإذا شرب منه الملدوغ يبرأ من الضُر، وليس بها حية ولا عقرب، بل يقال: أن الحمصي بأي بلد كان لا تدنو منه ولا تقرب، وكذلك التوث المغسول بمائها إلى أن يغسل بغيره، قيل: وهو مُجرَّب، فلما تنبَّه القمر بعدما رقد، وتجلى الواحد الأحد في ليلة يُسفِر صباحها عن يوم الأحد، لم يبق منا في ذلك المكان أحد.

[السويداء]

وسرنا مارِّين على أرض السُويدا[2]، فقلت لرفاقي:

تمشوا بالخليل رُوَيداً   فليس في السويدا رجال



قلعة حمص

(1) القزويني: آثار البلاد ص185 .

(2) ذكر المؤلف أنه مَرّ بأرض السويداء، ولم يشر إلى أنه دخل مدينتها، ولعلها لم تكن تعد من مراحل الطريق لتستريح القافلة فيها، كما عادة القوافل المارة في ذلك الطريق، وعرفت باسمها هذا لسواد حجارتها البركانية، وهي تقع غلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق. وترقى في تاريخها إلى العصور القديمة، وتوالى على استيطانها الكنعانيون والآراميون ثم العرب الأنباط، ثم سكنها العرب الغساسنة، وفيها الكثير من آثار تلك الأقوام. تضاءلت شأن البلدة في العصور المتأخرة، ولم يتبق منها غير معالمها الأثرية، والبيت الذي ساقه المؤلف هنا يشير إلى خلوها من الآهلين.

[حماة]

ثم حثتنا مطايا الترحال حتى وصلنا إلى المرحلة السادسة، وهي محميَّة حَماة، جعلها الله تعالى في حفظه وحماه، فدخلناها حين أشرق وجه الشمس مُسفِراً، ضاحكاً مستبشراً، من أحسن البلاد وألطفها وأنزهها وأترفها، ذات قلعة شامخة، عالية باذخة، مليحة الأبراج والأبواب، لكنها الآن مُشرفة على الخراب، وبها جوامع ومساجد ومآثر ومعاهد، حاوية للبهاء والرَّونق، ومنقوشة البناء بالحجر الأبلق، مستدير بها العاصي على غالبها من الشرق والشمال [و135]. وتهب فيها رياح الجنوب والشمال، وتجاذب نواعيرها باكية، ومن تزايد الوجد والغرام شاكية، فتهيج بحنينها لواعج الأشجان، وتُذكِّر بانيها الغريب الأهل والأوطان، وقد قلت، وعن هذا الحال ما حلت، شعر:

وناعورة تبدي أنيناً كأنه أنين غريب في الديار مُشتت

تذكرت منها الدار والأهلَ والحِمى فأضحى فؤادي هائماً يتفتت

وقبل الرحيل، قصدت زاوية القطب الرباني، سيدي وملاذي حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني، أعاد الله تعالى علينا من بركاته وأمنا بمدده، وفيها الآن جماعة من ذريته وولده[1].

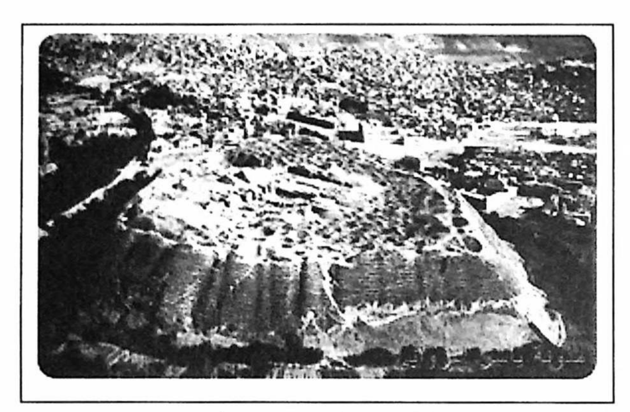
[شيزر]

ثم سرنا ونحن ما بين ثمِل من خمر السُرى، وراكع وساجد في تهجد الكَرى، حتى وصلنا المرحلة السابعة، وهي قلعة شيزر، فنزلنا بين أنهار ومرج أخضر، فرأيناها خاوية على عروشها، وقد خربت دورها وذهبت رسوم نقوشها، والعاصي

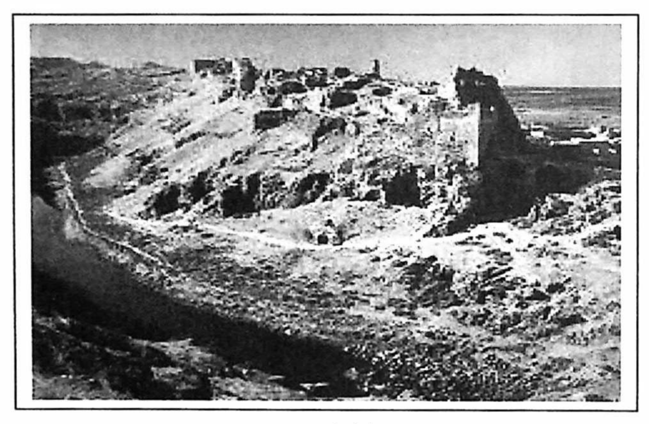
(1) هذا النص يشبه ما ذكره بدر الدين الغزي في كتابه (المطالع البدرية في المنازل الرومية) ص 50 وتنسب الزاوية الكيلانية إلى الشيخ سيف الدين يحيى من ذرية السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني، المتوفى في بغداد سنة 561هـ، وقد سكن الشيخ سيف الدين حماة وتوفي فيها عام 734 هـ، وكان قد مر بحماة أثناء الحج، فعاد إليها في إيابه وسكن بها واستقر، وبدأ بناء الزاوية القادرية بجوار بيته عام (690هـ -1290م) وقد تابع البناء في الزاوية ابنه الشيخ شمس الدين محمد وولده علاء الدين، وزاد فيها ووسعها سنة 1018هـ/ الشيخ ياسين الكيلاني، فغدت من أبرز المنشآت الدينية والثقافية في حماة.

يجري طائعاً فيها، ويمر بين يديها، وعليه دولاب أشجاني أنينه، وذكرني الأحباب حنينه، شعر[1]:

ودولاب روض كان من قبل أغصنا	تميل فلما فرقتنا يد الدهر
تذكر عهدا بالرياض فكله عيون	على أيام عهد الصبى تجري



قلعة حماة (صورة قديمة)



بقايا شيزر

(1) البيتان لمحمد بن يعقوب بن علي، مجير الدين بن تميم، من شعراء الدولة الأيوبية.

وبها قلعة عالية، وأطلال بالية، وقصور مُستهدَمة رميمة، تدل على أنها كانت بلدة قديمة[1].

[قلعة المضيق]

ثم سرنا نقطع البيدا، ونطوي مشقتها طي الردى[2]، حتى وصلنا إلى المرحلة الثامنة، وهي قلعة المضيق[3]، فوافيناها وقد دخل الظهر على التحقيق، فنعمنا بطيب ذلك الأرَج، وعند المضيق رأينا الفرَج، فنزلت في خانها الحسن، وتأملت بناءه المستحسن، وهو خان منازله واسعة، وقبابه شاسعة، بناه صاحب المساعي الخيرية، والإحسانات المرضية، المرضية المرحوم مصطفى آغا أغاة دار السعادة، رزقه الله الحسنى وزيادة، ولعل تسمية هذه المنزلة بالمضيق من باب تسمية المكان باسم الطريق، فإن الطريق الآخذ اليه من جهة الشمال فيه ضيق، ومكان الخان واسع عريض بالتحقيق.

---

(1) تقع قلعة شيزر على نحو 30 كم شمال غرب حماة، وهي قلعة مشيدة على أكمة صخرية تحاذي نهر العاصي من الغرب، وردت الاشارة إليها في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، بينما يرقى تأسيس قلعتها إلى العصر السلوقي في القرن الرابع قبل الميلاد، وكان اسمها قديما سيزار، ومنه جاء اسمها المعروف شيزر، وتنقلت ملكيتها بين الفاتحين حتى استقرت بيد المسلمين سنة 17هـ، واستطاع بنو منقذ أن يؤسسوا فيها إمارتهم من 1081هـ/ 473م واستمرت حتى سنة 552هـ/ 1157م لتصبح قاعدة لمقاومة الصليبيين في سوريا، أعاد الملك الظاهر بيبرس عمارتها وتحصينها سنة 660هـ/ 1261 م. وشاركت الحروب الصليبية والكوارث الطبيعية لا سيما الزلازل في اضعاف شأنها، حتى باتت في العصر العثماني قرية سكنية ومجرد محطة على الطريق، على ما وصفه المؤلف هنا . على أن أطلال شيزر ظلت شاهدة على فترات الازدهار والقوة التي مرت بها هذه المنطقة.

(2) في الأصل (الردا)

(3) تقع قلعة المضيق على بعد 50 كيلومتراً تقريباً شمال غربي مدينة حماة، وتقوم على هضبة صخرية ترتفع قليلاً عن الهضبة الشرقية التي تقع عليها مدينة أفاميا التاريخية، ويرتبط تاريخ القلعة بتاريخ المدينة حيث أقام سكان أفاميا حتى القرن السابع للهجرة داخل أسوارها ثم انتقلوا بعد ذلك إلى قلعتها «المضيق» وذكر الغزي في نهر الذهب ج1 ص445 أن قلعة المضيق هذه «كانت حصنا لأفامية وهي الآن خراب فيها آثار قليلة وبحيرة أفامية مشهورة من قديم الزمن وحديثه». ينظر: موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص401.

[خان الشغور]

ثم سرنا أول ليل بهيم، ونحن في كل [و135] واد نهيم، إلى أن وصلنا إلى المرحلة الشاسعة خان الشغور[1]، وقد حصل لنا به غاية السرور، وهي قرية بلا شك ولا مَرِيَّة، وليس فيها سوى هذا الخان، وهو مهدوم الجدران، وبالي الأطلال والأركان، وبخارجه مرج وربيع، وعشب مخصب مريع، ونهر جاري، فنزلت على جانبه وزالت أتعاب أكداري.

[الزنبقية]

ثم سرنا مُجدِّين، وبالله تعالى مستعينين، ولفضله مستنجدين، إلى أن وصلنا المرحلة العاشرة، وهي قرية الزنبقية الحاوية لغُرف رياض زكية، وهي قرية لطيفة من قرى حلب[2]، وبها خان مبني لأبناء السبيل من الترك والعرب، قيل أن بانيه المرحوم سنان باشا عليه من الرحمة ما يشاء، يرتفق بها الطائع إذا مر بها والعاصي، والعاصي ليس منها بالقاصي، بل له بالقرب من دُورها مَمَر، وهي عنه رمية حجر.

[أنطاكية]

فلما عزمنا على المسير، سرنا في مطر غزير، وقد سالت الأودية كالأنهار، وجرت السيول متواترة التسيار، حتى وصلنا إلى المرحلة الحادية عشر، وهي مدينة أنطاكية السامية[3]، الحاوية لأبنية عالية، فسرَّحنا النواظر فيما احتوت، وأرَحنا الخواطر فيما انتهت إليه، فإذا هي بلد قديم، ذات سور عظيم، وقد حُفَّت

---

(1) في نهر الذهب ج1 ص442 أن هذه البلدة «نسبت إلى جسر كبير على نهر العاصي معقود على اربع عشرة قنطرة كأنه قلعة منيعة يقال أنه من آثار المرحوم محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالكوبرلي وكذا قيل في جامعها الأعظم انه من آثاره والصحيح أن الجسر قديم ولعل محمد باشا رمه أو جدده فنسب إليه، الأقرب أن تكون هذه الكلمة سريانية معناها الثغور، وكان الشغر قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على راس جبلين بينهما واد كالخندق .. استولى عليها الفرنج الصليبيون واستمرت بايديهم مدة إلى أن انتزعها منهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ثم خربت في عهد المغول».

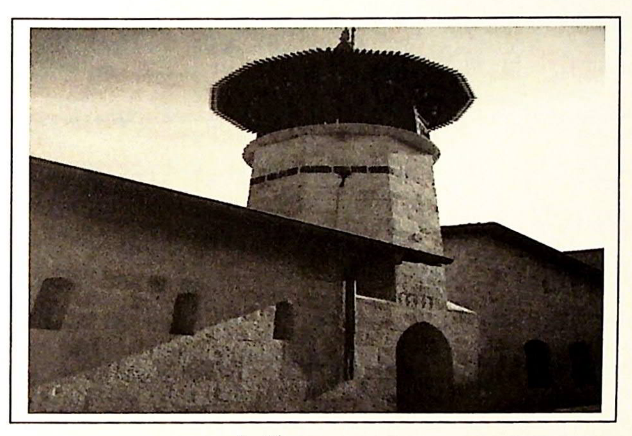
(2) تتبع اليوم محافظة أدلب، وهي تقع على الضفة الشرقية لنهر العاصي، بالقرب من (دركوش) وتبعد عنها 6 كم.

(3) ينظر موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص 111-114.

بالأزهار، وهبَّت عليها نسمات القبول في الأسحار، يفتتن في محاسن رياضها الداني والقاصي، ويخضع لعزِّ بهائها العاصي، وبها سيدي حبيب النجّار، وضريحه بداخلها مُحَلّيه المهابة والوقار[1]، ولقد زرته في ساعة مقبولة إن شاء الله المَنّان، وسألته تعالى أن يمن عليَّ بالعَود بعد قضاء الأوطار إلى الأوطان، ثم قلت بعد أن سلكت القفار، وبعدت عن الأهل والدار، ولامَني العاذل الجهول، وذكر في كل أمر مستقبل مَهُول، فاسترعَيتُ لحالي، وقلت بلسان قالي، وكتبت لبعض الأفاضل من سكان دمشق الشام، سقى حماها صوب الغمام، وهي قولي، شعر:

قال لي العاذي المفند جهلاً　　　حين شام الخيام والسيرحدا[2]

[و136] عدد 15.



مسجد حبيب النجار

---

(1) يقع قبر حبيب النجار في قبو أو مغارة شيد عليها مسجده قديم عند أحد أبواب مدينة أنطاكية الأثرية القديمة، يسمى اليوم بباب الهواء، وهو باب ضخم من الحجر يشبه أقواس النصر، والمعتقد أن حبيباً هذا هو الرجل الصالح الذي قال فيه تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى)، ويقع القبر قبالة شرقي الذي يمر في أنطاكية، وثمة ممر في يمين الباب الغربي للمسجد يؤدي إلى عدة قبور قديمة في سرداب، قيل أنها لرجال عاصروا حبيباً المذكور. وكان ابن بطوطة قد أشار إلى وجود «زاوية فيها الطعام للوارد والصادر» عند هذا المسجد.

(2) صدر البيت لعلاء الدين علي بن المظفر الكندي كاتب ابن وداعة المعروف بالوادعي، المتوفى سنة 716هـ . وتمامه (حيث وافت وسلمت مختالة)

[بيلان]

ثم سرنا نقطع مسالكا[1] ضيِّقة ومُتسعة، ومناهج منخفضة ومرتفعة[2]، حتى وصلنا إلى المرحلة الثانية عشر، وهي قرية بيلان[3]، وقد قرب وقت العصر وآن، وهي قرية صغيرة جداً، إذا نظر إليها الناظر أحاط بجهاتها رسماً وحَداً، فنزلنا في خانها المتين الجَنبات، فرأيناه مخالفاً لطريق الخانات، أبنية محكمة لكن مجالسه مظلمة، على بابه الماء يجري كالرِّبْوة، وعنده حَمّام صغير وبعض دكاكين وقهوة ومسجد تقام فيه الصلوات، ولا تنقطع غالباً منه العبادات، وبيوت القرية على اليمين والشمال، ومن القادمين إليها غير خوال.

[عقبة بقراص]

ثم سرنا بمنحدر العَقبَة، فهبطناها عَقبة بعد عَقبة، وهي التي تسمى عند العام والخاص، بعقبة بقراص[4]، وقد نظرنا البحر يتموّج ويتحوز، يكاد من تحيزه يتميز.

[باياس]

ثم سرنا ونحن نراقب الصباح، حتى وصلنا إلى المرحلة الثالثة عشر، وهي قصبة باياس[5]، وله من الله رجاء بلا يأس، وهي أسكله[6] بالبحر متصلة،

---

(1) في الأصل (سالكا).

(2) في الأصل (مرتفة).

(3) بلدة في ممر في جبال اللكام (الأمانوس)، بين جبل الأحمر في الجنوب، وجبل النور في الشمال، وتتبع اليوم مركز ناحية قضاء الاسكندرونة.، وكانت تعد سابقاً من أعمال حلب، وهي تبعد عن الاسكندرونة 13 كم وعن أنطاكية 47 كم. ولها موقع ستراتيجي مهم بسبب كونها المعبر الوحيد في جبال الأمانوس الذي يصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى.

(4) سماها الغزي (عقبة بغراص)، ووصفها بأنها «ذات الالتواء»، وقال أنها قرية تضم في وسطها مسجداً وخاناً، والمياه الجارية فيها مثل الشاذروان. المطالع البدرية ص296.

(5) في رحلة الغزي (باياس) ولم يشر إلى وجود خان فيها، وإنما قال «وبتنا بجانب البحر» المطالع البدرية ص298 ورحلة الخياري ج2 ص121 (باياس) وذكر أن فيها خاناً للمسافرين. وفي رحلة كبريت المدني (باباس). رحلة الشتاء والصيف ص197. وهي بلدة تبعد عن اسكندرونة ب 15 كم، وكانت في العصر العثماني مركز قضاء يتبع ولاية حلب.

(6) الأسكلة: المرفأ والميناء.

والخيرات ليست عنها بمنفصلة، ترسي فيها المراكب، وتقضى بها المآرب، يجلب إليها الجالب، ويظفر بأمنيته الطالب. وبها سوق وحمام، وتكية لفقراء الأنام، وجامع لطيف، وخان ظريف، وقلعة صغيرة مانعة لمهماتها حافظة جامعة، وباني ذلك الوزير الأعظم، والسردار الأفخم، المرحوم محمد باشا[1]، عليه من الرحمة ما يشاء، فقد أحكم ما بناه، ولم نجد ألطف من بنيانه فيما رأيناه، لكنها وخيمة الهواء، ثقيلة الماء، فلهذا ترى وجوه أهلها مصفرة، وعيون وجوههم مقمرة، فتوجهنا منها والبحر منا على الشمال، وأمواجه كالجبال، فجعلت أنظر إليه بنية العبادة والاعتبار، وأقول: إن في ذلك لآية لأولي الأبصار.

[قوردقلاق]

ثم سِرنا لما احلولك من الليل الإهاب، ولم يبق إلاّ ضوء الشهاب، حتى وصلنا إلى المرحلة الرابعة عشر [و137]، وهي قوردقلاق[2]، بعدما قطعنا كثيراً من المشاق، فنزلناها فإذا أهلها مشهورون بالسُراق، وغالب وَحشها الذئاب، فبتنا مع بعض الأحباب نتسامر بالنكات الأدبية، ونقطع الليل في السِّرقات الشعرية، ولما طلع الفجر ولاح، وضربت بشائر الصباح، قابلنا العلامة الهُمام، قاضي حلب المولى محمد- دام له الإنعام- المعروف بشيخ زاده[3]، بلغه الله تعالى أمنيته وزاده، وكان لم يتقدم لي بحضرته رؤية عَيْن، ولكن سَماع الأخبار إحدى الروايتين، شعر[1]:

---

(1) تولى الصدارة العظمى في عصر المؤلف ثلاثة باسم محمد باشا، أولهما لالا محمد باشا 1013-1015هـ/ 1604- 1606م، والآخر درويش محمد باشا 1015هـ/ 1606، والثالث طيار محمد باشا 1048م 1638، ولعل المقصود هنا هو الأخير.

(2) سماها الخياري (قرط قلاق) . تحفة الأدباء ج2 ص120 وتحرف اسمها في رحلة كبريت المدني إلى (قرط كلال) ووصفها بأنها «واد فيه خانات متعددة وأرضه معشبة جيدة، وماؤها معين، ولها بادية تأتي إلى الركب بما يحتاج إليه». رحلة الشتاء والصيف ص198 . وورد اسمها في رحلة طه الكردي الباليساني، بتحقيقنا، اربيل 2008، ص35 بشكل (خان قرنقلاق). قلنا: وقد نشأت في هذا الموضع قريتان بالاسم نفسه، تبعد صغراهما عن حلب 60كم، بينما تبعد الكبيرة عن حلب بـ 62 كم.

(3) ترجم له المحبي ج3 ص474 فقال انه احد موالي الروم البارعين، عد من العلماء الكبار وكان فقيها مطلعا على المسائل، اتصل بخدمة شيخ الاسلام يحيى بن زكريا فصيره أمينا لفتواه، ثم عينه مدرسا في المدرسة التي انشأها في القسطنطينية، ثم ترقى في المدارس حتى صار

كانت مُسايرة الركبان تخبرني عن أحمد بن علي أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

فحصل من جنابه الخطير اللطف الكثير.

[جسر المصيصة]

ثم سرنا حين بلغ الليل غايته، ورفع الفجر رايته، حتى وصلنا إلى المرحلة الخامسة عشر، وهي جسر المَصيصة[2]، وقد سلكنا مسالك صعبة عويصة، يجري بخلالها نهر جيحان، عليه جسر عظيم البنيان، وتجاهه خان، وكلاهما بناء المرحوم السلطان سليم خان[3]، فأذكرني جسرها حين مررت عليه، ونهرها عند نظري إليه جسر مَرْجة دمشق، ولطيف نهرها الجاري، وسرور أيام مضت مع خِلّي وجاري، فلم أجسر على المماثلة بين النهرين، ونهرت الخاطر في المجاراة بين الجسرين، فسمحت القريحة ببيتين في المناظرة بين الجسرين لا النهرين، وهما قولي، شعر:

فذاك جسر حوله جنة حفت بأطيار وأزهار

وذا مهول حوله بلقع كأنما مد على النار

[آدَنة]

ثم سرنا وعزمنا على المسير، وسألناه تعالى الإعانة والتيسير، حتى وصلنا إلى

مدرسا في السليمانية، ومنها إلى مدرسة ايا صوفيا، ثم قضاء حلب في سنة 1052 ثم قضاء الشام سنة 1057هـ/1647م ثم عزل عنها وبعدها قضاء غلطة ثم أدرنه، ثم صار قاضيا بقسطنطينية، توفي فيها سنة 1068هـ/1657م.

(1) البيتان لأبي السعادات هبة الله ابن الشجري.

(2) المصيصة: بلدة في ولاية ولواء أدنه، على نهر جيحان، وصفها ياقوت بأنها مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. إلا أنها أصبحت شبه خربة في أواخر العصر العثماني. حتى أن الغزي شكى من كثرة اللصوص في نواحيها. وأشار إلى وجود «جسر عظيم البنيان» فيها، وعليها «بابان يقفلان عليه إلى الآن». معجم البلدان 5 / 145، والمطالع البدرية ص 87 موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص 464

(3) سليم خان الأول 918- 926هـ/ 1512- 1520م.

المرحلة السادسة عشر، مدينة أدَنة، وهي قصبة صغيرة مُستحسَنة[1]، ذات رياض وريقة، وأسواق أنيقة وخيراتها عميمة لكنها وخيمة، فلذلك أهلها في الأيام الحارّة يفرون منها، ومن كثرة وَخمها يعدلون عنها، ويعاملونها بالهجران، ويرحلون إلى مكان قريب هنالك معروف ببيلة ابن رمضان[2] [و138]، يتوصل إليها من جسر عظيم على نهر سيحان، وهو يجري بخلالها كالثعبان[3]، وهذا النهر المذكور يعد من الأنهار الكبار[4]، ويقارب في كبره نهر سيحان المار، وهو كما قال النووي[5] قطب الأنام على الإطلاق: غير سيحون وجيحون اللذين في الجنة بالاتفاق. وبه دولاب يحن حنين المُستهام، المُدنَف من شدة الغرام، شعر[6]:

لله دولاب يفيض بسلسل في روضة قد أينعت أفنانا

قد طارحته الحمام شجوها فيجيبها ويرجع الألحانا

فكأنه دنف ألمَّ بمعهدٍ يبكي ويسأل فيه عمّن بانا

ضاقت مجاري طرفه عن دمعه فتفتحت أضلاعه أجفانا

وقد لاقانا جماعة من الأصحاب قاصدين دمشق الشام، فأنشدتهم ما قيل في هذا المقام، شعر[7]:

---

(1) أدنه، بالدال المفخمة، وتكتبها المصادر العثمانية: أطنة، مركز ولاية باسمها تقع على الساحل الجنوبي للأناضول، قاموس الأعلام ج1 ص219.

(2) سماها الخياري ايلة ابن رمضان، وقال أنها أرض رملية بين جبلين . تحفة الأدباء ج1 ص201 وسماها الباليساني (ايلة) مطلقاً، رحلة طه الباليساني ص35.

(3) هنا ينقل المؤلف عبارته من الغزي: ص90.

(4) سمى العرب المسلمون نهري بيرامس وسارس باسم جيحان وسيحان، على غرار تسميتهم نهري أوكسس وجكسارتس في آسية الوسطى، وهما أكثر شهرة، باسم جيحون وسيحون، وكانت أدنة تعد أكبر مدن تقع على نهر سيحان. ينظر ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص164.

(5) هو الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي الدمشقي المتوفى سنة 631هـ .

(6) الأبيات لنور الدين علي بن سعد الأندلسي كما في حسن المحاضرة لعبد الرحمن السيوطي.

(7) البيتان للشريف الرضي.

أيها الرائح المجد تحمَّل حاجة للمتيم المشتاق

فاقرءني السلام أهل المُصلّى فبلاغ السلام بعض التلاقي

[خان بيرام باشا]

وسرنا حتى وصلنا إلى المرحلة السابعة عشر، وهي خان المرحوم بيرام باشا، الوزير الأعظم(1)، عليه الرحمة والرضوان، وهو خان مُعدٌ لأبناء السبيل، لطيف البنيان، فحين حللناه، وتأملنا بناه، انشرحت منا الصدور، وحصل لنا فيه غاية السرور، فقد غفل الرقيب، وزار الحبيب، شعر:

لما غفل الواشي ونام اللاحي وافى عجلاً يلوح كالمصباح

يا رب أخذت بالنوم على أبصارهم دعهم بلا أرواح

فلا شك أن بانيه المذكور، بناه على أتم الأمور، بنية صالحة، جعل الله تعالى موازين أعماله الحسنة بالخيرات راجحة.

[خان بيري باشا]

ثم سرنا مسرعين، وفي السير مُجدّين، حتى وصلنا إلى المرحلة الثامنة عشر، وهي خان بيري باشا(2)، عليه الرحمة ما يشا، ولما قرُبنا من هذه المنزلة المذكورة، وصلناها من بين جبلين منقورة، وهما طَوْدان شامخان لا يكاد الطرف يدرك أقصاهما، ولا الطير يرقى أدناهما، وهو خان قديم، لكن بنيانه غير رميم، فرحم الله تعالى بانيه على بنيانه، فإنه أحكم أساس جدرانه(3).

---

(1) هو محمد بيرام باشا، تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان سليم الأول سنة 923هـ/1517م، واستمر في منصبه في عهد سليمان القانوني، حتى تقاعده سنة 929هـ/1522م، وتوفي سنة 940هـ/1533م، حضر وقائع عسكرية كثيرة، وله منشآت خيرية منها مدرسة وجامع وخان في استانبول وغيرها. قاموس الأعلام ج2 ص1586.

(2) هو بيري محمد باشا تولى الصدارة العظمى من سنة 1518 إلى سنة 1523هـ/ 924- 930م.

(3) مر به محمد كبريت المدني ويفهم مما ذكره أنه كان في منطقة جبلية كثيرة الأنهار. رحلة الشتاء والصيف ص194.

[جُفت خان]

ثم سرنا [و139] نسلك كل مسلك وطريق، تارة في السَّعة وتارة في الضيق، حتى وصلنا إلى المرحلة التاسعة عشر، وهي جُفت خان[1]، فوافيناها بكمال الاطمئنان، وهو خان متهدم، وبنيانه متقدم، وغير منفصل من تلك الأودية السابقة، ومتصلة بها ومتناسقة، وبها نهر كبيرلابد لكل مسافر من خوضه، ولكل مارْ من الورود إلى روضة فيقسم إلى أربعين مخاضة، لا تقطعها النفوس إلا وهي مرتاضة فقطعناها بكمال المَسَرَّة، ولم نرَ فيما قطعناه مضرة.

[خان الوزير محمد باشا]

حتى وصلنا إلى المرحلة العشرين، وهي خان المرحوم الوزير الأعظم، والظهير الأفخم، محمد باشا[2]، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وبرَّد بمياه الغفران مضاجعه، وهو خان وأي خان، محكم المباني، عظيم البنيان، لم يُعمَّر على مثاله، ولا بُني على منواله، وهو حصين متين، حادث في سنة سبع وعشرين [وألف][3]، وكان مكانه بَرٌ طويل، يصعب فيه النزول والرحيل، وكانت لطولها الزائد مُخَوِّفة، لكونها غير مسكونة ولا مألوفة، فلله الحمد على ذلك، حيث انقضت تلك المهالك.

[إركلي]

ثم سرنا لما أنف الصباح، وهتف داعي الفلاح، حتى وصلنا إلى المرحلة الحادية والعشرين، وهي إركلي[4]، وهي قصبة صغيرة، وأشجار بساتينها كثيرة،

---

(1) سماها محمد كبريت (جُفته خان)، وقال: ومعنى جُفته زوج، وذلك لأن هناك خانين متقابلين. رحلة الشتاء والصيف ص194. وفي رحلة الخياري (شفه خان) وقال هي «منزل فيه نهر بين جبلين متقابلين». تحفة الأدباء ج1 ص203.

(2) تقدمت الإشارة إليه.

(3) وتقابل سنة 1617م مر محمد كبريت المدني بهذا الخان، وسماه (خان محمد) ووصفه بأنه «بناء بناء محكم، وعنده قرية لطيفة، وقبله عقبة ينزلها الراكب كرامة للسلطان مراد، زعموا أنه نزل عندها ومشى على قدميه، ولعل ذلك شفقة على الدواب».وانفرد المؤلف هنا بتعيين تاريخ إنشائه. رحلة الشتاء والصيف ص194.

(4) يشبه هذا النص ما ذكره بدر الدين الغزي في (المطالع البدرية في المنازل الرومية) ص101 وأركلي مدينة تقع في جنوب وسط تركيا، بالقرب من سفوح جبال طوروس، على الطريق

وبها جامع لطيف فريد، وخارجه منارة عالية ذات طول مديد[1]، مفردة ترى من نحو نصف بريد[2]، والبرد فيها موجود، والقطر غير مدفوع ولا مردود، وفاكهتها مشهورة، وهي بالخيرات معمورة، ومنهلها عذب للواردين، وما ذاك إلا ببركة سيد المرسلين، لأنها وقف على فقراء حرمه الشريف، لقصة نهرها التي شهرتها تغني عن التعريف، وهي مشحونة بالأشجار، وتألفها الأطيار، وبالجملة كنا رأينا في أحد المنازل بعض غياض يحصل لنا انتعاش روح ونشاط بوَريف تلك الرياض لنوع شبه برياض دمشق المحمية، وتذكار أيام السرور السالفة بسفح الصالحية[3].

[قره بيكار]

ثم سرنا نُسامر الدَراري، ونساير الكُنَّس[4] [و140] الجواري، حتى وصلنا إلى المرحلة الثانية والعشرين، وهي قره بيكار[5]، فوافيناها بعد أن قطعنا تلك القفار، بغاية المسار، وبها تكية عجيبة البنيان، وجامع مشيد الأركان، وله منارتان، يراهما الناظر كعمارة المرحوم السلطان سليمان خان[6]، الكائنة بدمشق المحمية، حُميَت

الرئيسة النافذة إلى داخل الأناضول، فتحها العرب سنة 806م وفي سنة 832م، تم ضمها السلاجقة إلى دولتهم في أواخر القرن السابع عشر، وبعد تراجع هذه الدولة خضعت إلى امارة قرامان التركمانية، ثم استقرت جزءا لواء قونية من ولاية قرمان في الدولة العثمانية. عرفها البلدانيون المسلمون باسم هرقله، وهو تعريب اسمها اليوناني Heraclea ينظرسامي: قاموس الأعلام ج2 ص838.

(1) هذا النص مقتبس مع بعض التغيير من المطالع البدرية ص100.

(2) البريد أربع فراسخ، أو مسيرة نصف يوم.

(3) كانت قرية كبيرة تقع في شمال دمشق، في جبل قاسيون، أنشئت سنة 555هـ/ 1160م، وهي اليوم حي كبير من أحياء دمشق. ياقوت: معجم البلدان ج3 ص389.

(4) في الأصل (الخنش). يريد: نهتدي بالنجوم.

(5) كلمتان تركيتان، تلفظان قره بونار، وهما بمعنى (الينبوع الأسود) بلدة في لواء قونية، من ولاية قرمان، وسماها محمد كبريت المدني (قرابيار) وفسرها بالمعنى نفسه، ووصفها بأنها «قرية مخضرة الأكناف، وفيها خان وجامع فيه مياه يردها المسافرون»،ولا شك أن هذا الجامع هو الذي أدى فيه رحالتنا صلاته. رحلة الشتاء والصيف ص193. وفي رحلة الخياري (قره بنار) . تحفة الأدباء ج2 ص119وفي رحلة الباليساني ص34 (قره بنر). موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص391.

(6) السلطان سليمان خان الأول، القانوني، 927- 974هـ/1520- 1566م.

عن البلية، وبها بركة عليها مُشبك من حديد، عجيب الصفة محكم التنضيد، منها يجري الماء من أنابيب حنفية صِفر، لأجل الوضوء والتطهُر، وعندها سوق صغير وخانان، وذلك بناء المرحوم المغفور له السلطان سليم خان، صَبَّت عليه مياه الغفران، وقد أقمنا يوماً لراحة البدن، وأدَّينا في جامعها فرض الجمعة والسُنن.

[الكوجي]

ثم سرنا طالبين الإعانة من الله سبحانه، حتى وصلنا إلى المرحلة الثالثة والعشرين، وهي بالكُوجي معروفة[1]، وبهذا الاسم موصوفة، وبالخيرات للواردين مألوفة، لكنها غريب العادة بخلاف تلك البلاد، فإن المسافر ينزل في دار رجل من أهاليها كما هو مألوف معتاد، فيقدم له جميع ما يحتاج إليه ويرتاد، ثم يحسب ما صرفه، ويأخذ ثمن الذي أنفقه، وبالجملة فلا بأس بهذا الأسلوب، فإنه رفق بالمسافر لا سيما إذا حصل على المطلوب.

[قونية]

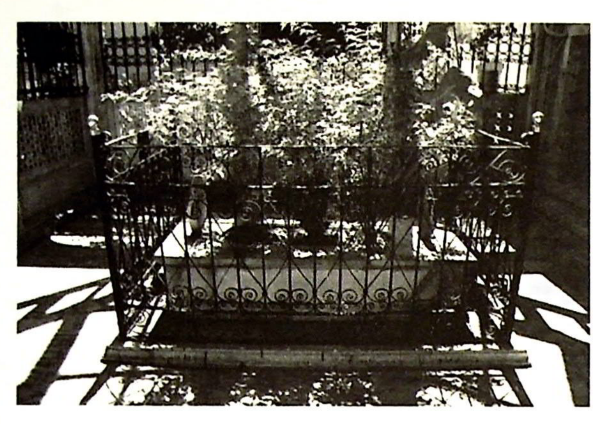
ثم سرنا نعاني السُرى، ونعاطى الكَرى، حتى وصلنا إلى المرحلة الرابعة والعشرين، مدينة قونية، وهي ذات رياض أنيقة، وأشجار نضرة وريقة، ومساجد مشهورة، وحِياض موروده، وخصائص أثيرة، ومزايا كثيرة[2]، جرى بين رياضها جداول الأنهار، وغنَّت على أفنانها الأطيار، ومحيّاها صبيح وفلاها فسيح، وزمانها ربيع، وجنابها رفيع، وقد شملها بَركة من بها من الأخيار، من عمَّ ذكرهم الأقطار، وانتشر خبر ولايتهم وسار، سيدنا صدر الدين القونوي[3] ذي الآثار.

---

(1) في رحلة الخياري (كوسه جي)، «وهو منزل في وهاد من الأرض، قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، بها بعض بويتات يتعاطى أهلها خدمة المسافرين إذا نزلوا بهم بشراء ما يحتاجونه لهم ولدوابهم». تحفة الأدباء ج2 ص119.

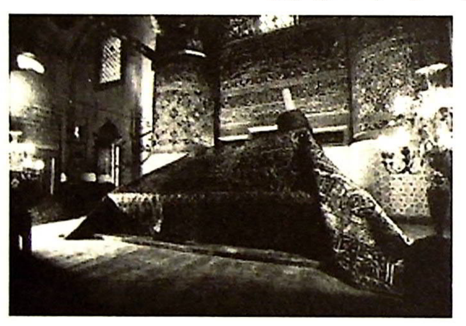
(2) هذه المقدمة عن قونية تشبه ما ذكره الغزي في المطالع البدرية ص102.

(3) هو محمد بن اسحاق بن محمد بن يوسف الشهير بالقونوي، من كبار صوفية عصره، ولد في ملاطية سنة 606هـ/1209م وتتلمذ على يد ابن عربي في دمشق ولازمه وتأثر به حتى وفاة الأخير، وسافر إلى حلب سنة 640هـ/1242م، ثم أقام بمصر حيث أخذ عن الصوفي ابن سبعين، وربطت صلة التلمذة والصداقة العميقة بمولانا جلال الدين الرومي، ودفن عند قبره في قونية سنة 672هـ/1273م.



قبر صدر الدين القونوي

وحضرة مولانا منلا خُنكار[1]، وقد تشرّفت بزيارته، وعاينت عظيم أبهته، قدس الله سره، وأفاض علينا خيره وبره.



قبر مولانا جلال الدين الرومي

وبها جامع كبير، ذو بناء خطير، للمرحوم[و141] السلطان سليم، فنزلنا الخان الذي بناه تجاهه، وقلبنا من الهموم سليم، وأقمنا يومين في ذلك المكان، لراحة

---

(1) لفظ تركي بمعنى: الحاكم والسلطان، وتطلق أيضاً على بعض الأولياء الكرام، وهو يعني هنا الصوفي الشهير محمد بن محمد البلخي المشهور باسم جلال الدين الرومي، والمعروف باسم (مولانا)، وإلى اسمه هذا نسبت الطريقة المولوية، إحدى أشهر الطرق الصوفية في العصر العثماني. وقد توفي سنة 672هـ/ 1273م. وسيرته أشهر من أن تعرف.

الأبدان، ويحيط بالمدينة سور عظيم، ذو بناء قديم، به شخوص وأشباح، وجُسوم تكاد تنطق لولا فقدها الأرواح، فدخلتُ إلى داخل قلعتها، وسَرَّحت النظر بمحاسن بقعتها، وتشرفت بزيارة المنلا شمس تبريز[1]، وعزمنا تلك الليلة على الترحال والتبريز، فتوسلت إلى الله تعالى بهذه الأبيات، متوكلاً عليه في جميع الحالات، وهي قولي، شعر:

إلهي أقلني عثرتي وامح زلتي	وخذ بيدي عند المهمات يا باري
وكن لي معيناً حيثما كنت قاصداً	فأنت معيني في حضوري وإسفاري
وأكرم لي المثوى ونجِّح مآربي	ولا تُحزني يوم المعاد بأسفاري
فإني غريب في الديار مشتت	بعيد عن الأوطان والأهل والدار
فلا ملجأ إلا بك دائماً	ولا مطلب إلا إضاءة أسفاري
وصلى على الهادي النبي وآله	وأصحابه الغر الكرام والأخيار

[لادق]

ثم سرنا إلى المرحلة الخامسة والعشرين، وهي لادق[2]، فنزلنا في خانها، واجتمعنا بسُكانها، وهو خان مبني من اللِّبن والأخشاب، فنزلنا فيه غربي الباب، وهو يخالف غيره من الخانات الكائنة ببلاد الروم، لأنها – إلا النادر منها- عمارة من يظن أنه يدوم، لكن إحكامها في محله، لقلة من يرغب في إصلاح ذلك فضلاً

(1) هو شمس الدين محمد بن علاء الدين التبريزي، شاعر عرفاني شهير، كان أستاذاً له تأثيره العميق بمولانا جلال الدين الرومي، لازمه هذا نحو أربعين عاماً، فلما أغتيل سنة 1248م، رثاه الرومي بشعر كثير وشرح أفكاره في ديوان كامل عرف بديوان شمس الدين تبريزي.

(2) بلدة في لواء قونية من ولاية قرمان، قريبة من قونية، حملت اولاً اسم سلوقية، وعرفت في العصر العثماني باسم يوركان لادق، وعرفت أيضاً باسم (لادق سوخته) أي لادق المحروقة، وتردد اسمها لدى الرحالين بشكل (لاديق) و(لوديقية) و(لاذقية) وفي رحلة الشتاء والصيف (لادك) وقال أنها «خيف لطيف». وينظر ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص182 وموستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص502.

عن تعمير مثله، وتجاه الخان فلا وسيع، ومرج أخضر بديع، والقرية في مقابلته على تل عال، وبيوتها مسكونة غير خوال[1].

[إيلغن]

ثم سرنا وسألناه تعالى التوفيق، والوصول بكرمه إلى أقوم الطريق، حتى وصلنا إلى المرحلة السادسة والعشرين، وهي إيلغن[2]، فرأيناها قصبة جزئية، بها خانان وجامع وتكية، ومن الأسواق ما لابد منه، ولا يستغني كل أحد عنه، لاسيما ما يحتاج إليه المسافر فإنه موجود، ويكفي ذلك فإنه هو المقصود، وباني ذلك المرحوم الوزير [و142] الأعظم، صاحب الفتوحات لاسيما في بلاد العجم، لالا مصطفى باشا عليه رحمة الملك العلام[3]، وهو صاحب الوقف العامر بدمشق الشام[4]، والحمّام الذي ما عمَّر أحد في البلاد من مثله[5]، ولا بنى بانٍ على منواله وشكله، فوصلناه في يوم غابت سماؤه، وتقاطر ماؤه، والسحاب قد توارت أنداؤه، والبرد اشتد تحكمه واعتداؤه، والأقدام لا تثبت من الوحل، والسماء تكفلت بدفع المحل. وأقنا إلى نصف الليل في ذلك الخان، ونحن صابرون على ما به من الدخان. شعر[6]:

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما   رماني إليه الدهر منذ ليال

---

(1) في الأصل (خوان).

(2) مدينة تعد مركز قضاء في ولاية قونية، تبعد عن قونية بـ 70 كم، وعن آق شهر بـ 42 كم، أشاد محمد كبريت بأبنيتها الفخمة، فقال أنها «بلدة عظيمة، وبها جامع لا نظير له في تلك الجادة، بني باسم السلطان مراد سنة 984 وعليه أوقاف وصدقات.. وفيها حمام للرجال وحمام للنساء، وماؤه حار لا بصنع البشر، وفيها أبنية محكمة عالية تدل على عظم بانيها» رحلة الشتاء والصيف ص192.

(3) هو لالا قره مصطفى باشا، 906 988- هـ/ 15801500-م من مشاهير القادة العثمانيين، تولى قيادة الجيش العثماني في أثناء حصار مالطه سنة 1565م، وفتح قبرص سنة 1570، وجورجيا سنة 1578 وتولى الصدارة العظمى وتوفي سنة 1580هـ ودفن في سوق السنانية في دمشق.

(4) يقع في دمشق في منطقة عين الكرش (شارع بغداد).

(5) هو حمام (الرّاس) الذي كان في مدخل سوق السُروجية، بناه لالا مصطفى باشا سنة 971هـ.

(6) البيت لأبي العلاء المعري.

[آق شهر]

ثم سرنا منتظرين الوصول، ومترقبين الحلول، حتى وصلنا إلى المرحلة السابعة والعشرين، وهي آق شهر[1]، فوصلناها سابع عشر الشهر، وهي كثيرة الفواكه عظيمة المنارة، مبيضة كسقيط الثلج، مصطفة بيوتها كبيوت الشطرنج، ويخترق أرجاءها نهر سلسال، كدموع المهجور إذا سال، وأسواقها معمورة بالخيرات مغمورة، لقلة أهلها وسعة رزقها، ذات مبان نضرة، وبساتين خضرة، وبها مساجد عظيمة، وعمارات قديمة، وبظاهرها عمارة بها مسجد للجمعة، معظم منسوبة إلى حسين باشا الوزير الأعظم[2]، وتكية ينزلها المسافرون، ويحلها المتفقون، وليس لها سور، ولا حَصار[3] معمور[4]، فنزلنا في خانها الكبير، ووجدناه مضمحل الحال، وقد وَهيَت أعمدته فلم يبق إلاّ خيال، وبقربه مقبرة كثيرة القبور، وكلها مبنية من الصخور،وبها قبة داخلها قبر ناصر الدين خواجا، وهو المشهور بجِحي، وكان اللفظ مصحف أو معرب، أو محرف، وهو صاحب الحكايات المشهورة، وهي في باب المضحكات مذكورة، وقد قبل أنه من الصلحاء الكبار، وقبره بظاهرها يُزار[5]،

---

(1) هذه المدينة هي مركز قضاء في ولاية قونية، على نهر (قزلجة). سيطر عليها السلاجقة والقرمانيون ثم ضمها الى الدولة العثمانية السلطان بايزيد الأول، وصفها محمد كبريت المدني فذكر أن «فيها جدول ماء يدور بشوارعها، وبالقرب من خانها جامع جمع المحاسن، وهو بناء الوزير حسين باشا، وتاريخه غيط [سنة 1019]» (رحلة الشتاء والصيف ص191) . وموستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص80

(2) تولى الصدارة العظمي مرتين، الأولى في شهور سنة 1032هـ/1622م، والثانية في شهور سنة 1033هـ/1623م.

(3) الحصار، بفتح الحاء، تركية بمعنى القلعة.

(4) هنا اقتبس المؤلف عبارته، مع تغيير، من البدائع البدرية ص104.

(5) نصر الدين خُوجة المعروف بجُحا التركي؛ كان مدرساً وفقيهاً وقاضياً، ولد في قرية صغيرة تدعى خورتو عام 605هـ، وتلقّى علومه فيها، ووليَ القضاء في بعض النواحي المتاخمة لها، كما ولي الخطابة في (سيوري حصار)، عين مدرِّساً وإماماً في بعض المدن، أبرزها آق شهر، وقد أحبّه طلبته فأقبلوا على مجالسه يستمعون إليه، وغلب عليه لقب المعلّم؛ لذلك اشتهر بين الأتراك بالخوجة، كما كان واعظاً ومرشداً يأتي بالمواعظ في قالب النوادر والنكات الظريفة التي لم تُزعزع مكانته في قلوب الناس. توفي عام 683هـ ودفن في مقبرة آق شهر الكبرى. ينظر في سيرته محمد النجار: جحا العربي وعباس محمود العقاد: جحا الضاحك

ويقال: أنه ليس جحّي ولكنه في الروم ومثله، وكل منهما ذكره وسيلة للضحك وسبب، ولابن طولون[1] تعليقة سماها (فقاقع [و143] الرحى في أخبار جُحّى)، فمن أراد أن يقف على جميع حكاياته المشهورة، فقد أطنب فيها، وقد أطلت على ما يحويها، ولا حاجة إلى إيراد شيء منها، لاستغناء كل سامع بما يحفظه عنها. ومن المشهور أنه لا يزور قبره أحد، إلاّ ضحك ولو كان في نكد، وقد زرته وتذكرت نزراً من نكاته، وشيئاً من بعض مضحكاته.

[اسحاقلي]

ولم نزل في ذيل المسَرَّة سائرين، وبجناح الأفراح طائرين، حتى وصلنا إلى المرحلة الثامنة والعشرين، وهي قرية إسحاقلي[2]، فوجدناها قرية صغيرة حسنة، وبها أماكن مُسِرَّة مستحسنة، بساتينها متكاثرة، ومياهها وافرة، وبها جامع مختصر، ليس فيه شيء ولا الحصير مما يراه البصر. وقد نزلنا في خانها على المعتاد، ونزل المولى في دار رجل من أعيان البلاد، قد انتقل بالوفاة، وله ولد أعجبنا كماله ووفاه، فقد أبدى لنا كمال المحبة، وصار بيننا وبينه مَوَدّة وصُحبة، وقد طال هذا السفر، وحصل لبعض الرفاق غاية السأم والضجر، فلا غرو أن السفر يُسفر عن الأخلاق، ولا تمتحن الأخلاق إلاّ بالمشاق، شعر:

لا يخبر المرء إلاّ من يجربه　　　في بعض أسفاره أو في مغازيه

ولولا لطف الله تعالى بالمسافر، لما كان على ما يحمله صابر، فلأجل ذلك جعل الله تعالى دعاءه مستجابا، وأعانه ذهاباً وأيابا. ويؤثر في الخبر: لو يعلم الناس ما يصنع الله بالمسافر لأصبح كل منهم على سفر. والحكمة في ذلك أنه

المضحك «وزعم كبريت أن هذا القبر لخواجة ناصر الدين، صاحب التفسير، المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة، والعامة تزعم أنه جحا الذي يضرب أمثاله في الجد والهزل».

(1) هو محمد بن علي بن أحمد ابن طولون الدمشقي الصالحي (880 – 953 هـ / 1475 – 1546م، وله العشرات من المؤلفات المهمة أغلبها في التاريخ، لا سيما تاريخ مدينته دمشق.

(2) مركز ناحية باسمها في قضاء (بوليوادين) المذكور، إلى الجنوب من مدينة قونية. وصفت بجودة الهواء وعذوبة المياه، وكثرة البساتين والجنائن. قاموس الأعلام ج2 ص904 وموستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص 63.

منكسر القلب في الغربة، ممتحن السِّر بصُحبة بعد صحبة، يصحب ضرورة من لم يكن لصحبته أهلاً، ويقول لمن لا يستحق التأهيل أهلاً وسهلاً[1]. شعر[2]:

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

[بولوادين]

ثم سرنا إلى بلاد لم نعرفها، وتألفنا مع وجوه بالرغم منا أن نألفها، حتى وصلنا إلى المرحلة التاسعة والعشرون، وهي قصبة بولوادين[3]، وهي مستظرفة، وبساتينها[4] مستلطفة، فلما شرحنا [ما]عندنا من مضمون الغرام، وسرَّحنا طرف الطرف [و144] في رياض ذلك المقام، ودارت كؤوس المُصاحَبة سِرِّية وجَهرية، لم أستطرد المولى في أثناء الكلام إلى منتزهات دمشق المحمية.

وأمرني أن أقص على جنابه الرفيع المقدار، نزراً مما أجمعته في هذه الرحلة من الأشعار والأخبار، فامتثلت عالي أمره، وأوردت شيئاً مما حررته على أنف زَيده وعَمْره، وقد أوردت في هذه الحصة اليسيرة شيئاً قليلاً من بعض وقائع ناصر الدين جحى الشهيرة، ولم أكن رقمتها في الرحلة كما تقدم، فقال لي المولى الأكرم: لو كتبت على هذا المنوال لكان أحسن في هذا المقال، فحصل بذلك مباسطة من النسيم، وكان صاحب الدار يُورد كلاماً غير مستقيم، ويَشرِد كشرد الإبل، ولا يدرك بعد التعليم لمن عنده حضر، وما عليَّ إذا لم تفهم البقر، ولا غرو فإنه رجل من الأتراك، ومن نواحي قَرَمان، وما أدراك حمار في صورة إنسان لم يوجد له

---

(1) البيت للمتنبي.

(2) البيت للمتنبي.

(3) مدينة في مقاطعة ومنطقة آفيون قره حصار، في الآناضول، بنيت في العهود الرومانية المبكرة وكانت تعرف باسم Polybotum على سهول خصبة واسعة بين جبال أمير داغ، ضمها السلاجقة إلى دولتهم، ثم انتقلت إلى الدولة العثمانية، حيث عدت في لواء قره حصار، من ولاية خداوندكار. وسماها الخياري (لاودون)، وفي رحلة كبريت المدني قال أنها «كثيرة الخيرات، بها الأشجار المؤتلفة والأزهار المختلفة». تحفة الأدباء ج2 ص115، كما نوه بها طه الباليساني باللفظ الأخير ص35. وموستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص180.

(4) في الأصل (بساطينها).

مشابه في سائر ما رأيناه من البلدان، قد استوعب البلد بتمامه، وحاز العُته بأسره في كلامه، وقد كنا مستثقلين ظله، ومستبزين شكله[1]، فلم نزل نتحمل ما يصدر من كلامه الذي ليس له معنى بالكلية، ولا نوع مناسبة لما نحن فيه من المصاحبة العملية، حتى عزمنا على الرحيل من داره.

[بيات، بياض]

وسرنا ونحن نذكر ما شاهدناه من أخلاقه وأطواره، حتى وصلنا إلى المرحلة الثلاثين، وهي قرية بَيات[2]، وهي مبنية على تل عال، من جملة ما بتلك الأرض من التلال، وعندها واديان وجبال، وبها ماء فرات أعذب من الزلال، وخان كبير نزلناه، وترحمنا على بانيه بعدما حللناه، وهي مشهورة بين الناس بقرية بياض، فلم أعلم وجه العُدول عن ذلك الاسم والاعتياض، لكنه ألطف، والبياض أظرف. وقد تذكرت ما نظمه شيخنا العلامة، والعُمدة الفهامة، النجم الغزّي[3]- فسح الله أجله- لما أتى إلى هذه المرحلة، وتذكّر فيها الأهل والرّفاق، وما حلَّ في القلب من ألم الفراق. شعر [و145]:

ذكرت يوم بياضٍ سَواد يوم الفراق

فقلت يا ربّ يسّر بياض يوم التلاق

---

(1) كذا في الأصل، ولم يتوضح لنا معناها.

(2) هي Beyad وسيذكرانها تسمى أيضاً (بياض) وبالإسم الأخير ذكرها الباليساني. رحلة طه الباليساني الكردي ص35.وفي رحلة الخياري (بياضة). ووصفها بأنها «منزل جديد، .. بها مسجد لا منارة له، .. وبها خانان لنزول المسافرين» تحفة الأدباء ج2 ص115.

(3) هو شيخ الإسلام نجم الدين محمد بن بدر الدين محمد بن رضي الدين محمد الغزي العامري الدمشقي حافظ الشام ومحدث عصره أبو السعود النجم الغزي، ولد سنة 977 وتوفي سنة 1061هـ/ 1570- 1651م، كان مؤرخاً أديباً، من كتبه (الكواكب السائرة في تراجم أعيان المئة العاشرة) و (لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادى عشر) أخذ عنه المحبي، ابن صاحب هذه الرحلة، وكتب أخرى في علوم متنوعة.خلاصة الأثر ج4 ص189 ونفحة الريحانة، تحقيق عبد الفتاح الحلو، القاهرة 1967، ج1 ص541..

وما قاله أبو الطيّب المتنبي، وهو بيت معمور، وبالاعتراض مشهور، شعر[1]:

أبعدْ بَعدتَ بياضاً لا بياضَ له لأنت أسوَد في عيني من الظلم

إذ لا يشتق من الألوان والعيوب أفعل التفضيل، وقد اشتقه المتنبي من السواد وهو من هذا القبيل، فالصواب تخطئة من لحَّن المتنبي في شعره بأن يكون قوله من الظلم صفة لأسود، وليس من التفضيل، خلافاً لما ذهب إليه بعضهم، بل هي للبيان عند أهل التحصيل، وكأنه قال فيما نظم: إسود سواده من سواد الظلم.

[خان خِسْرو باشا]

ثم سرنا حين قضى الليل نحبه، وغور الصبح شهبه، ختى وصلنا إلى المرحلة الحادية والثلاثين، وهي خان المرحوم خسرو باشا الوزير الأعظم[2]، من طنت حصاته في العرب والعجم. وهو خان لطيف[3]، ذو بناء ظريف، حسن المعاني، لطيف المباني، متين الجدران، محكم البنيان، مكانه شرف، وبنيانه على هدف، بظاهره مرج أريج، ذو نبت بهيج، يسافر النظر فيه ويرتاح رائيه، وله بابان عليهما قصران مصلان، وعلى ذلك البُرج البديع شرفان، وبقربه مسجد يُتعبَّد فيه من بتلك القرية من الرجال، بالغدو والآصال، وهو حادث من زمن قريب، فلله دَرُّ بانيه على هذا البنيان الفريد العجيب، فإنه فاق به الأوائل، وقامت على خيرات بانيه الدلائل، وقد قلت في وصف ذلك الخان، مسؤولاً من حضرة المولى لا غاله الدهر ولا خان، شعر:

---

(1) ديوان المتنبي، طبعة القاهرة الحجرية 1302هـ، ص207.

(2) خسرو باشا البوسنوي قائد عثماني كبير، تولى منصب آغا الانكشارية، ثم ولي منصب الصدارة العظمى في المدة من 1037 إلى 1041هـ/1628-1631م. وقاد حملة عثمانية لاسترداد بغداد من أيدي الصفويين إلا أن الحملة لم تحقق اهدافها واضطرت للإنسحاب، قتل في فتنة جرت سنة 1042هـ/ 1632م. سامي: قاموس الأعلام.

(3) في رحلة الخياري: خان خصرف باشا. تحفة الأدباء ج1 ص221 وج2 ص115 وسماها الباليساني (خسرف باشا). رحلة طه الباليساني ص35. وأصبحت في أواخر العصر العثماني مدينة في لواء قره حصار صاحب، من ولاية خداوندكار. موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص258.

جئنا بفضل الله واللطف الخفي   خاناً غدا يدعى بخان الخسرف

إلخ، عدد 9

[السيد غازي]

ثم سرنا نحث مطايا السير والسرى، ونرشف من كاسات العيون طلاء الكَرى، حتى وصلنا إلى المرحلة الثانية والثلاثين، السيد غازي[1]، أعاد الله من بركاته في الحقيقة والمجاز، وهي منزلة قديمة، وقبره بها في قبة عظيمة على تلال عالية، وجبال مائلة، وهو في ذلك المقام في غاية المهابة والاحترام [و 146] وبها تكية شامخة، ذات أبنية باذخة، وقبة عالية، ورؤوس جدرانها هائلة، بها دراويش مشهورون، وبين طائفة القلندرية معروفون[2]، وبذلك المكان سوق صغير، وقد جدد فيه خان كبير، أنشأه المرحوم بيرام باشا، فنزلنا فيه وترحمنا على بانيه.

---

(1) مدينة في مقاطعة اسكي شهر، تبعد عنها بنحو 43 كم، في وسط الأناضول، أصلها Nacoleia ونسبت إلى أحد المجاهدين من أهل القرن الثاني للهجرة، استشهد في سنة 790م، وبها قبره، ومسجد، وتكية للدراويش، وهذه المعالم مقصد الزائرين، أنشأتها احدى نساء السلاجقة سنة 656هـ/1258م، وجددها السلطان بايزيد الثاني سنة 917هـ/1511هـ. وعدت في لواء كوتاهية وسلطان أنو من ولاية خداوندكار. موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص312.

(2) طائفة من الدراويش الفقراء اتسموا بالخروج على أحكام المجتمع الإسلامي وتقاليده، حتى اتهموا بالخروج عن الإسلام نفسه، وأنهم لم يكونوا يتبعون أياً من أحكام الشريعة، وساعدت ضروف الاضطراب الفكري الذي ساد انحاء من العالم الإسلامي على تحقيقهم بعض الانتشار، فكانت لهم تكية في بغداد، وفي دمشق والقاهرة ودمياط، ومع ذلك وقد تعرضوا لاضطهاد السلطات المملوكية، واجبارهم على «ترك رسومهم»، إلاّ أنهم نجحوا في مسايرة السلطة العثمانية، بعدم الدخول في مجادلات عقائدية، واتصافهم بصفات الفقر المطلق، والمشاركة في القوات المسلحة، حتى عرفوا بأبدال الروم، بوصفهم من الأولياء المجاهدين. وما ذكره الرحالة هنا يشير إلى وجود تكية ضخمة لهم في سيد غازي من بلاد الأناضول أيضاً، وسيشير إلى وجود مدرسة باسمهم في استانبول فيما يلي من رحلته. كتاب الحوادث، بتحقيقنا بالمشاركة، بيروت 1997 وابن كثير: البداية والنهاية ج12 ص274 والدولة العثمانية تاريخ وحضارة ج2 ص173 ومعن حمدان: القرندلية، على موقع (ملتقى الأهالي الثقافي).



جامع وضريح السيد غازي

ثم رحلنا منه ولم نزل سائرين، وللأصحاب مسامرين، حتى وصلنا إلى المرحلة الثالثة والثلاثين، وهي أسكي شهر، فوصلناها في ثاني عشري الشهر، فرايناها بلدة قديمة، وخيراتها عميمة، وبها حمام حامي المياه من غير إسخان، عجيب الصنعة والبنيان، غير مصنع ليس له نظير، ولا يعلم كيفيته إلاّ العليم الخبير، وهو من العجب العُجاب، ولا يَسَع حصر وصفه كتاب، وبها نهر كبير، ذو ماء كثير، وبساتينها متعددة، وغالب دورها متجددة، لم يطابق من اسمها المسمى، وقد أقمنا بها يوماً.

[بوز أيوك]

ثم لم نزل نسير ونسري، وننزل منازل لا نعلم اسمها ولا ندري، حتى وصلنا إلى المرحلة الرابعة والثلاثين، بوزأويوك[1]، وهي قرية كبيرة، لكن أمطارها غزيرة، وبها خان وجامع بنيانه محكم، بناه المرحوم قاسم باشا الوزير الأعظم[2]. وبلغني

(1) سماها الغزي (قرية بوزيك) وقال «ومعناها: التل الأشهب، وبها عمارة لقاسم باشا الوزير» المطالع البدرية ص 288 وهي Bouzouyuk مدينة كبيرة في ولاية كوتاهية وسلطان أونو، تقع على بعد 45 من أسكي شهر، و32 من بيلجيك.

(2) كان كاتباً للجند، فولاه السلطان محمد بن مراد منصب الصدر الأعظم في سنة 1011هـ/1602م.خلاصة الأثر ج3 ص56.

أنه صاحب العمارة السنية، بالمدينة القسطنطينية[1]، فلما طال الطريق علينا، وأقبل من نحن بخدمته بالمسامرة إلينا، حصل لي كمال الإلفة، وزالت عني المشقة وارتفعت الكلفة، فلله در القائل حيث يقول، بعدما سئم من الرحيل والنزول، شعر[2]:

إذا طال الطريق عليك يوماً   فليس دواؤه إلاّ الرفيق

تحدثه وتشكو ما تلاقي   فيقرب بالحديث لك الطريق

بيعها شتاها، فلله الحمد حيث خفف عنا بردها وبلاها.

[بازار جك]

ثم سرنا حين طوى النهار عنها كشحا، وتقلد الليل من نجومه وشحاً، حتى وصلنا إلى المرحلة الخامسة والثلاثين، وهي قرية بازارجك[3]، فدخلنا الخان الذي تجاه المسجد، فإنه أدنى إلى الإحسان، وأقرب إلى المقصد، وقد اجتمعت برجل من أهاليها، وشكوت له برد هذه المنزلة وما يليها، فقال لي: أحمد [و147] الله تعالى الذي أسرعت في السفر، فإنه أشد من ذلك ومتأخر إلى أيام أخر. ومن عادة هذه البلاد أن يكون ربيعها شتاها، فلله الحمد حيث خفف عنا بردها وبلاها، فما وردنا على أرض الموحل معتادة، إلاّ رأيناها ذات يَبْس وجلادة.

ثم سرنا أول الليل من ذلك المكان، وكانت تلك الليلة ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان[4]، وقد طال ليلها وعسعس، وسألته عن صبحه، فقال: لو كان حياً لتنفس! وقد باتت تسامرنا غياهُبه، وترعانا بمقلتها كواكبه، وهي ليلة القدر على أصح الأقوال، فقضيناها سهراً، وحَسُن فيها قول من قال، شعر:

---

(1) وينسب إليه اليوم حي كبير من أحياء مدينة استانبول.

(2) البيتان لأبي اسحاق الشيرازي، كما في المنتظم لابن الجوزي، حوادث سنة 476هـ

(3) مركز ناحية باسمها في قضاء بيله جك في ولاية خداوندكار، تبعد عن بروسه بـ88 كم، من الجنوب الشرقي، وعن مركز قضاء بيله جك بـ14 كم، من معالمها جامع قره مصطفى باشا. وتتبعها 21 قرية. قاموس الأعلام ج2 ص1194

(4) من سنة 1151هـ ويوافق 30 كانون الأول (ديسمبر)1641م.

ولـــرب ليــل ضَــلَّ فيـــه نجمـــه فقطعتـه سـهراً فطـال وعسـعسـا

وســألته عــن صـبحه فأجــابني لــو كــان في قيـد الحيــاة لتنفـسـا

[ينكي شهر]

ثـم سـرنا نطـوي الليـل والنـهار، ونقطـع السـهول والاوعـار، حتـى وصـلنا الى المرحلة السادسة والثلاثين، وهي بلدة ينكي شهر[1]، فحللناها ثامن عشري الشهر، فرأيناهـا جميلـة المنظـر، جليلـة المخبر، وهــي قـصبة نـضيرة، لطيفـة صـغيرة، ذات مساجد معمورة، وحوانيت بالخيرات موفـورة[2]، بخارجها نهـر صـغير، وخـان كـبير، نزلنا فيه، وتأملنا قوادمه وخوافيه، فاذا هو معمور البناء[3]، وهي معتدلة الشتاء.

[آزنيق]

ثم سرنا ولم تعلم جنوبنا من المضاجع قراراً، ولم تطعـم عيوننـا مـن النـوم إلاّ عرارا[4]، حتى وصلنا الى المرحلة السابعة والثلاثين، وهـي آزنيق[5]، فرأيناهـا غَـضّة المنظر، حسنة المخبر، من أحسن البـلاد الروميـة عمـارة وأسـواقاً، وأكثرهـا خـيرات وأرزاقاً، وأوضحها بياضا وإشـراقاً، معتدلـة الهـواء، واسـعة الفنـاء، سـاكنة المسـاكن،

---

(1) ينكي شهر، وتلفظ: يني شهر، اي المدينة الجديدة، أو الحادثة، مدينـة كانـت مركـزاً لقـضاء يتبع لـواء أرطغـرل في ولايـة خداوندكار، تبعـد عـن بروسـه 45 كـم مـن جهـة الـشرق. سـامي: قاموس الأعلام ج6 ص4805 و موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص499.

(2) هذا النص يطابق ما ذكره بدر الدين الغزي الدمشقي في كتابه (المطالع البدرية في المنازل الرومية)، تحقيق المهدي عبد الرواضية، أبو ظبي 2004، ص109 إلا أنه يختلف عنه في الآتي من النص، ففيه «وخارجها نهر كبير، ذو ماء كثير، عذب زلال نمير».

(3) في رحلة الغـزي المذكورة «فنزلنـا بهـا بعمـارة عتيقـة، محكمـة وثيقـة، وحـسنة أنيقـة»، فهـذه العمارة هي نفسها الخان الذي نزل فيه رحالتنا.

(4) نبات اشتهر عند العرب برائحته الطيبة.

(5) مدينة تقع في أقصى شمال غرب الأنضول في إقليم مرمرة. وهي مركز ناحية ملحقة بقـضاء ينيشهر، تبعد عن بروسه بـ55 كم، من الشمال الشرقي، اسمها القديم نيقيه، ضمها سليمان بن قتلمش السلجوقي إلى دولة السلاجقة سنة 468هـ/1076م، ثم استولى عليها الـصليبيون سـنة 490هـ/1097م، وضـمها العثمـانيون إلى دولـتهم سـنة 730هــ/1333م. قـاموس أعـلام ج2ص 852. و موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص56.

مكينـة الأمـاكن، سـافرة المطـالع، وافـرة الـصنائع، مخـصوصة بعمـل الأزنيـق وبـه تُعرف[1]، وهو أحسن من الفرفوري عمل الصين وأظرف[2].



أزنيق

[كاوركولي]

ثم سرنا لما طوى النهار أعلامه، ونشر الليل ظلامه، حتى وصلنا الى المرحلة الثامنة والثلاثين، كاوركولي، فنزلنا بخانها، وارتفقنا بسكانها، وهي منزلة معروفة بهذا الاسم، موصوفة ومخالفة لسائر البلاد، فإن نساءها يأتين سَفِرات بما يحتاج اليه المسافر ويرتاد، والرجال لا يتجرون لا يبيعون ولا يشترون[3]، وقد حصل تلك الليلة بعد العشاء بحصة قليلة زلزلة في الأرض، وارتجت في الطول والعرض.

[الديل]

ثم رحلنا بعد ذلك منها، وحولنا الإقامة عنها، وسرنا لا نعرج عن مَجَرَّة

---

(1) في المطالع البدرية ص111 «وهي مخصوصة بعمل الصيني الرومي وبه تعرف». وقد حققت صناعة الخزف العثماني تقدماً واسعاً في مدينة أزنيق حتى نسب الخزف الفاخر إليها، وبلغت هي الذروة في انتاجه والتفنن في تزجيجه في القرن الحادي عشر للهجرة (17م)، وكان فيها في بداية القرن المذكور نحو ثلاثمائة مصنع لهذا الغرض.

(2) فرفوري، وفغفوري، لقب لملوك الصين نسب إليه النوع الفاخر من الخزف الذي كان يجلب من الصين إلى البلاد الاسلامية.

(3) أكد الخياري هذه الملاحظة في كلامه على منزل لم يسمه وأهله نصارى، ولعله هذه القرية، لأن (كاور) تعني النصارى، إذ قال «رأينا بها نساءهم يبرزون سافرات الوجوه».

الطريق، ولا نميل حتى وصلنا الى مَعَديَّة الديل[1]، فأمرني المولى بالركوب مع خدمته في السفينة، ليكون لي بذلك كمال السكينة، لما رأى ما عندي من الوهم والنفور، في الركوب والمرور، فحصل لي كمال الأنس بمؤانسته، وزال عني الوهم بمجالسته، فلما ألقينا مرائر الفلك بمرساها، وتلونا عليها تيمناً (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)[2]، وسرنا بنية خالصة وعزم صحيح، ورضينا من الأيام بالريح. شعر:

ركبتُ في البحر شختوراً الى بلد[3] لحاجة اوجبت في البحر تسريحي

يا دهر جد لي بريح منك طيبة قد صرت ارضى من الايام بالريح

فقطعنا هذه المَعديّة بمسامرة الاشعار العربية، وسرنا أسرع من لمح طرف، أو خَطِّ حرف، حتى وصلنا الى الساحل، وأخرجنا الرواحل، ثم نزلنا هناك ساعة قليلة، ولسان الحال ينشد ما يزيل عن القلب غليله. شعر:

ولو لم يكن إلاّ مفرج ساعة قليل فانى نافع لى قليلها

وبالجملة فالقلب مجتمع في السير بالأصدقاء والأحباب، ومتعلل محصول المطلوب بعد مشتقة الذهاب والإياب، فيمسي في هَوَس الأماني ويُصبح، ولا يلقى ما به يستصبح، فيلذ له الأسفار ببلوغ الأوطار، ولله دَرُّ القائل حيث قال مفصحاً عن حقيقة الحال، شعر[4]:

وما التذ طعمُ السَّير إلاّ بمنية وإن الأمانى نعم زاد المُسافر

فلم أبرح متخيلاً في سيري، ومترقباً ما يعقب مسيري. شعر[5]:

يخيل لى أن البلاد مسامعى وإنى فيها ما تقول العواذل

[كليويزه]

ثم سرنا قبل غروب الشمس، وبعد ما مضى اليوم كمضي أمس، حتى وصلنا

---

(1) ذكر الخياري أن اسمها معناه بالعربية (لسان البحر) وفيها كانت المراكب المعدة للتعدية. تحفة الأدباء ج2 ص111.

(2) هود آية 41.

(3) الشختور: ضرب من السفن.

(4) البيت للشريف الرضي.

(5) البيت لأبي الطيب المتنبي.

الى المرحلة التاسعة والثلاثين، قصبة كليويزه[1]، فدخلناها ختام شهر رمضان المعظم[2]، والانظار متشوقة الى رؤيا هلال شوال المكرم. شعر:

كأنــه والعيــون ترمقــه   مــن كـل فـج هــلال شـوال[3]

فبشرنا القلب بحصول الأفراح، وبسطنا له بُسُط الإنشراح. وهي قصبة كبيرة، وبساتينها كثيرة، وخاناتها عديدة، وحماماتها مختصرة مفيدة، وبها جامع كبير تقام فيه الجمعة، منسوب الى المرحوم مصطفى باشا، مبني بالمباني المبدعة، ومدرسة لطيفة مشهورة[4]، ومن محاسن البنيان معدودة مذكورة، قلد درسها كثير من الفضلاء، وفحول العلماء، كعلامة الوجود المولى المرحوم شيخ الاسلام أبي السعود[5]، فأقمنا بها يومين لأجل العيد، وتذكرت بها كل خِل بعيد، والأشواق لا

---

(1) كذا في الأصل، ورسمها الغزي بشكل (كتكثيبزه) وقال «هي بلدة عامرة ذات خيرات غامرة وأمم متكاثرة، وبها أسواق متسعة وعمارة تقام فيها الجمعة، عظيمة الآثار مزدهاة، عديمة الأنظار والأشباه، منسوبة لمصطفى باشا الوزير» المطالع البدرية ص116، وفي رحلة الخياري ج2 ص111 (قيبزه) وسماها محمد كبريت المدني (قبيزه) وقال «هي بلدة بديعة المعاني، آهلة المغاني، فنزلنا بخانها الأمين المأمون». رحلة الشتاء والصيف ص188. ووصفها المحبي قائلاً «كيبوزه: وهي بليدة صغيرة على ساحل البحر، يتوصل منها إلى اسكدار على طريق الذاهب من قونية، وبينهما سبع ساعات». خلاصة الأثر ج3 ص474.

(2) ويقابل 2 كانون الثاني (يناير) من سنة 1642م.

(3) لابن المعتز : مر بنا والعيون ترمقه   في قد غصن وحسن تمثال
فخلفه والعيون تأخذه   من كل فج هلال شــوال

(4) أسس هذا الجامع الصدر الأعظم جوبان مصطفى سنة 921هـ/1515م، وألحق به مدرسة في سنة 930هـ/1523م وقد تولى التدريس فيها كبار علماء عصره، منهم أبو السعود المذكور. شقيرات: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ج1 ص390.

(5) هو المفسر الشهير محمد بن محمد أبو السعود العمادي الحنفي، ولد في أسكليب قرب استانبول، سنة 896هـ/1490م ونبه في العلم حتى عين قاضياً في بروسه سنة 939هـ/1532م، وولي بعدها قضاء استانبول، ثم قضاء عسكر روميلي، ثم ولي منصب (شيخ الإسلام) في الدولة العثمانية سنة 952هـ/1545م، له مؤلفات جمة، أهما (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم). وتوفي سنة 982هـ/1573م. طاشكبري زاده: العقد المنظوم (ذيل الشقائق النعمانية) ص439 والبوريني: تراجم أعيان الزمان ج1 ص239 وسامي: قاموس الأعلام ج1 ص722، وابن العماد: شذرات الذهب ج8 ص398 وشقيرات: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ج1 ص386.

تطاق، لكن شوقي الثاني كان اقرب للتداني، إذ لا يقاس داني[1] الدار بالبعيد المزار، فإنني كنت بعدت عن الديار الشامية، وقربت من المدينة القسطنطينية، فتحرك الشوق الساكن، الى ما بها من محاسن الاماكن. شعر[2]:

وأبرح ما يكون الشوق يوما   إذا دنت الديار من الديار

[البَندِك]

ثم سرنا حين سَلّ الفجر حسامه المشرق، من جفن المشرق، حتى وصلنا الى المرحلة الاربعين، وهي البَندِك[3]، وبهذا الاسم تُعرف، وبغيره لا توصف، فلما حللناها بعد قطع مسافة البر، وجدناها قرية صغيرة على ساحل البحر، بيوتها مسكونة، وبهذه الطائفة الكفرة مشحونة، وبها خان نزلناه مع زمرة الرفاق، وتذكرنا فيه ما قطعناه من المَشاق، وروينا حديث المسايرة، وأروينا القلوب بلذيذ عذب المسامرة، فبينما نحن على هذا الحال، إذ رأينا بعض أحباب المولى قد أتوا الى الاستقبال، فتزايد الشوق والغرام، لمشاهدة هذه البلدة وللتمتع بلثم أقدام حضرة المولى شيخ الإسلام[4]. شعر[5]: [150و]

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

ثم سرنا لما برق من الليل نوره، ولاحت من الصباح تباشيره. شعر:

الى أن بدأ ضوء الصباح كأنه   مبادئ نصول في عذار خضيب

[أسكدار]

حتى وصلنا الى مدينة أسكُدار[6]، وقد حصل لنا برؤيتها غاية المَسار، فحللناها

---

(1) في الأصل (واني).

(2) هكذا رواه أبو علي القالي عن جحظة، عن حماد بن إسحاق، عن أبيه، الأمالي، ج1ص 55.

(3) هي Pandik ميناء وبلدة في ولاية خداوندكار، لواء قوجه إيلي، بين مدينتي قاضي كوي وأزميد، وتكاد تصبح اليوم من ضواحي استانبول، نوه بها الخياري، تحفة الأدباء ج1 ص241. وموستراس: المعجم الجغرافي ص207.

(4) يقصد شيخ الإسلام يحيى بن زكريا بن بيرام، وقد تقدم.

(5) البيت لقيس بن الملوح.

(6) هي القسم الثالث من مدينة استانبول، وتقع في الجانب الآسيوي منها، وكانت تابعة لمدينة خلقيدونية (قاضي كوي) وهي أول منطقة فيها فتحها العثمانيون قبل فتحهم استانبول

رابع شوال المكرم[1] ضُحى، وألقينا عنّا عصا التسيار، وانشرح القلب من سُكر تعبه وصحا، فقابلني أهلها بصدر رحيب، وبتنا منهم بين تكريم وترحيب شعر:

من فوق الحَمام الرياض وتحـت أذيـال النـسيم

وهي فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، مثيرة الهواء، ذات منظر جميل، ونسيم يشفي العليل، ورياض وأزهار، وغياض وأشجار، وظل وَريف، وخصب لطيف، وأسواق حسنة، وحمامات مستحسنة، ومساجد سَنيّة، وعمارات بهية. شعر[2]:

حَللنا دَوحَها فحَنا علينا حُنوّالمُرضِعات على الفطيم

يمتد أمامها بساط كالزمرد الأخضر، ولم يكن أظرف منه في العين وأنضر، واليَم ينساب بين يديها، وينعطف خاضعاً لديها، ومنها نقطع المَعديَة الى دار السلطنة العلية، ومقر الخلافة السنية قسطنطينية المحمية، فحين أرست في بحرها الزاخر سفينة أوطاري ومآربي وأمسَت ببرّها مخائل آمالي ومطالبي، حمدت في صباح الظفر السُرى، ونبهت حطني[3] من سِنة الكَرى، وعنان مطايا الحزم بين ثان وماد، وطوارق الوسواس بين رائح وغاد، فحططت عني بها رحال الأمل، وتعللت بعسى ولعل، إذ هي محط الرحال، ومنتهى الآمال، ومحل الكرم، وموطن النعم، ومشرق السعادة، وافق السيادة، وموسم الأدباء، وحلبة الخطباء، ودار الإسلام، ومقر العلماء الاعلام، مظهر شموس الإقبال، ومقر غروس الإجلال، ومنبع المجد المعظم، وتخت الملك الأعظم. شعر[و151]:

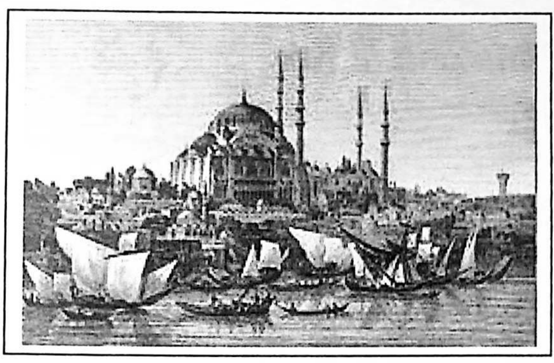
لقد جمعت فيها المحاسن كلها وأحسنها الإيمان واليُمن والأمن

نفسها في الجانب الآوربي، ضمها السلطان أورخان إلى دولته في 753هـ/ 1352م، وتحولت في القرن السادس عشر إلى مدينة تجارية كاملة، تتألف من سبعين حياً، ومن أبرز معالمها مقبرة (قره جه) التي تعد أكبر مقابر استانبول. موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص66.

(1) الموافق 6 كانون الثاني (يناير) من سنة 1642م.

(2) البيت للشاعرة الأندلسية حمدونة بنت زياد المؤدب.

(3) كذا في الأصل.



استانبول (صورة قديمة)

[القسطنطينية]

آيات محاسنها لم تزل على ألسُن السُمار متلوّة، وعرائس بدايعها لم تبرح لدى أعين النظار مَجلوّة، أجل ما فتح من البلاد، وأعظم ما استخلصته يد الصلاح عن الفساد، تعجز عن وصفها الألسن، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، لا زالت دار السلام والايمان، ومستقر الأمن والأمان، ما دام الفرقدان، وتعاقب الجديدان، بدوام أيام حضرة سلطان العالم، ظل الله الظليل على كافة الأمم، ناصر الشريعة القويمة، سالك الطريقة المستقيمة، والى الولاية في الآفاق، مالك سرير الخلافة بالاستحقاق، حامي بلاد أهل الإيمان، المجتهد في نصب سرادق الأمن والأمان، المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين المعظمين، وحماية المقامين الجميلين المفخمين، ظل الله في الأرض، وسرِّه الظاهر في طول البلاد والعرض، السلطان الأعظم، والخاقان الأفخم، الذي جاء تاريخ جلوس جنابه الكريم، (خلد الله ملك إبراهيم)[1]، فلا زالت أقطار الأرض مشرقة بأنوار عدالته، وأغصان الخيرات مُورقة بسحائب رأفته ورعايته، ما لاحت أنوار العناية مشرقه، وسحّت سحائب المطالب مُغدقة، وخطّت الأقلام ببلوغ المرام، وخَطَت الأقدام الى ذلك المقام.

---

(1) هو السلطان ابراهيم الأول، تولى السلطنة بعد وفاة سلفه السلطان مراد الرابع في سنة 1049هـ/1640م وقتل في ثورة للانكشارية في 1058هـ/1648م. ومن جلائل أعماله فتحه جزيره كريت وضمها إلى الدولة العثمانية. وهذه العبارة تحمل تاريخ توليه السلطنة على النحو الآتي: خلد= 634، الله= 66، ملك= 90، ابراهيم= 259، فالمجموع 1049.

[زيارة شيخ الإسلام]

ثم سَعَيت على الرأس والعين، للثم قدم من أتيت بصدده، ووجَب ذلك عليٰ كفَرْض عَيْن به غرّة الزمان، وينبوع الخير والإحسان، حضرة المولى الأستاذ شيخ الإسلام[1]، مفتي الأنام، لازالت أعتابه قبلة الآمال وكعبة الإقبال. شعر:

ما بشّرَت التهاني فتىً وأسفر وجه الزمان بالبِشر

فلما توجهت إلى منزله الشريف، وقصدت بابه المنيف، ألقيتُ عصا الترحال، وأنشدت في الحال. شعر:

ويشرت آمالي بمولى هو الورى وداٍر هي الدنيا ويوم هو الدهر

فوجدت جنابه الكريم، معتلاً كاعتلال النسيم، فعند ما بلغه قدومي لسُدَّته، وحلولي بساحة سماحته[و152] أمر بنزولي في مدرسة والده المرحوم، الجامع بين المنطوق والمفهوم، شيخ الإسلام، مفتي الأنام، المولى زكريا[2]، أفاض الله عليه سحائب الغفران، وأسكنه فراديس الجنان، وأرتعه من العفو في روضة الريَّا، وهي بالقرب من منزله العالي، فأقمت بها مُبتهلاً بالدعاء لحضرته في جنح تلك الليالي، ورَجَوت من كرمه تعالى أن تهب على أدعيتي نسمات القبول، وأن يُمتّع الاسلام والمسلمين بطول بقائه الذي هو غاية المرام والسؤل.

وقد كان مدرس المدرسة المذكورة، صاحب الفضائل المشهورة، عين المدرسين، وزبدة العلماء العاملين، من له في تحقيق العلوم قدم عال، الموسوم بصلاح الحال،

---

(1) هو يحيى بن زكريا بن بيرام وقد تقدمت الإشارة إليه في هذه الرحلة غير مرة.

(2) هو المولى محمد زكريا أفندي بن بيرام الميلي الأنقراوي الحنفي الرومي، كان والده قاضي أنقره، وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية، وولد هو سنة 920هـ/1514م، وتلقى العلم على ايدي كبار علماء استانبول، وشارك في حملة السلطان سليمان القانوني على ايران سنة 940هـ/1535م، وسافر إلى القاهرة حيث أخذ عن علمائها، وحين عودته عُين مدرساً في بعض مدارس بروسه واستانبول، ومنها المدارس الثمان، والمدارس السليمانية، وعين قاضياً في حلب، وبروسه، استانبول، وعسكر الأناضول، وولي مشيخة الإسلام من 1000هـ/1592م واستمر فيها حتى وفاته سنة 1001هـ/1593م، وله مؤلفات في التفسير والفقه، ومن آثاره مدرستان في استانبول، نزل في إحداهما رحالتنا فضل الله على ما يذكر. خلاصة الأثر ج2 ص173 وقاموس الأعلام ج4 ص2416 وأحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيخ الإسلام ج1 ص573.

وصدق المقال، الذي نشأ في العفة والصيانة، ومشى على نهج الأمانة والديانة، فعظّم الله شأنه، ورفع بالعلم مكانه، وأعلى به منار الهداية، ورزق الأفاضل الانتفاع به في البداية والنهاية، من صار الفضل والتقى زاده، مولانا يحيى ابن المرحوم المولى عمر الشهير بمنقاري زاده[1]، من شاع حديث فضله واشتهر، وناهيك بحديث ابن عمر احيا الله به رُبع المدارس وعَمَر، وأسبل فضله على الأفضل وغمر. حضرتُ دروسه، واقتبست شموسه، ثم ابتهل كافة الأنام[2] بالدعاء الى الملك العلام، بأن يَمُن بعافية المولى شيخ الإسلام، فانه الفرد الكامل، وهذا دعاء للبرية شامل، فحين زال عنه الباس، حصل لي سرور ولجميع الناس، وسجدت لله تعالى شكراً، وحمدته على هذه النعمة الكبرى، فيعد ما تشرفت مُسْعَداً بلقياه، وأشرقت علي كالشموس أنوار مُحيّاه، أنشد بَناني مترجماً عن لساني. شعر[3]:

أيا سائلي عن كُنه علياه إنه ... لأعطي ما لم يُعطِه الثقلان

فمن يَرَه في منزلٍ، فكأنما رأى كل إنسان وكل مكان، ففزت بلثم عتَبة ساحته، وما راحتي إلاّ بتقبيل راحته، وقد عاملني بكمال التأهيل والتبجيل، حفظ الله تعالى ذاته العلية، فحمدته – سبحانه- حيث يسر لي الورود الى هذه البلدة [و35] في دولته السنيّة. شعر:

ولو لم يكن في الروم ما سرت نحوها ... بقلوب مشوق مستهام متيم

وقد سألني عن المسكن والأهل والوطن، وقال، أبقاه الله تعالى في مدى الأيام: قد كان الوالد المرحوم لما سار الى بيت الله الحرام، نزل في منزلكم بدمشق الشام،

---

(1) ترجم له في خلاصة الأثر ج4 ص477 فقال «يحيى بن عمر المنقاري الرومي شيخ الاسلام، درس على علماء الروم، ثم في مدارس القسطنطينية وولي قضاء مصر مرتين اولهما سنة 1064هـ/1652م ثم تولى قضاء مكة ودرس فيها ثم تولى قضاء القسطنطينية وقضاء عسكر الروم ايلي، ثم نقل إلى الافتاء، وعزل عنه بسبب مرض أصابه شلل في يده اليمنى، وتوفي سنة 1088هـ/1677م» وأنه ألف تآليف عديدة منها حاشية على تفسير البيضاوي وحواش على حاشية مير ابي الفتح على شرح آداب البحث، ورسالة في الكلام على قوله تعالى (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) سماها الاتباع في مسألة الاستماع.

(2) في الأصل: الامام.

(3) البيت للقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي، كما في ترجمته التي في معجم الأدباء.

والآن قد نزلت في مدرسته، وجوار منزله وفي محلته، لا برحت دولته مُخلّدة، وسعادته مؤبَّدة، ما تسلسلت الأدوار، وما دار الفلك الدوار، فسمَحت قريحتي بأبيات مهنئاً بها نفسي، ورقمتها في يومي وأمسي، وأهديتها لُمنيف بابه، صَرَف الله تعالى السوء عن شريف جنابه، وهي قولي. شعر:

بحمد الله قد زال السُقام وجاءت صحة فيها دوام

الخ. عدد 21

فلما شملها نظره الشريف، أظهر كمال الالتفات لعبد بابه المُنيف، وستر ما فيها من العيوب، جرياً على عادته النفيسة في جبر القلوب، لا برحت الآمال مستمطرة من سحاب كرمه، ونفوس الأماني عاكفة في رحاب حرمه، فطاب لي في هذه البلدة المقيل، وأويت بها الى ظل ظليل. شعر[1]:

رأيت بها ما يملأ العين قرة ويسلى عن الأوطان كل غريب

فلم أزَلْ أجوب في أطرافها، وأجول في كنافها. شعر[2]:

يَوما بحَزوَى ويوماً بالعقيق ويو ماً بالعُذيبِ ويوماً بالخُلَيْصاء

وقد أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وأنبتت من صنع الله وصنيعته ما أنبتت، فوفدَت تتبختر في ملابس عبقريّة، وتتأرج بأنفاس عنبريّة، وتزهو بطيب هوائها، وتسمو برونقها ولطف نباتها، واليَمُ قد مَدَّ لعناقها ساعديه، وأمواجه تقبل الأرض بين يديه، واستدار بها استدارة السوارِ بالزَّنَد، فشكرت يد النوى وجريت طلقا مع الهوى، وطفقت أفضُ بها ختوم الشهوات، وأجني قطوف اللذات، خصوصاً لما بها من المباني الهائلة، والأسواق الحافلة، والمساكن المتسعة، والربوع المبدعة، والقصور الشاهقة، والأماكن الفائقة [و154]، ما تحار فيها الأوهام، وتَكِلّ دون وصفها الأقلام، ولما بها من الفتوحات الظريفة، والمنتزهات اللطيفة، والرياض النضرة، والمروج الخضرة، والأزهار الزاهرة، والأشجار الباهرة، ما هو نزهة النفوس، ومَسَرَّة العبوس.

(1) البيت أورده الحريري في المقامة الحرامية.

(2) البيت لأبي محمد الخازن من شعراء الصاحب بن عباد، كما في معجم الأدباء.

[زيارة جامع أبي أيوب الأنصاري]

ثم توجهت على الفور بإلهام من علام الغيُوب، للتشرف بزيارة أعتاب الصحابي الجليل حضرة أبي أيوب، فانشرحت بزيارته منا القلوب، رضي الله تعالى عنه وعن بقية الأصحاب، والتابعين والأحباب. ولما تشرَّفتُ بزيارته، وتأملت مَهابَته وعظيم أبَّهته، لم استحضر عبارة أصفُ بها تلك العمارة[1]، غير أني أقول: إنه مكان يشبه الجنان، ويَحارُ فيه ناظرُ كل إنسان، نزهة النفس، وشمَّامة الأنس المهابة، جامع للمحاسن، وفائق بشرفه على تلك الأماكن، ذو قبة سَنيّة، وعمارة محمدية، وقصور مزخرفة، مُطلَّة مُشْرفة، مفتوحة الشرفات، مزخرفة الغرفات، مفروشة بالفرش البديعة، والبسط الرفيعة، والسُرَر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، وهي بلدة مستقلة، وعن إسلامبول غير منفصلة[2]، من أجل المتنزهات معدودة، وللخيرات مقصودة، فسَرَّحت طرف طرفي في رياضها، وأسرجت جواد خاطري في غياضها، وقد أزهر روضها المَريج، واهتزَّت وَرَبَت، وانبتت من كل زوج بهيج. شعر[3]:

قد أتينا الرياضَ لما تجلَّت	وتحَلَّت من الندى بجُمان
ورأينا خواتم الزهر لما	سقطت من أنامل الأغصان

وقد بان البان[4]، وزال الشتاء وبان، ورد الورد، وظهر لنا نقي الخد، وترنم العندليب بصوته الشجي مُعلنا، فصادف قلبا خاليا فتمكنّا، وقد تبسم النور عن

---

(1) استشهد الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه في أثناء حملة عسكرية اسلامية استهدفت فتح القسطنطينية سنة 52هـ، ودفن في أصل سورها، وأظهر السلطان محمد الفاتح هذه القبر بعد فتحه إياها، وأمر بانشاء جملة من المنشآت الفخمة عنده، تشتمل على مسجد جامع كبير ومدرسة ومطعم، وحمام ودار للضيافة، سنة 864هـ/1459م، ثم تخرب الجامع في أثناء زلزال ضرب المدينة سنة1180هـ/1766م، فأنشأ السلطان سليم الثالث جامعاً جديداً في مكانه هو القائم حالياً، فرغ من بنائه سنة1215هـ/ 1800م، وله قبة واسعة ومئذنتان، وبالطبع فإن وصف المؤلف هنا ينصرف على عمارته الإولى قبل تهدمها.

(2) يقع جامع أبو أيوب على ساحل خليج القرن الذهبي المتفرع من مضيق البسفور، وينسب إليه حي كبير من أحياء استانبول.

(3) البيتان لمحيي الدين ابن قرناص الحموي كما في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ بدر الدين عبد الرحيم العبادي العباسي الشافعي القاهري.

(4) أي ظهر البان، وهو ضرب من الشجر سَبْط القَوام، ليِّن.

ثغر الأقاح[1]، وقابله الشقيق بوجهه الوقاح، ورأيت بلابل تترنم، وحمائم بألحانها تتكلم، وقدودا تقد، وعيونا تهد، ولله دَرُ العلامة الشهاب[2] حيث يقول في نثره الذي يسحر العقول: فأسمت في رياضها سوام النظر، وأجلت في بابه الذهن قداح الفكر، فإذا جنة ملئت بالحور والولدان، [و155] وحُفَّت بالشهوات، أو حُفت بالمكاره للجنان[3]، من كل شادنٍ سَرَق لفتة الغزال، ولطفٍ حكى نسيم الصَّبا والشمال، إذا هبَّت ريح الشمول على تلك الشمائل، أخجلت بفعلها كل غصن مائل، ولا خوف الوشاة والعِدى، لتساقطت القُبل على ورد خَدِّه سقوط النَدى، جرى فيه ماء النعيم والهيف، وحار فيه وحار فيه الرائي فلو رآه سيل تلعة[4] لوقف، وفاق سنا وسناء، فلو حاكته حازت الشرف صيفاً وشتاءً، إذا جاده صَيِّب الَحَيا والخجل، أنبت ورداً يجنى بأنامل أهداب المُقل، في كتيبة حُسْنٍ إن غزا القلوب كمينها هزوا القدود وأرهفوا الأجفانا، وإن هجمت على الصبر عيونها فاطلب لنفسك إن قدَرَتَ أمانا . شعر:

يوسف حُسْن بدا فليس لنا	في حُبِّه حيلة من الحيَل
ما قدّ فيه الأكف من دبر	بل قُد فيه الفؤاد من قبل
إن قطع النسوة الأكُفً فقد	قطَّع قلبي بطرفه الكُحلُ

---

(1) الأقاح: نبت طيب الريح له ورق أبيض.

(2) هو شهاب الدين محمود بن محمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الأديب المصنف، ولد في القاهرة في نحو سنة 975هـ/1567م، وأخذ عن علمائها، ثم رحل غلى الحرمين شابا حيث أخذ عن بعض علمائها، ورحل إلى القسطنطينية فدرس الرياضيات فيها، وقلد القضاء في بلاد الروم ايلي، ثم في سلانيك، وأعطي بعدها قضاء مصر وعزل، فرجع إلى الروم ومر بدمشق، ودخل حلب، ثم نفي منها- لخلاف مع بعض علمائها- إلى مصر، وأعطي قضاء فيها، فاستقر بمصر يؤلف حتى وفاته سنة 1069هـ/1658م. له مؤلفات جمة، منها ريحانة الألبا، وطراز المجالس، وشفاء الغليل. وترجم لنفسه في ريحانة الألبا ص272-309 وينظر خلاصة الأثر ج1 ص332-343

(3) هذه اشارة إلى الحديث الشريف (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) الذي أخرجه مسلم والبخاري.

(4) سيل تلعة: الماء المنحدر من علو.

ويستعير الروض منه خداً، استعارة مُرشحة بالندى، والسيف منه فتكاً استعارة مجرّدة للردى، وإن وراء تلك الظِباء العين، كراماً كاتبين، غاليتهم المِداد[1]، وعنبر نشرهم يفوح على جمر الذكاء الوقاد، وإذا راشوا بإنسان سهام البراعة، أصابت قلب البلاغة والبراعة، وإذا افتخرت الرماح السَّمْهَرية[2]، انتسبت الى أقلامهم فكانت خطيّة[3]، وفرسانهم أحلاس الجياد[4]، وغصون أباها[5] إذا حمى وطيس الجِلاد، كم ولَجُوا لجَج الغَمَرات على زوارق سروج السوابح[6]، التي هي قيد الأوابد ما بين سانح أو بارح[7]، سَيْلٌ ينحط من صَبَب سقيه العنان[8]، وقور اللبب[9] إن صعد فمستجاب دعاء، وإن هبط فمُبرم قضاء يسبق لمح البصر، ويكِلّ دونه النظر. شعر[10]:

ولما لم يسابقهن شيء   من الحيوان سابقن الظلالا

بل كما قيل. شعر[11]:

ويكاد يخرج سرعة من ظلّه   لو كان يرغب في فراق رفيق

أسُود غاب الرّماح، بدور غمام القتام[12]، وبروق الصفّاح، ما ترَفَّع بطلٌ عن لثم أعتابهم، إلاّ بادر رأيه [و156] لتقبيل ترابهم، نُبلهم رُسُل المَنون، وبيضهم وسُمُرهم مفاتيح الحصون، انتهى ما قاله في مقامته ببليغ عبارته.

---

(1) الغالية: العطر الفائق.

(2) السمهري: الرمحُ الصليبُ العود.

(3) الخطي من الرماح: المنسوب إلى (الخط)، وهو مرفأ في (البحرين).

(4) الحلس: كساء رقيق يكون تحت البرذعة وجمعه أحلاس.

(5) كذا في الأصل.

(6) السوابح: الخيل المسرعة.

(7) السارح: المنتقل والبارح: الثابت.

(8) العَنان: السحاب، وقد تقرأ سفيه العنان، أي الخفيف الحركة.

(9) وقور اللبب: الوقور: المتزن، واللبب: القلادة في وسط الصدر.

(10) البيت لأبي العلاء المعري.

(11) البيت لعبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس أبو محمد الصقلي كما في الوافي بالوفيات للصفدي.

(12) القتام: الغبار.

وبها من كل شاعر مُفلَّق بأعلى رُتب الفصاحة والبلاغة، ينطق ذوو قرائح وقادة، وفطَن نقادة، وتخيُّلات تقف عندها الفحول، ومضامين تسحر العقول، ما يعجز الوصف عن وصفه، ويَكل البَنان عن بيانه وكشفه، ومن بها من العلماء الراسخين، والفضلاء البارعين، أولو القدر الشامخ، والمجد الباذخ، من يُشار اليهم في التحقيق بالبَنان، ويَكل عن وصف ذاتهم قلم التدقيق والتبيان، من ما يفخر الدهر بمثلهم، ويُعَوِّل كل فاضل على عقلهم ونقلهم.



جامع أبو أيوب الأنصاري

[لقاء العلماء]

ولنُشر إلى زبدة من تشرفنا بحضرته، ممن سبقني الوالد بخدمته، من قضاة العساكر الكرام، ومواليها الفخام، فأولهم وأولاهم، وأعلمهم وأعلاهم، صدر صدورها، وبدر بدورها، من لا يأوي الفخار إلاّ إلى بابه، ولا يتعلق المجد إلاّ بأطنابه، المولى الأعظم، والعبقري الأفخم البحر ابن البحر ابن البحر، والصدر ابن الصدر ابن الصدر، و البدر ابن البدر ابن البدر، وأجل مفاخر الدهر. شعر[1]:

مَولى إذا افتخرَ الزمان فأنه إنسانُ مقلته وبيتُ قصيده

---

(1) البيت لصفي الدين الحلي.

حضرة المولى الهُمام، ابو سعيد محمد ابن شيخ الإسلام قطب الأنام، المولى المرحوم أسعد[1] ابن العالم الأعلم، والخواجه الأكرم شيخ الإسلام والمسلمين، سعد الملة والدنيا والدين[2]، أدام الله تعالى سَعده، وحَرَس بعين العناية مجده، وذو المحل الأسمى المطابق منه الاسم للمُسَمّى، من آيات الثناء عليه بألسُن الفضلاء تتلى، أبو الفضل محمود الموالي اسماً وفعلاً، الشهير نَسَبُه الخطير بقره جلبي زاده[3]، الحائز طارف المجد وتلاده. شعر[4]:

فتىً ناديه مكرمةٌ وفخرٌ لأرباب المفاخر والعَلاء

لا زال كاسمه محموداً، ولا بَرِح الدهر به مسعوداً، وجناب أحمد الموالي، وحَسَنَة الأيام والليالي، عقد الدهر الفريد، عالم العالم المُبدى له أسرار العلوم، وهو المعيد المُجمَع [و 157] على تفرّدِه في العلم والدين، والمُتفق على تقيُدَهِ بما فيه

---

(1) ولد سنة 1003هـ/1594م من أسرة تولى فيها أبوه وعمه وجده مشيخة الإسلام، وتولى القضاء في دمشق سنة 1030هـ/1620م، فكان من أحسن قضاتها سيرة، ولكنه عزل لأسباب سياسية، وأعيد ليتولى القضاء في بروسه، وحي غلطة باستانبول، وفي استانبول نفسها، وتولى بعد ذلك قضاء عسكر أناطولي سنة 1038هـ/1629م، وتولى مشيخة الإسلام ثلاث مرات بين سنة 1053هـ/1644م وسنة 1065هـ/1655م. خلاصة الأثر ج1 ص127 وسامي: قاموس الأعلام ج1 ص723 وأحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيخ الإسلام ج1 ص485.

(2) ذكره هنا بما يفهم منه أنه كان حياً، مع أن الذي في ترجمته أنه توفي سنة 1008هـ/ 1599م . خلاصة الأثر ج3 ص418 وقاموس الأعلام ج4 ص2568.

(3) ترجم المحبي في ص322 لمن اسمه (محمود بن محمد أبو الفضل قاضي العسكر الشهير بقره جلبي زاده) اثنى عليه وقال انه «من بيت قديم كبير بين الأنام» كان والده قاضي العسكر، تدرج في المناصب حتى وصل الى المدرسة السليمانية، وولي قضاء ينكي شهر، ثم قضاء مكة، وقدم الى دمشق في سنة 1034هـ/1624م ونقل غلى قضائها «وكان في قضائه معتدلا ملاطفا وشاهد منه فضلاء دمشق رعاية واقبالا» ثم نقل إلى قضاء مصر، ثم ولي قضاء قسطنطينية في 1044هـ/1634م ثم ولي قضاء العسكر في اناطولي سنة 1045 هـ/1635م ثم عزل، ثم ولي قضاء روم ايلي سنة 1057هـ/1647م، توفي سنة 1063هـ/1652م ودفن في المدرسة التي أنشأها في القسطنطينية ، وأثنى عليه بقوله «كان ذا حلم وأناة وتواضع لا يعرف الغضب محبا بالطبع لأبناء العرب، وكان ينظم الشعر العربي».

(4) البيت للبحتري.

صلاح الإسلام والمسلمين، والقائم بقوام أمور الجمهور، القاضي حالاً بعسكر روم ايلي المعمور، وبَرِح لواء فضله على كافة الفضلاء منشور، والماجد الأوحد، والأصيل الأمجد، من سما في سماء المجد علماً، ابن شيخ الإسلام، مفتي فِرَق الأنام، المرحوم محمد الشهير بجوي زاده[1]، رزقه الله تعالى الحُسنى وزيادة، والمولى علامة الروم، أوحدها المُبَرز في فنون العلوم، سعد التحقيق، وسيد التدقيق، الذي اجتمعت على علمه الأيام بالانفراد، وأجمع أهل الفضل بأنه الآن في الوجود واحد الآحاد، من موضعه من العلماء الأعيان، موضع الواسطة من عقد الجُمان، صاحب السيرة العُمَرية، وناصر الشريعة الشريفة النبوية، من فاق القاضي الفاضل، أستاذ المخاديم والأفاضل، المشهور في الآفاق بالفضل الجسيم، المولى الهُمام عبد الرحيم القاضي يومئذ بعسكر أناطولى المعمورة[2]، لا زالت قضية عدله نافذة في العساكر المنصورة، ولا بَرِحت بعدالته معمورة، وبفضائله وفواضله مغمورة.

---

(1) هو محمد بن الياس الحنفي الرومي، المعروف بجوي زاده،. ولي القضاء بمصر، فقضاء العسكر في الأناضول،. ثم عين مفتيا بالقسطنطينية. وأنكر على الشيخ محيي الدين ابن العربي بعض أقواله، فعزله السلطان من الافتاء، فاشتغل بالتدريس. وأعيد إلى القضاء في عساكر الروم ايلي، ولبث يتولاه حتى وفاته سنة 954هـ / 1547م. له فتاوى مجموعة. شذرات الذهب ج8 ص 303 والشقائق النعمانية، بهامش ابن خلكان ج1 ص495 وأحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيخ الإسلام ج1 ص468.

(2) ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ج3 ص411 نه فقال انه «عبد الرحيم بن محمد مفتي الدولة العثمانية، المحقق الشهير، أحد علماء الزمان، أصله من بلدة أدنه، رحل إلى بلاد الأكراد وقرأ بها العلوم الحكمية والرياضية والطبيعية والإلهية على المولى أحمد المنجلي والمولى حسين الخلخالي والمولى محمد أمين بن صدر الدين الشرواني وفاق في المعرفة والاتقان» ونقل عن أبيه، وهو مؤلف هذه الرحلة، أنه «أخذ عنه الجم الغفير منهم المحقق الكبير المولى مصطفى البولوي والعلامة المتقن يحيى المنقاري المفتيان ووصل إلى المدرسة السليمانية وولي قضاء ينكي شهر ثم تقاعد عن القضاء واختار التدريس فدرس في مدرسة السلطان احمد ثم ولي قضاء القسطنطينية ونقل منها الى قضاء عسكر بروم ايلي سنة 1055هـ/1645م وصار مفتي الدولة في سنة 1057هـ/1647م وهو الذي افتى بقتل السلطان ابراهيم، وعزل عن الفتوى وأمر بالتوجه إلى الحج فحج عن طريق مصر، وحينما عاد من الطريق الشامي نزل بالمدرسة السليمانية، ووجه إليه قضاء القدس، ثم قضاء بلغراد وافتاؤها، فسافر اليها وأقام إلى أن توفي سنة 1062هـ/1651م». وينظر أيضاً: سامي: قاموس الأعلام ج4 ص3074 وأحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيخ الإسلام ج1 ص495.

وقد أنعم هذا المولى على عبده بالمدرسة الأولى، وذلك بخمسة وعشرين من العثماني[1]، على حسب القانون العثماني، إكراماً لحضرة المولى شيخ الاسلام، ولأولاد العلماء الكرام، وإن كان ذلك دون أمثالي، لما جرت عليه العادة من الاحسان، إبتداء بالأربعين على المخاديم أولاد الموالي، وقد ناسَبَتْ الإضافة الاسم، ويقال: إن لها الآن الاسم والرسم، وهي مدرسة المرحوم نور الله أفندي ببروسة المحروسة، وقد كان بها سَلفي فيض الله[2]، وقد تمت مدته العُرفيّة، ثم خلفه العبد الفقير إلى مولاه فضل الله بن محب الله، فتعجبت من هذا الإتفاق، حيث وقع الأمر عفواً على هذا الوفاق، فاستبشرت من عنوان الكتاب على بلوغ الآمال، حيث صدر لي مثل ذلك [و158] في براعة الاستهلال، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم أنعم على المولى المذكور ثانياً ترقيةً بثلاثين عثمانياً بمدرسة المرحوم رُستم باشا[3]، وهي أيضاً ببروسة المحروسة، لا زالت ذاته بالفضائل مأنوسة، ومن القوانين العثمانية إنهم يُسَمُّون مدارس القسطنطينية وأدرنه وبروسه الإيج إيل[4]، وغيرها من البلاد الكنار[5]، وذلك اصطلاحاً جرى بينهم من القدِم، كتعليق الحكم على المشتق ليؤذن بعلية ما عليه المدار.

---

(1) هو الدرهم العثماني، ويطلق على الآقجة، وهذه العملة من الفضة تزن في عهد الرحلة نحو 6 قراريط منها، أي ما يعادل الغرام والربع، وقيل بل كانت تبلغ غراماً ونصف الغرام. ينظر هنتس: المكاييل والأوزان الاسلامية، عمان 1970، ص10 و14 وعباس الغزاوي: النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد 1958، ص 142.

(2) ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ج3 ص288 فقال انه فيض الله بن أحمد المعروف بابن القاف الرومي قاضي العسكر ولي حلب ثم عزل ثم ولي قضاء دمشق سنة 999 ثم عزل سافر إلى الروم ثم ولي قضاء غلطة سنة 1002هـ/1593م ترقى في المناصب حتى ولي قضاء العسكرين، ولد 950هـ/1543م وتوفي 1020هـ/1611م. وكان شاعرا أديبا بليغا. وينظر أحمد صدقي شقيرات: تاريخ مؤسسة شيخ الإسلام ج1 ص573.

(3) الصدر الأعظم رستم باشا، زوج ابنة السلطان سليمان القانوني، أنشأ عدداً من الجوامع في مدن عثمانية مختلفة، منها الجامع الذي ينوه به المؤلف هنا في بروسه، توفي سنة 969هـ/ 1561هـ.

(4) مصطلح تركي يعني البلاد الداخلية، أو إقليم الداخل. وهو أيضاً اسم لواء في ولاية قرمان.

(5) الكنارلفظ تركي بمعني: الساحل والشاطئ.

ثم تشرفت بالمولى النحرير، صاحب الفضل الغزير، من طَوْد مجده نحو السماء شامخ، وطول فضله في العلاء باذخ، الذي أخذ بأطراف الفخار، وأضحى في الورى عالي المنار، جامع الفضائل والعلوم، وحيد الدهر وعزيز الروم، المعروف بقره جالى زاده بين البريّة، القاضي سابقاً بمحروسة القسطنطينية، بلغه الله تعالى مرامه، وأسبل عليه إنعامه، وبمعدن الخيرات، وموطن الفضائل والكمالات، بحر المكارم، وبدر المراحم. شعر[1]:

إنما حاتم وأوس وكعب مَثَلٌ في الندى له مضروب

من جُبلت طباع الأنام على محبة ذاته الموصوفة بالكمال، المعروفة بمحاسن الخلال، فوق ماله من المساعي الخيرية، والسيرة الحَسَنة المرضية، والهمَّة العليّة، والفضائل العلمية والعملية، إنسان عين الموالي الأعيان، كنز الجود والإحسان، وليُّ نعمتي، وغارس غصن رقتي، المولى شعبان القاضي سابقاً بمصر القاهرة[2]، نسأل الله سبحانه أن يكافئ أياديه الغامرة، التي عن جزائها أيدينا قاصرة، ويبلغه ما يتمناه من بحار فضل رَبِّه الزاخرة، ويطيل بقاءه ويَحرسه من كل سوء وباس، ويَمُن بمَكثه في الأرض لينفع الناس، وبفرع الأصل العزيز المُعترف له في ميدان البلاغة، فرسان البراعة بالسبق والتَبريز، من فاق من في الآفاق بفضله ومجده، ولم يسمح الدهر الضنين بمُدانيه فضلاً عن نِدِّه، عريق الطَرَفين، وكريم الجدَّين [و159]. شعر[3]:

له نبعة فرعُها في السماء وفي هامة الحوت أعراقها

من انعقدت على فضائله الخناصر، وشهد بكمال علومه الأكابر والأصاغر، تاج المَفاخر، وحُجّة المُفاخِر، ودليله كم ترك الأول للآخر، البديع[4] الهِمَم، الذكي

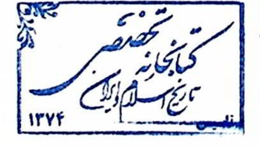
---

(1) هو لأبي سعيد الرستمي محمد بن محمد ، كما في يتيمة الدهر للثعالبي.

(2) هو شعبان بن ولي الدين البوسنوي النوسيلي نزيل قسطنطينية قاضي العساكر. ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ج2 ص226 فقال انه كان فاضلا كاملا واسع الصدر مبسوط الراحة، قدم من بلده (نوسيل) قرب البوسنة، ودرس في المدرسة السليمانية باستانبول ثم ولى القسطنطينية ثم صار قاضي العسكر بأناطولي في سنة 1061هـ/1650م ثم صار صدرا بروم ايلي في سنة 1066هـ/1655م وعزل وتوفي سنة 1077هـ/1666م.

(3) البيت لأبي تمام.

(4) كتب في الأصل (البعيد) ثم صححت في الهامش بالخط نفسه.



الشيَم، من أصبح في العلم والمجد كالمُفرَد العَلم، المولى الهُمام، محمد بهائي القاضي سابقاً بدمشق الشام[1]، أمتع الله تعالى الأنام بطول بقائه، وأسبل على الأيام ظلال بهائه، ولا زال قطب فلك مجده دائراً على مَدار المُراد، ومركز سَعده راسخ الأوتاد، تشرفت يوما بناديه في الحَصار[2]، وكان المجلس خالياً من الأغيار، فاستنشدني من الأشعار المنسوبة للمرحوم شيخي العلامة عبد الرحمن العمادي[3] مفتي دمشق وعالم تلك الديار، فلم استحضِر سوى هذه الأبيات حالة الإنشاد، لمناسبة ذلك المجلس والناد، وهي قوله -عليه رحمة الله تعالى- مدى الآباد. شعر:

قد شاب فُودي حين ثاب فؤادي	فكأنما كانا على ميعاد
حُسن الخواتم أرتجي من مُحسِن	قدمن لي قدماً بحسن مياد
وعمادي التوحيد فهو وسيلتي	في نَيل ما أرجوه عند معادي
إن قيل إني سفينة تجري بلا	ماءٍ وليس لأهلها من زاد
قل رحمة الرحمن من أنا عبده	تسع العباد فمن هو ابن عماد

وبصاحب النسب الباهي الباهر، والحسب الزاهي الزاهر، طراز حُلة الأشراف،

---

(1) ثم تولى منصب شيخ الإسلام، بعد عبد الرحيم أفندي. ينظر شقيرات: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام ج1 ص502.

(2) تقدم معناها.

(3) هو شيخ المؤلف عبد الرحمن بن محمد عماد الدين بن محمد بن محمد بن محمد بن عماد الدين العمادي الحنفي الدمشقي من أفاضل علماء الشام في عصره، ولد سنة 978هـ/1570م واخذ العلم على كبار عصره، منهم محب الدين القاضي جد المؤلف. حج سنة 1014هـ/1605م وأخذ في المدينة عن علمائها، ورجع إلى دمشق ليتفرغ للاقراء والإفادة وولي تدريس المدرسة الشبلية سنة 1017هـ/1608م ثم ولي بعدها المدرسة السليمية في سنة 1023 ثم المدرسة السليمانية والافتاء بالشام سنة 1031هـ/1621م وتوجه إلى الحج سنة 1033هـ/1623م وتوفي سنة 1051هـ/1641م بدمشق، وأثنى عليه المحبي وقال أن «أشعاره كثيرة جدا» وانه «كان كثير الفضل جم الفائدة.. ألف حاشية على تفسير الكشاف.. المستطاع من الزاد.. كتاب الهدية في عبادات الفقه والروضة الريا فيمن دفن بداريا، وله رسائل كثيرة في سائر الفنون ومنشآت وأشعار». خلاصة الأثر ج3 ص380 والزركلي: الأعلام ج3 ص322 ومحمد مطيع ونزار أباظة: علماء دمشق في القرن الحادي عشر، دمشق 2000، ج1 ص530.

وعماد مباني عبد مناف سلالة العنصر[1] النبوي، ونخبة المهد المصطفوي. شعر[2]:

نسب تحسبُ العلا بحُلاه قلدتها نجومها الجوزاء

صاحب الذات القدسية، وساحب أذيال الفضائل العلمية السنية، عين الزمان، والجوهرة اليتيمة في هذا الأوان، من جمع كرم النسب والحسب، الى شرف الفضل والأدب، وحسن الشيمة والأخلاق، إلى طِيْب الأرومة والأعراق، ذو الجناب المنيف، المولي شيخ محمد قدسي زاده، القاضي سابقاً بالقدس الشريف[3]، [و159]لا بَرِحَت شموس إقباله طالعة، وبدور سعادته زاهرة، وبالأمين على خزانة الفتاوى المُميِّز فضلاً بين المخاديم لدى الدعاوى، واسطة عقد السادة الموالي، وبهجة الأيام والليالي، حلاّل مشكلات الأيام، مَرجع الخاص والعام، صاحب السعي المشكور، والرأي الذي هو كالصمصامة مشهور مالك زمام الأمور، المُعَوَّل عليه عند الجمهور صادق الاقوال والأفعال الجامع للفضل والإفضال، الفرد الكامل عند مجمع الطلاب، والكبير الحاوي لحُسن الآداب. من أضحت إليه عيون المذاهب ناظرة، وثمرة الخلاف في روضته ناضرة، صاحب الفضائل البديعة، نور الهداية وصدر الشريعة، كنز العناية، والسِّراج الوهّاج لطالب الهداية، العالم العامل ذخيرة الأفاضل، علامة دهره، وفهّامة عصره، العديم النظير، مَلاذ الكبير والصغير، ثابت ركن الولا، وصافي شرب المودة والوفا، مولاي وذخري، ومؤسس فخري، الجناب المولوي، محمد البُروسَوي، المدرس بمدرسة قلندَرخانه[4]، أعلى الله شأنه، وأفاض على الأفاضل فضله وإحسانه، ولا زالت فواضله أطواقاً في الأعناق، وأنامله مفاتيح الأرزاق.

---

(1) في الأصل (عنصر).

(2) البيت من الألفية للبوصيري.

(3) هو محمد بن جمال الدين بن أحمد الملقب بحافظ الدين القدسي الحنفي، تلقى العلم في القدس، وأظهر نباهة وتفوقاً، فسافر إلى استانبول حيث لازم شيخ الإسلام محمد بن سعد الدين، وولي بعدها القضاء في بعض مدن مصر، آخرها المنصورة، ثم صار قاضياً في القدس، ومدرساً في المدرسة العثمانية بها، ثم ولي قضاء طرابلس فبوسنه وصوفية، وتوفي سنة 1055هـ/1645م. خلاصة الأثر ج3 ص413.

(4) عرف القلندريون بجهلهم، والغالب أن هذه المدرسة نسبت إلى تكية لهم هناك.

ولما تشرَّفت بعلي جنابه، تلقاني ببشره وآنسني بملاطفة خطابه، وذلك أحيا لمراسم الوِّد، وتجديداً لما بيني وبينه من قديم العهد، فإنه لما كان في خدمة المولى الأستاذ حين التوجه الى السفر المظفر لبغداد[1]، وكان قبل ذلك بمدة حصل بينه وبين الوالد الماجد بعض مكاتبات، وهي لحفظ المودّة من أحسن الحسنات، ولو شاء الله تعالى لنلت المُراد بسوقه وسعيه، وظفرت بما قدر لي من الخروج قبل الدخول بحسن رأيه، ولكن الحظ كان غير قابل في الانقلاب، وعلى الحظ لا عليه عتاب.

والمولى الذي إن صال في ميدان العام اقتنص شوارد أبكارها، أو جال في حدائق المفهوم [و161] جنى من دقائقها أفخر ثمارها، المالك لمفتاح البلاغة والفصاحة، والمتسامي بتلخيصه لمطول اللفظ على أهل الملاحة، روض المعارف، بحر اللطائف، كنز الدقائق، وبحرها العذب الرائق، أعجوبة الزمان، ونادرة الأوان، المولى محمد المشهور في العرب والعجم، القاضي سابقاً بفلبَه[2]، دام راتعاً في رياض الفضل والأدب. والفاتح من العلوم كل باب مغلق مقفل، الجامع بين فضيلتي العلم والعمل، افتخار العلماء والمدرسين الكرام، مختار العلماء الأعلام، عمدة مشايخ الاسلام، قدوة الخاص والعام، خلاصة المحققين، زبدة المدققين، المعروف بالدين، الموصوف بالعقل الرصين، صاحب الفضائل والمآثر، مولانا عبد القادر المدرس بإحدى المدارس الثمان[3]، لا برح رفيع القدر والشان.

وزبدة المدرسين نخبة الفضلاء البارعين، جامع شتات المعارف والفضائل، الى محاسن الشيمة ولطف الشمائل، اللطيف الذات الكامل الأدوات، ذو الأخلاق العذبة المَذاق، والإخلاص والصفا، والصدق والوفا، الحَسَن السيرة، السالم السريرة، مدرس مدرسة المرحوم المنلا الكوراني[4] والمنلا محمد البُوسنوي، لا برح مبلغ الأماني.

---

(1) يريد حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد من أيدي الصفويين سنة 1048هـ/ 1638م..

(2) هي Filbe مركز لواء بالاسم نفسه في ولاية أدرنه، في القسم الأوربي من الدولة العثمانية، وقد فتحها العثمانيون سنة 762م/ 1360م.

(3) وتسمى بمدارس الصحن، وهي المدارس الثمان المبنية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح حول جامعه المعروف بالفاتح، وثمة ثماني مدارس أخرى تقع خلف المدارس الثمان المذكورة. وهذه المدارس جزء من أعمال خيرية أخرى، منها مطعم ومستشفى تعليمي وغير ذلك.

(4) تنسب هذه المدرسة إلى المولى أحمد بن اسماعيل الكوراني وكان عالماً فقيها مفسرا محدثا بارعاً في العلوم، ولد سنة 813هـ/ 1410م وعاش في مصر، وذاع صيت فضله وعلمه، ثم

والبارع الكامل، حاوي الفضائل والفواضل، ذو الفكر[1] الصائب، والفهم الثاقب، مستجمع صفات الكمال، وحائز رُتَب الفضل والأفضال، فخر المدرسين الأعيان، درة أهل العرفان، الفائق على الأقران، عين الفضلاء الذين عليهم لوائح السعود، لائحة زهر حديقة المعارف، الطيب الرائحة النامي الفضل، مولانا مصطفى البُولوي الأصل[2]، المُدرّس بالمدرسة السُكبانيّة[3] بلّغَه الله تعالى المراتب العلية.

وبمن خلقه كنسيم الأسحار، على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام وأبهج من نور البدر في الظلام، غُرّة وجه الأدب، صاحب [و162] الحسب والنسب، الأديب الألمعي اللبيب، ذي الحسب الصميم الظاهر، والنسب الكريم الظاهر، والكمال الباهي الباهر، والجمال الزاهي، من خلوص في محبته صار لي طبعاً وعادة، السيد الشريف عبد الله[4] ابن المولى الهُمام السيد سيف الله المعروف

قصد الدولة العثمانية، فتولى تعليم السلطان محمد قبل توليه السلطنة، ولما تولاها منحه تدريس هذه المدرسة، التي هي في الأصل من انشاء جده السلطان مراد، وقلده منصب الفتوى ومهام أخرى، صنف مؤلفات عدة منها: 1-غاية الأماني في تفسير السبع المثاني وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم 2- الكوثر الجاري في رياض البخاري وهو كتاب لطيف أجاد فيه شرح أحاديث البخاري في عدة مجلدات 3- الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع وهو كتاب للسبكي في الأصول 4- شرح الكافية لأبن الحاجب في النحو 5- الشافية في علم العروض والقافية وقد أهدى كتابه الشعري هذا المتضمن ستمائة بيت للسلطان محمد الفاتح 6- حواشي على شرح الجعبري للشاطبية 7- فرائد الدرر في نصيحة الملوك . توفي عام 893 هـ /1489 م ينظر طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية ص56 ومحمد علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، مصر 1348 هـ والزركلي: الأعلام.

(1) في الأصل (الفك).

(2) هو مصطفى بن أحمد بن مصطفى البولوي، مفتي الدولة العثمانية، ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ج4 ص371 فقال أنه تولى التدريس في بعض المدارس ثم صار مفتش الأوقاف ثم تولى قضاء بروسه ثم ترقى حتى تولى قضاء العسكرين ثم الافتاء ثم اعطي قضاء الفيوم «فاقام بمصر معظما يقري ويدرس ببيته وللناس عليه اقبال عظيم لتواضعه ولطف معاملته» وله مؤلفات منها شرح على الكنز وحواش على شرح أشكال التأسيس. توفي سنة 1090هـ/1679م..

(3) السكبانية فرقة من المشاة الهدافين بالبنادق في القوات العثمانية.

(4) كان أديباً شاعراً، ولد سنة 1030هـ/1620م، ولازم شيخ الإسلام يحيى بن زكريا، وولي التدريس في عدد من مدارس استانبول، حتى ولي تدريس المدرسة السليمانية ودار الحديث

بسعدي زاده، لا برح سعده مستقيم المسير، وبدر مجده في كمال التدوير، دارت بيني وبينه كؤوس محاورات، في عدة مجالس وأوقات، بعد ما وقفت على حُبّه فؤادي، ورتبت في مدحه ديوان مَحَبّتي ووداي، فمما استنشده مني واستملاه عني هذان البيتان، وهما للمرحوم شيخي وأستاذي عبد الرحمن العمادي علامة الزمان. شعر:

تركتنا لواحظ الترك قتلى ضيقها أوسع القلوب جراحا

حين شحّت بالوَصْل سَحّت جفوني ليت هذا السَّماح يُعدى الشحاحا

ثم أنشدته ثانياً للمرحوم الجد، ونحن من لذيذ المصاحبة بمزج الهزل بالجد. شعر:

حكت قامتى لاماً وقامة مُنيتى حكت ألفاً للوصل قلت مسائلاً

إذا اجتمعت لامى مع الألف التى حكتك قواماً ما يصير فقال: لا

دعاني مرة الى المكان المعروف بالحَصار[1]، ولا عيب فيه سوى أن أيامه قصار، فلم يَرَ الغم للدخول سبيلاً، وولى حقيراً ذليلا، ثم بعد ذلك بأيام دعاه للتنزه بكاغد خانه[2]، باعث الشوق والغرام، فعطف عنان البراعة ثانياً، وكتب إليَّ داعيا ثانياً، عطفاً على ما سبق لخدمنا الكريمة، من الرعاية للحقوق السابقة القديمة، وذلك حين قدم الشام مع والده الهمام، متوجها الى الوادي المقدس، والحرم الأقدس، حرس الله تعالى ذاته، وأطال بالسرور حياته، فركبت متن السفينة مع جنابه، وصحبتنا زمرة لطيفة من أخصّاء أحبابه وأصحابه. شعر:

من كل أزهر بادي البشر غُرَّته يلوح في مُدْلهِمَّات دَجَت وضحى

[164و]

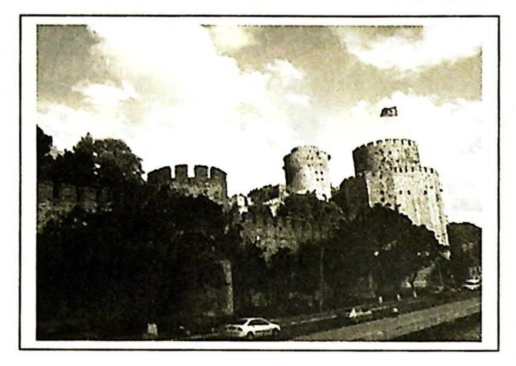
فيها، وولي القضاء في سلانيك سنة 1072هـ/1661م، فبروسه، فأزمير، فمكة، وورد دمشق سنة 1078هـ/ 1667م وحج حيث توفي في مكة في تلك السنة؛ وصفه المحبي بأنه «حسن النظم والنثر في الألسنة الثلاثة، عارفاً بنقد الشعر وأساليبه»، وقال «كان بينه وبين والدي المرحوم[وهو مؤلف هذه الرحلة] مودة سالفة وصحبة قديمة». ويظهر أن نباهته الأدبية تجلت للمؤلف وهو شاب، فكتب ما كتب هنا في الثناء عليه. خلاصة الأثر ج3 ص44.

(1) يريد قلعة (روميلي حصار) تلك القلعة الشامخة بأسوارها العالية على مضيق البسفور، وكان قد أنشأها السلطان محمد الفاتح تمهيداً لفتحه القسطنطينية سنة 1453م، وتعد من أهم معالم هذه المدينة.

(2) مصنع الورق.

حيث الصِّبا قشيب، وغصن الحداثة رطيب، أطارح كلاً من تلك العصابة، وأتذاكر معهم في ديوان الصبابة. شعر:

وحيث حمى روض وسكانه ظبى وحَصباؤه دُرٌ وبهاؤه درُ



فسارت بنا ونحن بالأنس والصفا، والدهر قد كان وعد بذلك فوفى، فسنح لي ما ذكره يوما [بـ]القصر، في مطارحات بني العصر، للعلامة بالدنيا، ومفتي بلادنا، العلامة الطالوي درويش أفندي أبو المعالي[1]، حَسَنَة الأيام والليالي، فقد أفصح المقال بنظم واقعه الحال، وهي طبق ما قال. شعر:

---

(1) هو درويش بن محمد بن أحمد وقيل محمد أبو المعالي الطالوي الأرتقي الدمشقي الحنفي.قال المحبي في خلاصة الأثر ج2 ص149 ما خلاصته أنه كان ماهرا في كل فن من الفنون مفرط الذكاء فصيح العبارة منشئا بليغا حسن التصرف في النظم والنثر له كتاب سانحات دمى القصر جمع فيها اشعاره وترسلاته، وأن ووالده رومي المحتد قدم إلى دمشق صحبة السلطان سليم. ضمن بعض الاقطاعات، ولزم صنعة السروج، ثم انه طلب العلم، وتلقاه على أيدي العلماء في مدينته والوافدين إليها، ثم قرأ الفقه، وحضر مجالس التفسير.ولي تدريس المدرسة الخاتونية داخل دمشق وسافر إلى الروم حيث تولى عدة مدارس ثم عاد إلى دمشق سنة 997هـ/1588م وصحب بها جماعة. ثم انتقل إلى القاهرة واستقر بها مدة وأخذ عن علمائها، ثم سافر إلى الروم مرة أخرى وولي مدارس عديدة هناك ، ثم ولي تدريس المدرسة السليمانية بدمشق والافتاء حتى توفي سنة 1014هـ/1605م ولد سنة 950هـ/1543م. . وذكر الغزي أنه توفي سنة 1013هـ/1604م، وأنه بدأ حياته على «طريقة أهله يلبس لباس الجند»،لطف السمر وقطف الثمر ج2 ص439 واذ ذكر المحبي أنه كانت له اقطاعات، فيكون ممن أقطع أرضاً على طريقة الاقطاع العثماني المسمى (تيمار).

سِرنا بإسلامبول نبغي نزهة دَعَت النفوس إلى الفضاء المطلقِ

ثم امتطينا البحر في نُوحيّة تجري بنا في لُج مَوج مُطبق

نشرت قوادم طائر ومَشت بنا فيه كنسر في السماء مُحَلِّق

يا رب عُقاب الجو إذ طارت بمثال قادمتي جناح العُقعُق

فكأنها ماز ونحن بمتنها تهوى بنا طوراً وطوراً ترتقي

حتى رَسَت في شاطئ ورَمَت بنا تلك المذانب وسط روض مونِق

فإذا بأرض في الصفاء كعسجدٍ والمندل الشحري في المتنشَّق

حُفّت بسِر وكالقيان تلفَّعَت خُضر المَلا وكشفنَ عن ساقٍ نقي

نصبت كأمثال الزبرجد داره في صحن تبِر بالزمرد مُحدِق

وكأنها وقفت لرَدِّ تحية منا على قدم بطرف مُطرق

في روضة بات السماك بظلها والنجم باكرها بغيثٍ مُغدَق

وشقائق النعمان وسط أقاحها مثل العقيق بصحن دُرٍّ مشرق

وغدا الهزار بها يحاكي صوته ألحان قُمْري وسَجع مُطَوّق

والغيم في وسط السماء كأنه قطع اللجين على بساط أزرق

ونديمنا لدن المعاطف جسيمه رَيّان من ماء الصبا المترقرق

قيد النواظر حُسنه ولِحاظه شرك المَها وحباله المتعشق

حتى لخلنا أننا منها على وادي الجواهر برَبوة جِلِّق

ومن مؤلفاته (سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر) جمع فيه أشعاره ورسائله، منه نسخة مؤرخة سنة 1062هـ/1651م و(شرح ديوان المتنبي) فرغ منها 1057هـ/1647م في دار الكتب المصرية. فهرس دار الكتب ج4 ص 262 و272 وينظر أيضاً: هدية العارفين ج2 ص266.

هذا ثم قبل صلاة العيد، وبعد أداء فرض صُبح ذلك اليوم السعيد، يجتمع الوزراء [و163]الفخام، والعلماء الكرام، ذو المراتب الشريفة، والرُتب العالية المنيفة، لتقبيل اليد الشريفة السلطانية، على حسب القوانين العثمانية، فأول من يبادر لذلك السيد المولى، من هو بالتقديم أحرى، وأولى نقيب السادة والأشراف، ونخبة آل عبد مناف، وبعده أبناء التاتار خان، الذين هم عندهم على سبيل الإرتهان[1]، وثمَّ كُبراء البوابين[2] والمتفرقة[3] الأعيان، وبعدهم يأتي الصدر الأعظم، ومعه الوزراء بغاية الاحتشام، وبأثرهم قاضيا العَسكرين[4] بكمال الأبهة والاحترام، ثم رئيس أرباب الدفاتر الخاقانية[5]، وعامري الخزائن بالأموال السلطانية، ومعه أعيان الكتّاب، وزمرة من أرباب الرُقم والحساب، ثم يأتي الرسول للعلماء الأعلام، فيتقدمهم إمامهم حضرة المولى شيخ الإسلام، والمولى العظام، والمدرسين الكرام، والمَلك أبقى دولته مدى الدهور، ما تعاقبت الأيام والشهور، يعامل كلاً منهم على حسب رتبته، ويلتفت اليه بالإكرام، على مقتضى مرتبته. ثم يطلع الملك بأبَّهة

---

(1) يفهم من هذا أن السلاطين العثمانيين كانوا يحتفظون، ابان القرن الحادي عشر للهجرة (17م) بعدد من رهائن خانات التتر ضماناً منهم لعدم تمردهم على الدولة العثمانية.

(2) هذه ترجمة لاسم المنصب باللغة التركية، وهو (قابيجيلر كخيا سي) ويعني اصطلاحاً (مفتشو حراس البوابات)، وهو منصب رفيع في مناصب الخدمة الخارجية في القصر السلطاني، ويحمل صاحبه رتبة آغا. جب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة 1971، ج1 ص121.

(3) صنف من كبار الموظفين في الخدمة الخارجية في القصر السلطاني، عرفوا بهذا الاسم لتكليفهم بمهام متنوعة (متفرقة)، وكانوا يعدون أشبه بحرس الشرف، بسبب ملازمتهم المستمرة للسلطان، وكان عددهم في عصر المؤلف يبلغ ما بين مائتين واربعمائة رجل. المصدر نفسه ص128.

(4) يريد قاضي عسكر اناضولي، حيث القسم الآسيوي، وقاضي عسكر روميلي، حيث القسم الأوروبي، ويعدان معاونين فعليين لشيخ الإسلام في الدولة العثمانية، وبيدهم تعيين القضاة. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ج2 ص479.

(5) كان الدفتردار في الدولة العثمانية يعد موظفاً على أهمية من الطراز الأول، ويلي من الناحية البروتوكولية الصدر الأعظم، بسبب كونه الموظف الوحيد في الإدارة الذي له حق تقديم العرائض بنفسه إلى السلطان، هذا فضلاً عن مسؤولياته الأخرى في تسجيل واردات الدولة ونفقاتها والإشراف على الشؤون المالية عامة. جب وبوون ج1 ص183.

عظيمة ما عليها مزيد، الى جامع أيا صوفية لصلاة العيد، وفي خدمته كبراء دولته، وخواص حفدته وحاشيته، وبالجُملة فهو سَيْر عظيم، ومظهر جسيم.

فبعد ما قضيت من هذا السير وَطَرا، قصدت أن أحيط ببقية مُفترجاتها خبراً، فسرتُ مع بعض الأحباب، وقد صادفت ريماً ريّان من خمر الهَيف والشباب، فأقبل عليَّ وتبسم، ونظر إلي بعين الرضا وسلم، فرددت عليه السلام، وقد أودعني لواعج الغرام، فتأملت خَلقه الوسيم، وخِلته من ولدان جنة النعيم، فقلت: (مَا هَذَا بَشراً إنْ هَذَا إلا مَلَكٌ كَرِيمٌ)[1] فحين رأيت هذا المرأى الجميل، كان حالي كما قاله غزي[2] عصري وزماني، ولا غَرْو فهو أبو الطيب الثاني. شعر:

صادفتُه والحُسن حليته كالريم لا فرطاً ولا قلبا

من محتد والعيد أبرزه [و165] والبدر أيسر منه لي قربا

أهوى لتهنئتي فمَدَّ يَداً وفق الهوى وتناول القلبا

[الاحتفال بالمولد الشريف في جامع السلطان أحمد]

هذا ثم في عشر شهر ربيع الأول في كل عام، تكون جمعية مولد النبي عليه أفضل الصلوة وأتم السلام، بجامع المرحوم المغفور له السلطان أحمد خان عليه الرحمة والرضوان[3]، الذي قد فاق به إرم ذات العماد، ولم يغمر مثله من عهد عاد، أحكم واضعه بناءه النفيس، وأتقن صانعه في شكله أشكال التأسيس[4]، فهو جامع وأيّ جامع، لأنواع البهاء والحُسن جامع، حسن المعاني، لطيف المباني، وقد

---

(1) يوسف، الآية 31.

(2) الغالب أنه يقصد نجم الدين الغزي المذكور في هذه الرحلة.

(3) من أشهر مساجد استانبول وأوسعها مساحة وأفخمها عمارة، أنشأه السلطان أحمد الثالث بين عامي :1018 ـ 1020 هـ / 1609 ـ 1616 م على وفق كتابة تذكارية فوق بابه، يقع في جنوب جامع آيا صوفيا، وله فناء كبير، تعلوه قبة عالية، وعدد من أنصاف القباب والقباب الصغيرة، وست مآذن، وسور عال يحيط له خمسة أبواب، تولى تصميمه وعمارته محمد آغا أشهر المعماريين العثمانيين بعد سنان باشا.

(4) ربما كانت هذه إشارة إلى كتاب (أشكال التأسيس) في الرياضيات، لشمس الدين محمد بن أشرف السمرقندي.

أرَّخ عام بنائه نادري الدوران، وأوحدى العصر والأوان، علامة ديار الروم، المولى محمد المرحوم، المشهور بغني زاده[1]، ضاعف الله تعالى عليه الرحمة وزاده. شعر:

ذا جامع مؤسسٌ على تُقى الرَّب المتين

بناه سلطان الورى بعدله الجزل الرزين

سَمِي أحمد الهدى ظل إله العالمين

حاولت تاريخاً له من نص قرآن مبين

فجاء فيه قوله (لنِعم دار المتقين) (1026)[2]



جامع السلطان أحمد الثالث

فمن وصْفِ جمعية هذا المولد الشريف، وأسلوبه الغريب اللطيف، أن حضرة المَلك خُلدت دولته مدى الأعوام، ما دارت سلسلة الليالي والأيام، يأتي فيجلس في مكان مرتفع فيه، وبخدمته خواص أتباعه وحواشيه، والعلماء والوزراء جالسون حول المحراب من يمين وشمال، فإذا قدم حضرة الملك الى المكان انتصبوا له قياماً

(1) هو محمد بن عبد الغني بن مير بادشاه المعروف بغني زاده، أديب عالم بالتفسير والفقه، ولي مناصب عديدة، منها قضاء القسطنطينية، وقضاء العسكر، وتوفي سنة 1036هـ/1626م. له حاشية على تفسير البيضاوي لم تتم. خلاصة الأثر .

(2) كنب التاريخ رقماً بحرف دقيق ومداد مختلف فوق عبارة التاريخ المذكورة.

على الحال، ثم يصعد الكرسي أحد الوعاظ الكبار، فيتكلم واعظاً وهو بكمال الوقار، وبعد أخر، فإذا فرغ من قراءته، ودعا بعد فاتحته، طلع من يقرأ المولد باللغة التركية، بالنغمات المتعددة الموسيقية، فلا تسمع لأحد من الحاضرين همساً، الى ان يكمل مدتهم خمساً، وفي خلال ذلك، يأتي من قبل الملك الأفخم، رسول كريم يطلب الملك الأعظم، ثم يأتي الرسول بالتعظيم مرة أخرى، [و165] بطلب المولى شيخ الإسلام من هو بالاحترام والإكرام أحرى، ثم يعودان ويجلس كل منهما في مكانه الأول، وعلى كل حال عليهما في كل الأمور المُعَوَّل، ولا شك أنه مولد ثمرته الإمداد، ممن كان مولده رحمة للعباد، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه المُستمسِكين بما لديه، ما ولد مولود على فطرته، وتوفي على دينه وملته.

[جوامع القسطنطينية]

هذا ويجب حينئذ ذكر جوامع سلاطينها الفخام، حسبما اقتضاه الحال لمناسبة المقام، فبقرب هذا الجامع المذكور آيا صُوفيه، الجامع الكبير المشهور، فهو أعظم معاهدها وأجل مشاهدها، يَحار النظرُ فيه ويتحيَّر دون تصور قوادمه وخوافيه، ذو أبنية غريبة جميلة، وأعمدة عجيبة جليلة، وقبة مُحيِّرة للعقل في التدوير والتقويس[1]، والتربيع والتدليس، فكم من بناء داخل بناء، وقوس داخل آخر، وكم من إحكام مرتفع وتحريف مصطنع، كأنه بذلك إرَم ذات العماد، وفاخر فلا يحيطه نظر ولا تفكر ولا يحكيه عقل ولا تصور، فلما تأملت قبتها العالية، ورأيت أبنيتها الهائلة، تذكرت قبة النسِر بجامع بني أميَّة[2]، بدمشق المحميَّة، وتذكرت ما نظمه شيخنا عين العلماء العاملين، نجم الملة والدين، فسح الله في أجله، ونفعنا بعلمه وعمله، وقد أنشد فيه من لفظه لنفسه في مجلس أُنسِه. شعر:

---

(1) في الأصل (والتقديس).

(2) قبة كبيرة سامقة في جامع بني أمية، أنشأها الوليد بن عبد الملك عند عمارته للمسجد، ووصفها ابن جبير بقوله «فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً، ومرأى هائلاً، يشبهه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه، والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثاني عن شمال جناحاه، وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو».

يا قبة النسر لوعدنا لمغناك   وقد آوينا كما كنا بمأواك
لكن لنا في ذُراكي من أحبتنا   وديعة هي في محفوظ مثواك
للّه إن جئتَ بعد البعد جلّق في   حماك صليت شكراً بعد لقياك

وبالقرب من ذلك جامع السلطان بايزيد، عليه الرحمة مدى الأيام تزيد، وهو جامع لكل خير جامع، متين البُنيان، ومُحكم الجدران، ومدرسته على الطريق العام، ومشروطة لشيخ الإسلام(1).

وبقربه جامع المرحوم صاحب الخيرات [و167]الجسيمة، والمبرات الوافرة العميمة، السلطان سليمان خان، سَحّت عليه سحائب الرحمة والرضوان، وهو جامع وأي جامع(2)، لجميع الحسن والبهاء جامع، لطيف البناء، رحب الفناء، عظيم المباني، فلا غرو فانه بنيان سليماني. وله أربع مدارس المشهورة بالسليمانية، ودار الحديث الرفيعة السنية، وهي نهاية المدرسين وموصلة الى المناصب العلية.

وبالقرب منه جامع والدة المرحوم شهزاده(3)، رزقها الله تعالى الحسنى وزيادة، وهو جامع حسَن، وتكوينه مستحسن، وبناؤه ظريف، وأسلوبه لطيف، وله مدرسة شريفة، مشرقة ظريفة، من أحسن مدارس الروم على الإطلاق، لما اشتملت عليه

---

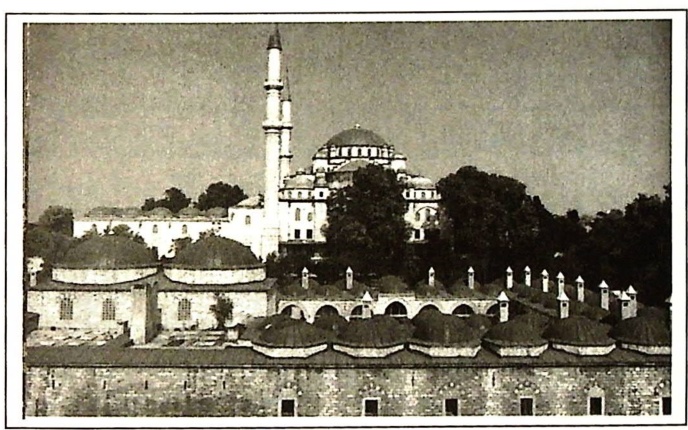
(1) جامع بايزيد من أكبر مساجد أسطنبول، بناه السلطان العثماني بايزيد الثاني، توفي سنة918هـ/ 1512م، ودفن بجواره.

(2) من أفخم جوامع استانبول وأكثرها سعة وجمالاً، وضع تصميمه وأشرف على بنائه المعمار الشهير سنان باشا، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات من 957 الى 965هـ/ 1550 إلى 1557م، وقد ألحق به مجموعة من المنشآت المهمة، منها مدرسة مستشفى وحمام ودار للحكومة وخزانة كتب، وللجامع قبة واسعة عالية، وأربعة مآذن. وشاذروان وجنينة واسعة. وصفه الخياري سنة 1081هـ بأنه «مسجد متسع الجهات والأنحاء، فائق الوضع والرفع والبناء، مستكمل تمام البهجة والإشراق والسناء، لاسيما من حيث ارتفاع المحل الكائن به». تحفة الأدباء ص95

(3) يقع هذا الجامع قريباً من سابقه، ينسب إلى شاهزاده (الأمير) محمد ابن السلطان سليمان القانوني، وقد أنشأه أبوه تخليداً لذكراه، وصفه الخياري بأنه «جامع حسن على هيئة ما تقدم لكنه دونها» (تحفة الأدباء ص97). وأضيفت إليه مدرسة ودار للضيافة ومطعم (شوربه خانه) ومنشآت أخرى، وقد قام بتصميمها والإشراف على بنائها المعمار سنان باشا في السنوات 951-955هـ/ 1544-1548م

من البهاء والإشراق، منها يتوصل إلى إحدى تلك المدارس السليمانية المذكورة، ورتبتها لدى السادة العلماء مشهورة.

وبقربه جامع المرحوم صاحب الفتوحات والنصر، والخيرات العديدة مدى الدهر، السلطان محمد خان[1]، أسكنه الله تعالى فسيح الجنان، وهو الفاتح لهذه البلدة العظيمة، التي جاء تاريخ فتحها قوله تعالى (بلدة طيِّبَة)[2] من آية كريمة. وهذا الجامع كبير شريف، ومبراته عامة في التالد والطريف، محكم المباني والأساس، وجارجه[3] ممر لكل واحد من الناس، وله ثماني مدارس بالصحن موصوفة، وبالمدارس العثمانية معروفة.



جامع محمد الفاتح

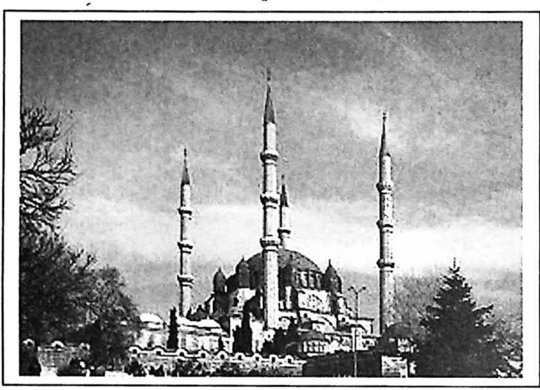
---

(1) هو جامع السلطان محمد الفاتح، ويقع في وسط استانبول في منطقة كبيرة تنسب إليه، أنشأه السلطان المذكور بين سنتي 867-875هـ/ 1462 -1470م، ليكون آيات العمارة الاسلامية العثمانية في عصره، ولكن خراباً أصابه في سنة 1766م، بسبب الزلزال، فقام السلطان مصطفى الثالث بترميمه في السنوات 1767- 1771م، وأضيفت إليه مرافق عدة، منها ساحة واسعة أنشأها السلطان محمود الثاني، وغير ذلك من المنشآت العمارية في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة (19م). وذكر الخياري أنه كان يحيط به مساكن القضاة والعلماء وطلبة العلم، وحوله المدارس العامرة . تحفة الأدباء ص 97.

(2) حساب العبارة هكذا بلدة = 436، غفور= 421، المجموع 857، وهي سنة فتح القسطنطينية.

(3) لعل صوابها (وجار به) أو (خارجه).

وبقربه جامع المرحوم المشهور، الذي فتحه في صفحات الدهر مذكور، السلطان سليم[1]، صاحب الحسنات في البلاد والاحسان العميم، وهو فاتح حلب ودمشق والقاهرة المعزية، لا زالت روحه في جنان الخلد راضية مرضية. وهو جامع مختصر مفيد، وبنيانه فريد. ولما شرع فيه لم يتم بنيانه، ولم يساعده على اتمامه زمانه، وقد اخترمته المنية، وانتقل على أحسن عمل ونيَّة، وقد أكمله المرحوم السلطان سليمان خان، المتقدم ذكره والباقي مدى الزمان أثره وبرِّه.



جامع السلطان سليم

وبها من المساجد [و168] والجوامع ما تقرُّ به عيون الموحدين، وتزداد به عبادة المتعبدين، خصوصا تزيينها ظاهراً وباطناً بنفس المباني، والنقوش البديعة المباني، والكتابات التي تكل عن وصفها الألسنة، كالكتابة على أبوابها الآيات الباهرة، التي توجب الحث عند رؤيتها على الإقبال على أعمال الآخرة، كقوله تعالى: (وأقم الصلوة طَرَيِ النهار وزُلفاً من الليل، إن الحَسنات يُذهِبنَ السيئات، ذلك ذكرى

---

(1) هو جامع السلطان سليم الأول، يطل على القرن الذهبي، بدأ به السلطان المذكور، وتم بناؤه سنة 929هـ/ 1522م في عهد خلفه سليمان القانوني، تميز بناؤه بقبته الكبيرة المنخفضة، وبأروقته المحمولة على أعمدة من حجر الكرانيت، ويضم مدافن أولاد السلطان القانوني الأربعة، وآخر للسلطان عبد المجيد سنة 1278هـ/ 1861م. قال الخياري «هو عجيب أيضاً بلغ الغاية في ارتفاع محلة ويحيط به مدارس وعمارة هي عبارة عما يعد فيه طعام للمقيمين بالمدرسة ونحوهم». تحفة الأدباء ص97

للذاكرين، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[1] وكقوله تعالى (أقم الصلوة لدلوك الشمس الى غَسَق الليل، وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً)[2]. فلم أشاهد مثلها قط، وقد أنساني ذلك ما رأيته من حُسن الخط، فسبحان خالق القوى والقدر، وإنما لمعانٍ[3] تعشق الصور، ولو لا خشية الإطالة وخوف الملل، لذكرت جميع جوامعها على وجه الإطناب في هذا المحل.

ثم أمرني حضرة المولى الأستاذ، أبقاه الله تعالى لجملة الأنام كهفا وملاذا[4]، بالنقلة لمدرسته التي تجاه منزله العالي المنيف، لأكون دائما تحت نظره الشريف، فامتثلت الأمر، وأقمت بها حيناً من الدهر، ملازماً غب الأوراد على الدعاء لجنابه في السّر والجهر. وهو مكان نفيس، حسن أنيس، ذو ماء عذب، وروض لطيف خصب، ومدرسها يومئذ فخر المدرسين الكرام، الفاضل المقدام، من غدا الى بلوغ المعالي راغب، الطويل الباع في كسب الفضائل والمراتب، الفاضل الكامل، زبدة الأفاضل، مولانا سعدي، لا بَرِح للفواضل يُسدي. فلم أزل مدة إقامتي في حماه وجواره، وغالب اوقاتي في خدمته، ولا أحول من فناء داره، لما أجد من بشاشة وجه تسر القلوب، وطلاقة محيا تُفرّج الكروب. شعر:

إنَّ الكريمَ إذا قصدتَ جنابه   تلقاه طَلق الوجه رَحب المنزل

فتغمرني من خدمته تتابع نِعَم، وسوابغ أياد [و169]، ومن القرب الى حضرته ما يخفف عني حَرّ نيران البعاد، فأتحلى بزلال بحره المتدفق الجاري، واتحلى بعقد نظمه الفائق على الدُر بل الدَراري، وأرتع في رياض فضله، واتمتع في نعمة طَل جوده ووَبْله، فيتوجه إليَّ بلطفه ومؤانسته، واغتنم التشرف بجنابه وبلذيذ مصاحبته، ولو وصفت ما صدر من إلتفاته وإحسانه، لضاق صدر الطرس وإن كان متسعاً في ميدانه، وعجز عن الشكر لساني، وكلَّ عن رَقم الحمد بَناني، وقد

---

(1) هود، آية 114.

(2) الإسراء آية 78.

(3) لعل الصواب (وانها لمعان) أو (وان المعاني).

(4) في الأصل (ملاذ) مراعاة للسجعة.

قلت فيه قصيدة غراء، وفريدة عذراء، شاكرا لما أسداه إليَّ، وما أسبله من وافر أنعامه عليَّ بِقَيد ملازمتي العُرفية، من حضرته العلية، كما لوالدي المرحوم سَبق، وقد وقع المحل من إيرادها في هذا المعرض واتفق، وهي قولى. شعر:

أبدأ جباه الفاضلين سُجود   بمقام مَولىً علمه مشهود

إلى أخرها .

فحمدت الله تعالى، حيث قُيِّدَتُ ملازمتي بجنابه الكريم في دفاتر حسناته، عطفا على ما سبق من قديم إحساناته، لا برح جيد الزمان حالياً بعقود مفاخره، ولسان العصر والأوان تالياً لذكر مآثره، ولا زال مقامه في كل وقت شريفاً، وظله في الآفاق ضافيا وريفاً . شعر:

ما صبا صَبٌ إلى أوطانه   نازح الدار وما اشتاق رُبوعا

هذا وأما نجل أخيه المخدوم الأكرم، دام دوام العالم، شمس فلك الكمال، بدر أُفق الفضل والأفضال، طراز حُلَّة[1] المجد والمعالي، ودرة تاج السادة الموالي، فرع الشجرة الطيبة الزكية العلامية، من نبغ في روضة العلم والفتوى، وبزغ بدر كماله في أفق الدين والتقوى، وحيد الدهر، وغُرّة جبهة وجه العصر، واسطة عقد ذلك السؤدد، وباكورة حديقة ذلك المحتد الأمجد، مع طبع يفوق لطف النسيم، وخلق ليس له من معاصره قسيم، وظاهر نَسَب كعمود الصباح، وظاهر حَسَب كضوء المصباح. شعر[2]:

نَسَبٌ كأن عليه من شمس الضُحى   نوراً ومن فلق الصباح عمودا

ريحانة ذلك الروض الانيق، ونورات [و170] غصنها اليانع الوريق، من وَرَث العُلا، وحاز رقى بالولا، الأمجد الأوحد، حضرة مولاي وسيدي شيخ محمد، لا زالت رتبته فوق فَرْق السُهى علية، وذاته البهية عن تعداد الصفات الجميلة غنية، ولم يمكن وصف لطفه أن يُحَد، ولا يحويه بنان ولا يحصيه عد، ولا يخفى فإنني في رق عبوديته أباً عن جد، توارثنى عن أبيه وجده، فها أنا الآن لا أُعرَف إلاّ به، ولا أدعى مفتخراً إلاّ بعبده. شعر[3]:

---

(1) الحلة: الثوب الجيد .

(2) البيت لأبي تمام.

(3) هذان البيتان أنشدهما رجل دخل على يحيى بن خالد بن برمك، كما في العقد الفريد

سألت الندى هل انت حرفقال: لا ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت: شراءً؟ قال: لا، بل وراثة توارثنى عن والد بعد والد

أبقاه الله تعالى ملاذاً وسنداً ومعيناً وعضداً، ومولىً وسيداً، ما بلغ فاضل رُتَب المجد والسعد، وفاق أقرانه بالعزم الصادق والجد.

ثم بعد ما رَتعتُ في رياض لطفه، وقطفت من أزاهير أُنسه وظرفه، وقد سرتُ مراراً في خدمته العلية، للمنتزهات البهية، وقد سرنا جميعاً في خدمة المولى الأستاذ شيخ الإسلام، الى مكانه المعروف باستينه في تلك الأيام، وقد تكرر الذهاب اليه غير مرة، لا برح موطنا للحبور والمسرَّة، فقد حصل فيه غاية السرور، وكمال الحبور، من المخدوم المشار اليه، أسبغ الله جزيل نعَمه عليه، وقد طلب من عبده إيراد بعض أبيات، فبادرت بإنشاده عجلاً، وأنشدته مرتجلاً. شعر:

أدام الله مجدك والمعالي ودمت لنا على كَرِّ الليالي

الخ. عدد7.

ثم سمحت القريحة في الحال، على سبيل الارتجال. شعر:

العبد لباب فضلكم منسوبُ من غير مراً عليكم محسوب

يدعو لكم بأن تكونوا أبداً في عافية هذا هو المطلوب

وقد كان قبل ذلك سَنَح لي نظم هذه القصيدة، مُعرِّضاً فيها بالدعاء لحضرته السعيدة، مادحاً بها جناب المولى الأستاذ، والكهف والملاذ، سائلاً من فيض بحره الكامل، وفضله الشامل، ترقية المدرسة، وقد شمت من بارق [و171] وَعْده مخايل القبول، ولحظت فيه خمائل الروض المطلوب، فقلت لجنابه: جائزتها أن ترفع من يدكم العليا حضرة المولى، وأنتم بهذا العبد أحق وأولى، فتناولها، وفك ثمن عقدها وأوصلها، وبالغ في ارتباط عقدها، وهي قولى. شعر:

ما صافحت نسمات الروض أغصانها إلاّ تذكرت قداً مايسا بانا

الى آخره. عدد30.

فحين وقع نظره الكريم عليها، وصرف وجه تأمله اليها، كان جائزتها تلقيها بالقبول، والوعد بانجاز المأمول، وأوصلها من يده الشريفة، للمولى محمد

عصمتي[1] ليعيد قراءتها لدى خدمته المنيفة، فبادر بقرائتها بين يديه، وأفصح عما اشتملت عليه، وهو في هذا الباب فريد دهره، ووحيد عصره، فإنه أديب زمانه، وأريب وقته وأوانه.

ثم أخبر حضرة المولى بهذا العبد وتفصيل أحواله، وما حرَّر من الرحلة في نزوله وترحاله، ومن منذ مفارقته لأوطانه، متقيد بالدعاء لحضرتكم بجنابه ولسانه، وقد حرر رحلة في غاية اللطافة والإيجاز، وقد قامت على بلاغتها دلائل الإعجاز، وبالجملة فقد اخترع فيها الأسلوب اللطيف، وأتى فيها بكل معنى ظريف، وقصد أن يحذو حذو جَده، ويفوق بعزمه وجدّه، فأقبل المولى بإقباله عليّ وأنعم، وقال: من يشابه أباه فما ظلم، فإن جده المرحوم كان علامة في المنطوق والمفهوم، وأما رحلته فتحط عندها الرِّحال، وتقف لديها مطايا الأفاضل من الرجال، فلا غَرْوَ أن يحذو الفتى حذو والده[2]، ويشتغل بكسب الفضائل في طريفه وتالده، فطلب[3] حضرة المولى من عبده حصَّة منها، لما بلغه من الأوصاف الحسنة عنها، فعرضت حصَّة منها على جنابه، ووعدت بعد إتمامها بإهدائها لعتبة بابه، وَرَجَوت من كرمه لها حسن القبول، وأن تعد لدى سُدَّته العظيمة من جنس الكلام المقبول، وأن ينظر اليها بعين الرضا ويضرب عما فيه من الخطأ والخلل، [و171] إذ هو جَهبَذي الأقوال ونقّادَها، إليه يرجع آتيها ومُنقادها، أبقى الله تعالى دولته في مستقر الدوام ثابتة، وأبقى ثمرة عدلها وفضلها في رياض عز سيادتها نابتة، ما رقمت الأقلام بديع الكلام.

ثم قال لي حضرة المولى ملاطفاً، وعلى ما سبق من إلتفاته عاطفاً: كيف رأيت نضارة هذا المكان وطيب هواه، وحسن مشرفه؟ فقلت لحضرته: حاز المحاسن بأسرها، ووجودكم فيه أجل شرفه، فكأنه المعني بقول بعض الادباء البارعين النبلاء. شعر:

---

(1) تقدم التعريف به.

(2) ذكر ابنه محمد أمين في خلاصة الأثر ج4 ص 322 ان جده لأبيه محمد بن ابي بكر بن داود بن عبد الخالق بن عبد الرحمن الملقب محب الدين بن تقي الدين ابو الفضل العلواني الحموي الدمشقي الحنفي له (الرحلة المصرية والرومية والتبريزية...) وأنه توفي سنة 1016هـ/1607م.

(3) في الأصل (قطب).

في ذا المكان ثلاثة قد جُمعت نورٌ ونور واعتدال هواء

ولها – وحقك- رابع علامة، مفتي الايام ومرجع العلماء!.

هذا وبالجملة فيجب رؤية هذه البلدة التي هي سيدة البلدان، والجنة المحفوفة بالحُور والولدان، وأحسن ما فيها طباع أهاليها، فانه إذا سعى اللطف لينظر اليها، يقف متحيراً عند مرآها، ويغدو متفكراً في لطف أنواع نسيم أرجائها ومسراها، فإنهم أبهى وأبهج من الزَّهر، وألطف من نسيم الصبا إذا تهب في السَّحر، فلا غَرو إذا حركت الجماد بلطفها، وأكسبته الآداب بعطفها، فقد تكل دون وصفها الأقلام، وتقف عند إفصاح لطفها مطايا الإفهام، ما نأى عنها ناءٍ إلاّ بالرغم عن أنفه، وما رغب لها راغب إلاّ عُد ذلك من رقه طبعه ولطفه، أدامها اللّه سبحانه وتعالى، دار الخلافة، ولا بَرحت محمية من كل آفة، ما نال فاضل مطلوبه ومأموله، وما رفع الفعل فاعله ونصب مفعوله، وإن اشتملت على بعد الطريق، وعدم المُساعد والصديق، وارتكاب الطرق المُتعبة، واقتحام كل سيئة وعقبة، فلا بَدع إن أبان عن حاله ببيان مقاله، لما قيل ولا غَرْو للمصدر[1] أن يتنفسا، فلم يكن غالب طريقها إلاّ في شواهق الجبال، وترك مقالة إحالة على المقايسة كما هو مقتضى الحال. شعر[2]:

ويصعد حتى يظن الجَهولُ بأن له حاجة في السماء

يتشبث بأذيال [و173] عسى ولعل، راجيا من كرمه تعالى بلوغ الأمل، وهو في ذلك مُشمّر الذيل، وذلك كما قال الشهاب العلامة[3] في نثر تلك المقامة:

بين حشا بالنوى مأسور وفؤاد بالجوى مسجور

ويقدح بيد الجياد زند عزم وارى، ويذرع شقة النوى بأذرع المهارى[4]، ويتلفع برد الأسحار والاصائل، لخوض بحر دُجىً ما له غير العجز ساحل، على أن تُسفر غيبته عما تثنى عليه الحقائب، ويسم في الافق عن صبح وَعْد صادق أو كاذب،

---

(1) لعلها (المصدور).

(2) البيت لأبي تمام.

(3) هو شهاب الدين الخفاجي وقد تقدم.

(4) المهرة والمهرات: أنثى الفرس.

فيوقن أن صبح سعادته قد يُسفر، وغصن أمله قد يونع ويثمر، فإن مساعدة القدر، تسلى الحظ ببلوغ الوطر، فإن غَدَره الزمان، وعامله بالحرمان، ومال عليه كل المَيْل، فالويل عليه ثم الويل. وبالجملة والتفصيل فإنه سفر طويل يقصر عنه الأيْن، ولابد لكل أحد فيه من إرتكاب الدَيْن، وقد كنت أتذكر بعد الدخول، ما قطعته من السير في الأرض، من المسافة الزائدة في الطول والعرض، فكم من بعيد جمعه الله بأهله، وكم من مشتت شمل مَنَّ عليه بجمع شمله، (إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)[1]، (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)[2].

فحين لقيت بها اعيان بلدينا الشاميين، حصل لي غاية الحظ من المسافرين فيها والمقيمين، لاسيما بالإمام الذي وَجَب له في محاريب الفضل حق القديم، وسَجَعَت له على رؤس الأفاضل حمائم التسليم، فلو رآه الإمام الأعظم لأحسن الثناء عليه، وأبو يوسف لأجلّه ولم يأسف على غيره، ولم يلتفت الا اليه، إمام العصر في المغرب والمشرق، وخطيب جامع الفضل الأزهر الأنور المشرق. شعر:

فلو جُمَع الأئمة في مقام ... يكون به لكان لهم إماماً

من ترَقى الى أوج المعالي، وحاز المقامات العالية بين السادة الموالي، عزيز مصرنا، ويوسف عصرنا، الإمام السلطاني، صاحب المقام العلي، المنفصل عن قضاء عسكر روم إيلى، لا زال للفاضلين قدوة وهماما، وللطالبين مفيداً وللمتقين [و174] إماما، فما أنشدنيه من شعره الرائق، ودَرّ لفظه الفائق. شعر[3]:

يا من هواء بقلبى ليس يبرح من ... بين الترائب ترب الشوق والأسف

أليَّة بليالينا الأولى سلفت ... وبالغرام وإن أدّى إلى تلفى

وبالدموع التى أجريتها غدراً ... ومدمع[4] فيك لم يطعم كرى ذرف

لأنت أنت على ما فيك حبك في ... جوانحى كامن كالدُرّ في الصدَف

---

(1) الشورى، آية 27

(2) الشورى، آية 29.

(3) الأبيات لإسماعيل بن عبد الحق الحجازي، قاضي العسكرين، من معاصري المؤلف، وقد أوردها ابنه في (نفحة الريحانة) ص34.

(4) في الأصل (مع). وقد

وأنشدني له سلمه الله وحرسه وحماه. شعر:

بين المحبة والتباغض برزخ فيه بقاء الود بين الناس

بخلاف أقصى الحب أو أقصى الذي هو ضده من كل قلب قاس

فمآل كل منهما ندم على تفريطه ندماً بغير قياس

وأنشدني له متشوقاً لدمشق الشام، مسقط رأسه، ومشتعل نبراسه. شعر

سقى الله أياماً تفيأت ظلها وآهٍ لها لو أن آهي لنا تُجدى

زمان لنا بالصالحية كله ربيع وأيام لنا فيه كالوَردِ

وأنشدني حالة الوداع، والتوجه الى شريف تلك البقاع. شعر:

إن هَبَّ ريح التنائي بين الرفاق عصوفا فقل حَشاشة نفسٍ وقل خلقت الوفا

وأنشدني له ثانياً، وللعبد شاكيا. شعر:

إن رحل القوم عنا ركابهم ظاعنينا

فقل لهم بانكسار: يا من يعز علينا

وبجمال أصحاب التحقيق، كمال أرباب التدقيق، من أشبه المتقدمين عبادة وعلما، وأوسع المتعلمين إفادةً وحِلماً، ذو الطويَّة السَّنيَّة، والأخلاق المَرضية، الهُمام المحقق، علم الهدى والدين والصلاح، من جمع العلم والعمل والفلاح، الحاوي لأنواع العلوم، الجامع لجوامع ما تَقر به العيون، بقية السلف، وعَين الخلف، المولى حسين، مدرس المدرسة السلطانية الاحمدية، المنفصل عن قضاء القسطنطينية، دامت فضائله، كما طابت شمائله، وقد أمدني بالدعاء الكثير، الذي لا شك أنه كيمياء السعادة والإكسير، وقد أنشدته لأديب الدهر، وأريب العصر، بَلَدِينا أحمد [و175] شاهين، المشهور ببلاغته النظام، لمناسبة الكلام، قوله – رحمه الله تعالى– مدى الأيام. شعر:

لعمري لقد جريت كل مُجرَّب من الناس أضحى يدعى العلم بالحجر

فإن قال أنى واصل قلت كاذباً غدا واصلاً في الكذب للشمس والقمر

وبمخدومي المرحوم، الجامع بين المنطوق والمفهوم، عماد البلاد الشامية ومفتيها، وناشر لواء الإفادة بناديها، علامة زمانه، وفهامة عصره وآوانه، شيخي

وأستاذي المولى عبد الرحمن العمادي، لا زال ثاوياً في قصور الجنان، وضريحه مطاف وفود الرحمن والرضوان، وهما أغصان الدوحة العمادية، وأفنان الشجرة العلمية، شموس أفلاك الكمال، بدور منازل الجمال، فهي الثلاثة التي أشرقت[1] الدنيا ببهجتها، وطفقت الألسن تثنى عليها بصدق لهجتها. شعر[2]:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

فأنه لما انتقل بالوفاة والدهم المرحوم، توَجّها إلى الروم، وبقى أخوهما الأكبر، المُقدَّم وإن تأخر، مقيما في دمشق الشام، أسبغ الله عليهم سوابغ الإنعام. ولما عَزِما على المسير، سِرْتُ مودعاً جنابهما الخطير.

فبعدما عدت من الوداع، وسألته تعالى ان يقرب إيام الاجتماع، كتب إليّ أديب عصره، وأريب مصره، صاحب الفضل العميم، مولانا إبراهيم[3]، مخدوم شيخنا المشار اليه، لا زالت سحائب الرحمة عاكفة عليه، وأمتع الله تعالى الأدب بطول حياته، وجمع أشتات الفضائل بطيب أيامه وسعادة أوقاته، وهي قوله. شعر:

إليك أخي نصيحة ذي اختيار له حَومٌ وزندٌ فيه وار

إلخ عدد (7)

فكتبت إليه الجواب:

لا زال بيت الآداب معموراً بطول بقائه، ورياضه غضة بحسن روائه، وهو قولي شعر:

أتتك نصيحة من ربٌ فضل إمام في الفضائل والفخار

الخ عدد (11)

وممن لقيت بها صاحب الفضائل التي سحر العقول، من حرر بدور غرره المعقول والمنقول، زبدة أمثاله الاماثل، [و176] ذو المآثر التي ليس لها من مماثل،

---

(1) في الأصل (أشرق).

(2) البيت لمحمد بن وهيب، يمدح المعتصم.

(3) يحتمل أنه يقصد إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقب برهان الدين الميموني، وسيشير إليه المؤلف فيما يلي ويذكر أنه شيخه.

قريبنا إسماعيل النابلسي[1]، من اغتفر بعلوم جده سيئات الزمن المسي، رحم[2] الله تعالى سَلفه، وابقى للأفاضل خلفه.

وممن لقيت بها العريق الأصيل، صاحب المجد الأثيل، عين الفضلاء، وريحانة الأدباء، زبدة البارعين، سيدنا عبد الكريم ابن المرحوم القاضي تاج الدين العبادي[3]، لا زال الكل فضل بادي، وقد حصل لي بجنانهم كمال الأنس في الاقتراب، وزالت عني برؤيتهم وحشة الأغراب، فأنشدت حين ساروا وأقمت. شعر[4]:

أجارتنا إن الخطوب تنوب   وانـي مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنـا   وكل غريب للغريب نسيب

لا برحوا جميعاً مُبلغين الآمال، راتعين في روض الصحة في الإقامة والترحال، ما تمت أمنية لطالب، وما قضيت لذي حاجة مآرب، وما حَنَّ غريبٌ الى وطنه، وما غنّى قُمريٌ على فَنَنه، ومما كتبته متشوقا الى الأهل[5] والأخوان، ومسلماً بها على أفاضل الأحباب والخِلان، قولي. شعر:

يا صاحبيَّ بلغا سلامي   إذا حللتما بأرض الشام

الخ عدد (22).

---

(1) هو أبو الفداء اسماعيل بن عبد الغني النابلسي الحنفي الدمشقي، والد العلامة عبد الغني النابلسي صاحب المؤلفات الكثيرة في مختلف العلوم، المتوفى سنة 1143هـ/1730م، وكان مفتياً بدمشق، له شرح الدرر، وغيره. وقد صاهره محب الدين، والد فضل الله، على بنتين، ماتت إحداهما قبل أن يبني بها، والأخرى دخل بها، وولدت له محب الدين، والأخير هو والد الرحالة فضل الله. وفي ملاحق هذا الكتاب رسالة لإسماعيل هذا.

(2) في الأصل (رحمه).

(3) هو عبد الكريم بن محمد بن محمد المعروف بالعبادي الدمشقي الحنفي، ولد بدمشق سنة 998هـ/1589م وأخذ العلم عن مدرسيها، والطريقة الرفاعية عن بعض مشايخها، وناب في القضاء بمحكمة الميدان بدمشق، ثم سافر إلى استانبول سنة 1051هـ/1641م، وتنقل في المناصب القضائية إذ ولي قضاء بيروت وقضاء بعض المدن المصرية ثم صار متولياً لأوقاف الجامع الأموي بدمشق، وعزل، وولي بعدها قضاء بني سويف بمصر، وتوفي فيها سنة 1070هـ/1659م. ترجم له المحبي وساق بعض أشعاره. خلاصة الأثر ج3 ص9.

(4) البيتان لأمرئ القيس.

(5) في الأصل (الأسل).

فطرحت الآمال عن البال، وعدلت الى مقتضى الحال، وأخذت أصغي لسماع الأخبار، عن الأهل والديار، وأغرّد[1] من شَجْوى ولا كتغريد الأطيار، حتى حدا حدوي الحَمام، وحذا حذوي في الهيام، وكل منا عمّا في ضميره يُعرِب، وينشد قول بلدينا الطالوي[2] من شدة شوقه فيُغرِب. شعر:

وصادحة أشجت قلوباً خليَّة	فعادت بذاك الشجو وهي لها وكرُ
تبيت به على الدوح والليل ضارب	بأرواقه حتى إذا طلع الفجرُ
أقامت تعيد الشجو فوق أراكةٍ	بأفنان بان حقها الورق الخضرُ
عجبت لها بالوصل ناحت وما رمي	بأحبابها بَيْنٌ ولا خانها الدهر
فقلت: لا باللّه ما هذا الهوى	أنوح ولا نوحٌ وذكرٌ ولا ذكرُ[و177]
لمهجة صبٌ فانظري كيف حاله	تذوب ولا نهيٌ لديها ولا أمر
سُقامٌ ولكن لا حياة ولا ردى	ودمعٌ ولكن لا بكاء ولا نزر
على الشام مني كلما هبَّت الصبا	سلام كنشر الروض طاب له نشر
بلاد كأنفاس الشمول شمالها	تربتها مسكٌ وحصباؤها در
سقاها وحيّاها الإله معاهداً	سحابُ دنوّ العهد وافى به البشر
فيا حبّها زدني جوىً كل ليلة	ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

ثم بعد ذلك تحققت ما كنت في الدهر من قبل ظننت، أن بَرقَه معي خُلَّب، ووعده عَرقوبي المَذهب، فاستخرت عند ذلك في الذهاب، وقنعت من الغنيمة بالإياب، ثم بعد ذلك تسلّيَت، وبمن حطّ به الخط تأسّيت، ورب ساعٍ في وَطَر، عَرَض له القدر. شعر:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه	وليس عليه أن يساعده الدهرُ

---

(1) في الأصل (وأغرو).

(2) هو درويش أبو المعالي، وقد تقدم.

والأمور مرهونة بأوقاتها، والأقدار متوقفة بساعاتها. شعر:

وربما ساءت الأقدار ثم جرت[1]   بما يسُرّك ساعات لها أخرُ

[الرحيل من استانبول]

فقوّضت من القسطنطينية طَنَب الإقامة، مُيمّماً حِمى دمشق المحمية دار المقامة. شعر[2]:

بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي   وأول أرض مَسَّ جلدي ترابها

ثم ودعت أعتاب مولاي واستاذي بالتقبيل، وعزمت غِب ذلك على المسير والرحيل. شعر:

فودعت منه طود علم رعاته   لدى حادثات الجهل حصن ومعقل

وسرت مودعاً ساداتنا الموالي، وأنا متعثر في أذيال آمالي. شعر:

وفارقتُ من فارقت لاعن ملالة   وودَّعتُ من ودعت لاعن تقوّض

وقد أتى لوداعي حبيب لي ألِفته، وخِلٌ بالعفاف صحبته. شعر:

عجباً لقلبي يوم راعني الهوا   ودنا التفرق كيف لا يتفطر

فلما سار معي للتشييع، ووقف كل منا وقفة التوديع. شعر:

شرق الدمع في الجيوب حياءً   وبنا ما بنا من الأشواق

فروينا حديث الدمع مسلسلاً، وأرْوينا القلوب من تلك الحصة القليلة نهلاً وعللاً، فسار عني، [و178] وفي القلب نيران التباعد أودّع، فكان حاله كما قيل ثم ما سلم حتى ودَّع. شعر:

فو الله ما فارقته قالياً له   ولكن ما يُقضي فسوف يكون

فبت طول ليلتي مُرخياً عنان العَبْرة في مضمار صبابتي، حتى أحرزت في ميدان الأسف قصب بل الغليل، وأوشكت أن أحرز في مدى التلف خصل إبلال

---

(1) لعلها (ساءت).

(2) البيت لحبيب الطائي.

العليل، أغضيت إغضاء الحزين لم يجد مَسلاه، مفكراً فكر أخي الوجد قد فاق مصباه. شعر:

لو كنت أعلم أن آخر عهده		يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

غير اني أسأل واهب الصور، وخالق القوى والقدر، رأب النائي، ودنو حظ نائي، وفي القلب أوار، لكل سائلة قرار.

وكان الارتحال منها في يوم الرابع من شعبان، وبالرغم مني مفارقة من بها من الأخوان والخلان، بعد ما أقمت في اسكدار خير دار، عدة ليالٍ وأيام، لا أعدها إلاّ أضغاث أحلام. شعر[1]:

واهاً لها من ليالٍ هل تعود كما		كانت وأي ليالٍ عاد ماضيها

لم أنسها مذ نأت عني بوحشتها[2]		وأي أنسٍ من الأيام ينسيها

فإنها لا تزول من خاطري، ولم تبرح مُخيلة تجاه ناظري، وقد زال عني بها غَيّم الغم، وقد كان استولى علي وعم، فقد تسليت في تلك الليالي ببدورها، واغترفت من بحر لهوها وسدورها[3]، فمرت كلمحة طيف، ومرور سحابة صيف، وكأنها المَعنيَّة بقول من قال وابان عن الحال. شعر:

تمتع بساعات السرور فإنها		قصار وساعات الهموم طوال

[حلب]

ثم سرنا ممتعين من شميم عرار نجد، ومُحملين أنفاس الصبا حقائب الوجد، فلم نزل في مَهْمَه بعد مَهْمَه، نجول نقطع القفار بالرحيل والنزول، ولولا خشية الإطالة، وخوف الملالة، لذكرت المنازل بالتفصيل، إذ ليس تحته طائل غير التطويل، فان القصير[4] في السفر مطلوب، والاقتصار على الاختصار محبوب ومرغوب،

---

(1) البيتان في نفح الطيب للمقري التلمساني في رسالة من يحيى المحاسني إلى عبد الرحمن العمادي.

(2) في نفح الطيب (نأت عني ببهجتها).

(3) سَدَر: لم يثنه شيئ .

(4) ربما أراد : القصر، أو التقصير.

فخطر بالخاطر في أثناء ذلك، ونحن سالكون [و179] تلك المسالك، أن نمرَّ على محروسة حلب الشهباء، للتشرف بمن بها من العلماء والفضلاء والأدباء، ونقطف من ثمار فضائلهم السنيَّة عن كثب، ونعد ذلك عين الراحة غبّ النَصَب، فقدمتُها فإذا هي مدينة عظيمة، كبيرة قديمة، واسعة الفناء، حسنة البناء، عظيمة المآثر والمعاهد، كثيرة الجوامع والمساجد، وفي الحقيقة أنها أحسن البلاد الأنيقة، وقد حازت أنواع المحاسن واللطائف، ولا يمكن أن يضبط حسنها وصف واصفٍ. شعر:

لقد جمعت كل المحاسن صورةً   شهدت بها كل المعاني الرقيقة



قلعة حلب (صورة قديمة)

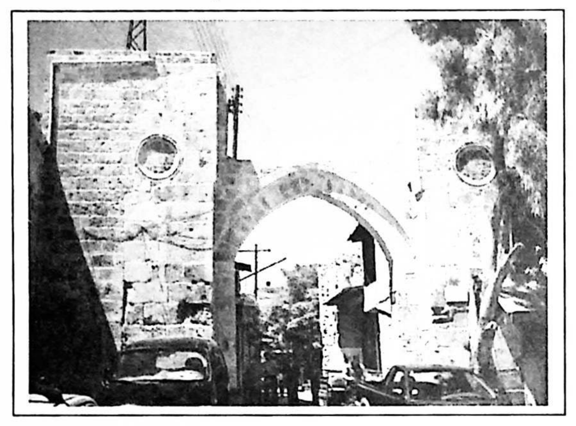
وهي من الإقليم الرابع، وهو أعدلها إقليماً، ولذلك أهلها أنضر الناس وجوهاً، وأصحهّم جسوماً[1]، وقلعتها حصينة مانعة، شاسعة واسعة، يعجز عن أخذها الرائد، وتمتنع عن الطالب والقاصد، تكاد تصافح نجوم الجوزاء، وتناجي أبراجها بروج السماء. ويحيط بها خندق مملوء بالماء على الدوام، وبها باب يسمى المقام، وهو باب إبراهيم الخليل عليه الصلوة والسلام[2]، فحين دخلتها لم أعلم بها مسكناً، ولم أدر بها للوعتي مُسكنا. شعر[1]:

---

(1) في الأصل (حسوماً).

(2) من أبواب حلب القديمة، سمي بذلك لأنه يفضي إلى مقام النبي إبراهيم عليه السلام الواقع في جنوب حلب، ويسمى أيضاً بباب الأربعين، لما قيل من أنه كان فيه المسجد الذي داخله

ومن يَكُ أمسى بالمدينة رحلُه   فإني وقيّارٌ بها لغريب



باب المقام بحلب

فسررت لوجود قاضيها، وناشر لواء العدل بناديها، صاحب الفضائل البديعة، نور الهداية، وصدر الشريعة، من اشتهر فضله في الآفاق، وفاز بها حاز من المعالي، على جملة الموالي بالاستحقاق، وتميز على أخدانه مما شاع له من العدالة والتقوى، واستحق بذلك دون القوم الأمانة على الفتوى، حضرة المولى محمد، الشهير نَسَبه الخطير بشيخ زاده[2]، ضاعف الله عليه فضله وزاده، فحينئذ قرَّ به نظري، ولم تسمع أذني بأحسن مما قد رأى بصري، وأقمت راتعاً في رياض نعمه الجسيمة، متمتعاً بالتشريف غالباً بمشاهدة ذاته الكريمة، وأصبحت بلطفه

أربعون شريفاً، أو محدثاً، أو عابداً. عبد الله السويدي: النفحة المسكية ص208. قلنا: وهو يتألف من ثلاثة مداخل، أوسعها أوسطها وهو المخصص لمرور القوافل والعربات.

(1) البيت لضابئ بن الحارث كما في شرح الأصمعيات لأحمد شاكر وعبد السلام هارون.

(2) هو محمد بن سنان المعروف بشيخ زاده، أصله من بلدة (كيبوزه) - وقد أشار إليها الرحالة - قدم أبوه إلى القسطنطينية، ونشأ هو مشتغلاً بطلب العلم، حتى عد من كبار العلماء، وعينه شيخ الإسلام يحيى بن زكريا في مدرسته التي أنشأها في القسطنطينة، وترقى بعد ذلك في سلك التدريس، إذ وليه في المدرسة السليمانية، ثم في مدرسة آيا صوفيه، ثم ولي القضاء في حلب سنة 1052هـ، فدمشق سنة 1057هـ، فغلطة، ثم أدرنه، وبعدها صار أمين الفتوى لشيخ الإسلام محمد البهائي، فقاضياً في أناضول، وأنقره، وتوفي سنة 1068هـ/1657م. خلاصة الأثر ج3 ص474.

مسروراً، وأمسيت بأنسه محبوراً مجبوراً، ولم أقطع الرجاء من الكريم المتعال، في تلك الأيام والليال، في أن يَمُن علينا بحضرته في الشام، فيُعدُ ذلك من عظيم المرام، [و180] لا برح عمدة لأهل العلم، وعماداً للجود والحلم.

ثم استأنست بسكانها، وتشرفت بأعيانها من الأماجد الفضلاء، والأكارم النبلاء، فأولهم نقيب أشرافها، وصفوة آل عبد منافها، حجازي أفندي المشهور بين الأنام بحسن الأخلاق، المعروف بابن قضيب البان في الآفاق[1]، محيي مكارم حاتم بظاهر نسبه، وباهر جوده وطاهر حَسَبه. ولما شرَّفني بالحضور، أمر بنقلة أسبابي إلى داره، وأنزلني داراً في جواره، جزاه الله تعالى خير الجزاء، في يوم الجزاء.

وممن ابتهج له الخاطر الاصيل العريق، مالك أزمّة البلاغة والتحقيق، معدن العلم والكمال، حائز رتب الفضل والافضال، المتصف بالمفضل الجسيم، مولانا ابراهيم ابن المرحوم العالم العلامة أبي اليُمن[2] مفتي تلك الديار، ومن بعلومه في تلك الأقطار يُشار، فقد تشرفت به بمجلسه، وتمليت بطلعته وأُنسه، أطال الله تعالى بقاه، ونال في الدارين مناه.

وممن رَتَعتُ برياضه المثمرة بأنواع العلوم، من منثور ومنظوم، فارس الشهباء وخطيبها، وعالمها وأريبها، وكاملها وأديبها، ومفردها وكبيرها[3]، ذو المكارم الشاملة، والفضائل الكاملة، مولانا العلامة نجم الدين الأنصاري، الذي لا يجاريه في حلبة الفضل مجاري، وقد كانت الأسماع تتشنف من قبلُ بأخباره، فتشوقت الأنظار لرؤيته بعد قُربِ مَزاره، حتى اجتمعنا، فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري، لا برح نجمه للأنام خير هادٍ، من كل رائح وغاد.

وممن تشرفت بخدمته الشريفة، وتمليت بطلعته المنيفة، طراز حلة الأشراف، وعماد مباني بني عبد مُناف، الأديب الأريب الألمعي اللبيب، المولى السيد

---

(1) هو السيد محمد حجازي قضيب البان بن عبد القادر بن محمد أبي الفيض الحسني نقيب أشراف حلب وابن نقيبها، توفي سنة 1069 هـ/ 1658م ينظر محمد راغب الطباخ: بغية النبلاء ج6 ص287.

(2) له ترجمة في اعلام النبلاء ج6 ص257 و180

(3) في الأصل (كبيبها).

أحمد ابن النقيب، المنفصل عن قضاء القدس الشريف[1]، وذلك البيت المنيف، فجنَيتُ من ثمار آدابه كل يانع مستطاب، وحَشوْتُ صَدَفة أذني من تلك اللآلى الرطاب. ومما أنشدنيه لنفسه غِب التشرف بمجلسه. شعر: [و 181]

ما الكون سوى صحيفة الأكدار　　خُطّتْ لذوي العقول والأفكار

كم موعظة تضمنت أسطرها　　إن أنتَ جهلتها فأين القاري

وأنشدني أيضاً قوله، دامت فضائله السنية، ومكارمه البهية. شعر:

إنا من اناس في سمائه العلى سموا　　وقد افصح التنزيل حقاً بفضلهم

فمن يدعى أصل الجدود فقل له　　أولئك أبائى فجئنى بمثلهم

وقد أنشدته بالمناسبة، في أثناء المصاحبة، بعض أشعار أهل العصر، وفضلاء هذا الدهر، فاستحسن منها ما أراد، حالة الإنشاد والإيراد، فمن ذلك ما كان كتبه بلدينا يوسف عصره، وعزيز مصره، الإمام السلطاني الى المرحوم شيخنا عبد الرحمن العمادي[2]، مفتي دمشق وعلامة زمانه، وذلك حين قُلّد أمر الفتوى، ودرس السليمانية[3]. وهو: شعر[4]:

القلب أصدق شـــاهد　　عَدْل على صدق المحبة

ومن القلوب الى القلوب　　مواردٌ للحب عذبـــة

طوبى لمن يسعى بكأس　　شرابها المختوم شُربَه

---

(1) هو أحمد بن محمد الحسني المعروف بابن النقيب، شاعر ناثر، عالم بالفقه، ولد بحلب، ونشأ فيها وأخذ العلم عن علمائها، ثم سافر إلى القسطنطينية وولي القضاء في القدس مدة، ثم تقاعد عنها، وولي نيابة القضاء في حلب، وله أشعار كثيرة رائقة، وصنف حاشية على (الدرر والغرر) في الفقه، وتوفي سنة 1056هـ/1646م. خلاصة الأثر ج1 ص318 ونفحة الريحانة ص 592.

(2) تقدم التعريف به.

(3) يريد المدرسة السليمانية احدى أهم مدارس دمشق في العصر العثماني، وهي ملحقة بالتكية الكبيرة التي أمر ببنائها السلطان سليمان القانوني سنة 961هـ/1553م وقد صمم بناءها المعمار سنان، أشهر فناني العمارة العثمانية في عصره، وتم بناؤها سنة 967هـ/1559هـ، ويجاورها تكية أصغر، يشغلها اليوم المتحف الحربي السوري وسوق الصناعات الشعبية.

(4) البيتان ليوسف بن أبي الفتح.

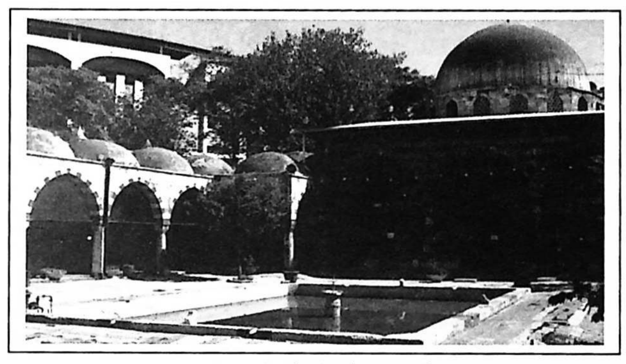
وقد أجابه المولى المذكور، عليه رحمة الملك الغفور، بقوله. شعر:

القلب أصدق من أقامة شاهد بين الأحبة

ومحبة برهانها غير العيان تعد حبَّه

وإن ارتضى المولى بفتوى القلب فليَستفتِ قلبه

أبقاه الله تعالى منهلاً عذباً للواردين، من الفضلاء البارعين.



المدرسة السليمانية بدمشق

وممن تشرفت بحضرته العلية، واجتمعت بخدمته السنيَّة، فارس ميدان البراعة، وحائز أزمة الصناعة، صدر الموالى الكرام، وبدر فلك العز والاحتشام، ذو السيرة العُمرية، والقضايا الشريحية[1]، حضرة المولى عبد الرحمن بن المولى حسام، القاضي سابقاً بدمشق الشام[2]، دامت فضائله على الدوام، فلما قدم خرج غالب أعيانها للاستقبال، وقابلوه بالإكرام والإجلال، لانفصاله عنها، وقرب العهد منها. وقد حصل لي من جنابه غاية الإقبال، ثم عزم على المسير، فودَّعنا جنابه الخطير، فدعاني الشوق والغرام، وقوَّضتُ عن محروسة حلب الخيام.

[حماه]

فلم أزَل أدأب في الترحال، حتى وصلتُ الى حماه، واستقر فيها الحال، ولما أزلت

---

(1) نسبة إلى شريح القاضي، قاضي الكوفة المتوفى سنة 78هـ، وكان يضرب في أقضيته المثل في الانصاف والعدل.

(2) تقدمت الاشارة إليه، وعرفنا به هناك.

[و182] عني السفر، وشرّفني بالحضور مع من حضر، الفاضل الأريب، الحسيب النسيب، الشيخ يحيى ابن المرحوم العلامة، العُمدة الفهّامة، الشيخ عمر الشهير بابن عسكر(1)، فأبرم عليَّ بأن أكون نزيله في هذه الأيام القليلة. شعر:

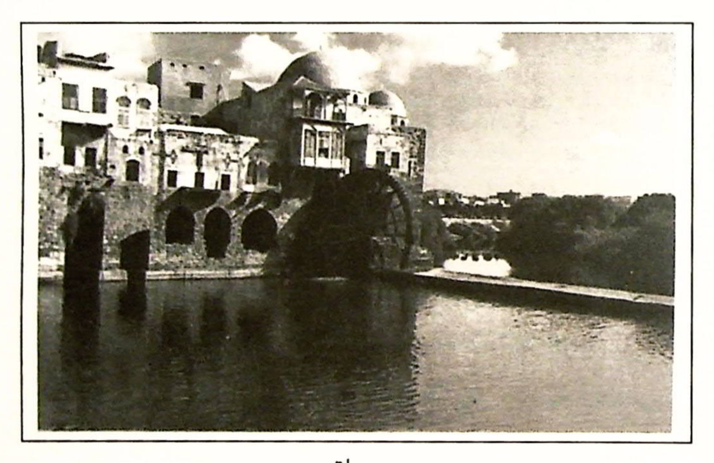
حماة إن جِزتَ بها أنخ هناك الراحلة

وقل لهم محاجياً ما بعد رامة قافلة

فأقمت بها بعض أيام، كما قيل في هذا المقام. شعر(2):

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترَحّل خامسُ

الى أن قدم قاضي دمشق الشام، بقية السلف الصالحين الكرام، عمدة العلماء العاملين الفخام، المولى داود بن با يزيد، فلما تشرفت به قابلني بإكرام ما عليه من مزيد، فلم أزل في خدمته، مصاحباً لحضرته، حتى شممت رائحة عبير الوطن، فتحرك ما عندي من رَسيس الشوق الساكن وقطَن.



حماة

---

(1) هو الشيخ العالم عمر بن عسكر الحموي، له شرح الحموي على متن المقصود في علم التصريف، طبع بالقاهرة سنة 1306هـ.

(2) البيت لأبي نواس.

[دمشق]

ولما بانت لي من دمشق الشام أعلام قاسيون، أجريتُ لرؤيتها من العيون مياه الشؤون[1]، لكنها دموع فرح بها العين قرّت، لا دموع تَرَح غير الأفراح أقرّت. شعر[2]:

هجم السرورُعليَّ حتى أنه　　　من عظَم ما قد سَرَّني أبكانى

فاجتمعت بجملة الأهل والأصحاب، وشكوت لهم ألم الإغتراب، وشكرت سعي الصباح، وتباشرت بالأفراح. شعر:

شكرتُ سعيَ الصباح لمّا　　　وافى

وقلت غفراً لما جنته يـ　　　داك في حالة الوداع

فطفقت أنظم فيها شمل أصحابي، وأتعهد بها منازل خِلاني وأحبابي، وقد قر لي فيها القرار، وطويت شقة البعد وألقيت عصا التسيار. شعر[3]:

وألقت عصاها واستقرَّ به النَوى　　　كما قرَّ عيناً بالإياب المُسافر

هذا ولنصرف الآن عنان اليراع عما أسلفناه في هذه الرحلة، مما شاهدته العين غِب السَماع فالاشتغال بما هو أهم من ذلك أولى وأحرى، وتعليق الأمل بالسعي في رحلة أخرى، وذلك مما أبرزه الخاطر، في غفلات الزمن الغابر، وأظهرته البطالة، وصوَّرَته الملالة، ونمَّقته يد التمنّي، ونطق [و184] به لسان الناس والتأني، وساقته عصا الترحال، والموت به أمنية المُحال، وعطف به الأذهان، عدم نجدة الزمان، وجلبه الى البنان، كساد البضاعة وقلة الإمكان. شعر:

إذا أبصرتَ في نظمى قصوراً　　　ووهناً في البلاغة والمعاني

---

(1) لعلها (الشجون).

(2) البيت لجارية بغدادية كما في (الفرج بعد الشدة) للتنوخي.

(3) هذا البيت مختلف في هوية قائله، ففي العقد الفريد أنه لراشد بن عبد الله السلمي من شعراء صدر الإسلام، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان أن قائله هو أحمد بن محمد المروزي، قالها في المنصور بن المنصور صاحب افريقية .

فلا تنسب لنقصي إن شعري على مقدار تنشيط الزمان

وقد كنت ممن زجَرَ عن هذه الصناعة طبعه، فأنها كما قيل: الياسمين لا يساوي جمعه، ولسان التقصير كما قالوا قصير، فالمطلوب من كل فاضل أديب، وبارع أريب، إذا نظر إلى هذه الرحلة، وتأمل ما فيها من الألفاظ المتنعة السهلة، أن يمد ظل فضله على قصور الهفوات الواقعة فيها، ويغمض عين الإعراض فيما يجده من السهو في قوادمها وخوافيها، فالعذر في ذلك واضح، وتغير الواضح فاضح، فإن لي خاطراً متى تفكر تفطَّر، وإن راجع وتدبر القدر تصبر ،... [1] العذر عند ذوي الإنصاف والإسعاف مقبول، والصفح عن العثرات لديهم مأمول ومسؤول، فاسأله تعالى أن يَستر العيوب، ويَغفر الذنوب ويتوب على من يتوب، لا ربّ غيرُك، ولا خير إلاّ خيرك، أنت المَلاذ في كل أمر مهم، وانت المعاذ في كل خَطبٍ مُلم، جارك لا يُضام، وكنفك لا يرام، أعطِنا سؤلنا في الدارَين، ولا تكلنا إلى سواك طَرفة عين، وأسألك ان تصلّي وتسلم على صفوة أنبيائك، وخلاصة أهل أرضك وسمائك، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه المُستمسكين بما لديه صلاة وسلاماً دائمين الى يوم القرار، ما تسلسلت الأدوار، وما آبَ غريبٌ إلى بلدته ودياره، ونهض حاضر في مهمات أموره وأسفاره. وقد وقع الفراغ من تحريرها عام إثنتين وخمسين وألف في مستهل جمادى الأولى [2]، بلغت من الآمال سؤلا، بمَنّه وكَرَمه آمين.

---

(1) غير واضحة في الأصل.

(2) الموافق 6 آب 1749م.



الرحلة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

أحمدك اللهم حمداً يطلع في منازل ثنائه بدور المعاني، ويبدع بديع إعجازه آيات المثاني، وتتجلى في أفق فصاحته وشفق بلاغته أنوار المشارق مشارق الأنوار، وتتحلى به أعناق معانيه وأطواق مباني بأسرار البلاغة وبلاغة الأسرار، وأصل ذلك بصلات صلاةٍ وسلام، يعوقان زواهر النجوم السيارة وجواهر اللالي، وينتظمان كعقد الثريا بغرر درر الدوام في جيد الأيام والليالي، على سيدنا محمد سيد السادات الأمجاد، ومقتدى كل حاضر وباد، الهادي الى طريق الرشاد، الموضح للسالكين سبيل السداد، الراكب من مطية العز مطاها، البالغ من سدرة الفخار منتهاها، الذي أسرى به فوق السبع الطباق، وتشرفت بلثم قدميه الأفاق، إمام الأنبياء، وسند الأتقياء، وحاتم الأصفياء[1]، وحاتم الأصفياء، وحاتم الكرماء. شعر:

صلى عليه الله ما جَنَّ الدُجى   وبدا الصباح من الظلام بديلا

وعلى أكابر آله من لم يزل حبل الهدى بحبالهم موصول.

وبعد فإني فرع نما في دوحة الشام، وغصن سما بين الأراك والبشام، من فتية ارتدوا أردية المجد، وحازوا قصب السبق في مضمار العُلى عن أبٍ وجد، فمذ زالت عنه قائمه، وتفتحت من أزاهير الشباب كمائمه، لم يزل مغرماً برؤية المدائن والأمصار، وإيداع الأوراق ظرائف ثمار الأخبار، مستنشدا غرر الأشعار، من كل قائل، وسائلاً عن أحوال الاقطار كل قافل، وكأني كرة لعبت بها صوالج الأقدار، أو باقة نرجس تقاذفت بها أمواج الأسفار. شعر[2]:

يخيل لي أن البلاد مسامعي   وإني فيها ما تقول العواذل

وطالما كانت الآذان تسمع عن أخبار مصر المحروسة التي سارت بها الركبان، وإنها كنانة الله في الأرض، ذات الطول والعرض، فسيحة الساحة، عظيمة المساحة، وهي أم الدنيا، وطلقة المحيا، واسعة الأكناف والأطراف، ومواطن الأعيان

---

(1) لعلها (خاتم).

(2) البيت للمتنبي.

والأشراف، بأجلاء العلماء مسكونة، وبنبلاء الفضلاء مشحونة، ممن تشد الرحال لأخذ العلم منهم، وتتضى نجب الآمال لرؤيتهم والرواية منهم، دار سرور ونشاط، وحبور وانبساط، منتزهاتها عديدة، وكل يوم مفترجاتها جديدة، وبها لهو وطرب، وبذلك تفوق ديار العرب. فقلت: إن لسان العيان أنطق من لسان البيان، وشاهد الأحوال أعدل من شاهد الأقوال، وهيهات أن تعادل محاسن الشام، التي يَكلُ دون وصفها الاقلام، لكن الموجود مملول، كما أن المعدوم مسؤول، وما أرخص الماء إذا وجد، وأغلاه إذا فقد، وكان لسان حالها، بل لسان مقالها، ينشد في ذلك لبلوغ هذه المسالك. شعر[1]:

يا ابن الكرام ألا تدنوا فتبصر　　　ما قد حدثُوك فما راءٍ كمَن سَمعا

فرغبت في رؤية جمالها، وقلت لنفسي: لابد لي من حملة في وصالها، فهذه حاجة لنفسي قضيتها، وحجة لأملى أمضيتها، وقد جرت بذلك الأقدار، وأي عشق باختيار، فقمت بعزمي وجِدّي، واقتديت بالعلامة جَدي، حيث سار بخدمة علم العلماء الأعلام، مفتي الروم شيخ الإسلام، المولى شيخ محمد الشهير بجوى زاده[2] المرحوم، فلا جَرَم أن يحذوا الفرع حذو الأصل، وإن لم يدرك الضالع ثناء والضليع في الفضل، فشتان بين رحلتي ورحلته، وشتان بين من سار معه وسرت أنا بخدمته. وقد دخلناها سادس عشري شهر[و186] الصوم[3]، واتفق دخول الجد المرحوم لها في مثل ذلك اليوم، وقد اغترفت من عمان بحره، واعترفت بقصوري عن نظمه ونثره. كيف لا ! والبضاعة مزجاة في كل فن، وقد انضم اليها توزع البال وتشتت الحال لبعد الأهل والوطن، لكن من صنف فقد استهدف، ومن أضاف لم يبال بالسرف، فالمُقر بالعجز يخرج عن تبعة التقصير، ويبرأ بذلك عن عهده المعاذير. شعر[4]:

إن الكرام إذا صحبتهم　　　ستروا القبيح وأظهروا الحَسَنا

---

(1) البيت من شواهد الألفية لابن مالك.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) ويوافق 23 أيلول (سبتمبر) 1649م.

(4) البيت للبهاء زهير.

فإن عثر في ميدانها جواد قلمي، وقصر في بيان كنهها قلمي[1]، فإني على ثقة بأن الجواد الكريم يقيل، والستار الحليم يمحو السهو نعم الكفيل.

وقد سلكت فيها جادة الاختصار، إذ القصر مطلوب في الأسفار، وانما الإطالة على قدر جودة الآلة، ولست لندى مستميحا، ولا للنوال أهدى مديحاً . شعر[2]:

وما رغبتي في عسجدٍ أستفيده   ولكنها في مفخرٍ أستجده

وكان العلة الغائية والفاعلية في رحلتي اليها تلك الايام، تفويض قضاء قضائها الى خلاصة العلماء العظام، مصدر العناية، وصدر الموالي، حاوي الهداية ومجمع المعالي، كنز الحلم والوقار، بحر العلم والفخار، العلامة الأوحد، والفهامة المفرد من غدا في كل علم علم، وفي طريق الوفاء ثابت القدم، الذي طارت سيرته الحسنة في الأقطار، وانشرح به صدر الشريعة فلا زال عالي المنار، وجبلت الطباع محبة ذاته، وانعقد الاجماع على تفرد صفاته، ولم يختلف في شأنه أثنان، ولم يحتج الى حُجَّة واقامة برهان. شعر:

ليس الزمان بصالح إلاّ على   تدبيره في النقض والإبرام

فإن نعت الفكر العميق، والرأي الوثيق، فله منهما فلك يحيط بجوامع الصواب، ويدور بكوكب السداد، كأنه ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق، ويطالعه بين الإفهام والتوفيق، من سِرنا من مشورته في ضياء ساطع، ومن رأيه [و187] الصاحب في حكم قاطع، سالك التقوى والدين، الممسك بحبل الشرع المتين، صاحب الكوكب المنير من يد العلي، اليه تشير شمس أفلاك النظر، الثاقب بدر أفاق المناصب والمراتب. شعر:

لا ينتهى نظر منه إلى رتبٍ   إلاّ ولاح له من فوقها رُتبُ

من غَدَت به غصون العدالة مُورقة، وعيون التهاني اليه من كل جهة متوجهة ومُحدقة، وزهور السرور من رياض فضائله فائحة، وطيور الحبور على أفنان فواصله صادحة، ومخائل الصدارة على شمائله لائحة، وغصن المعالي مزهراً، وإنا

---

(1) كذا كرر السجعة، ولم نقف لأولى السجعتين وجهاً .

(2) البيت للمتنبي.

لنرجو فوق ذلك مظهرا، لا تزيد مقداره النعوت كشفا، ولا تجدد الصفة فيما اشتهر من معرفة مدحه وصفا، فإنه في الحقيقة والود الصادق كالمفرد العَلم، وبه تُضرَب الأمثال، وفي نفس الأمر عديم النظير في جميع أقواله وافعاله في الماضي والحال والاستقبال. شعر:

يفنى الكلام ولا يُحاط بوصفه حسبُ المُبالغ أن يكون مُقصِّرا

أعني به الطَود الراسخ، ذا القدر الشامخ، والنفس السامية، والهمم العالية، من هو كريم العهد، صحيح العقد، صادق الوعد، الحاكم الحاسم، من ثغور علاه بَواسم، بغية المطالب والمآرب، ولا غرو فهو أبو المواهب، صاحب الفضل القديم المولى، الهمام محمد بن عبد الحليم. شعر:

لا زال يرقى في الأيام منازلاً بسعدٍ وإقبال الى الغاية القصوى

ولا برحت مقتعداً صهوات السرور في ظل سعادته، متمطياً غوارب البشرى في أيام صَدارته وسيادته، ما صَلُحَت حال، وبلغت آمال، وهمع[1] نوال، ولمع آل، بحرمة النبي والصحب والآل، فحين قدم الشام، وقابلني بالإقبال والإكرام، وشاهدت من وافي فضله، ووافر لطفه، ما يعجز البنان واللسان من بعض وصفه، قلت لنفسي: قد أقمر ليلك، ووُفي كيلك، وعزمت على المسير، وجزمت على التوجه بخدمة جنابه الخطير[و188] شعر[2]:

ومن خدم الأقوام يرجو نوالهم[3] فاني لم أخدمه إلاّ لأخدما

وذلك لما بيني وبين حضرته العلية، من سابق العبودية، والمواعيد الجليلة الجميلة، والحقوق القديمة التي أضحت أكبر وسيلة، وهي الانتساب الى منيف باب سلطان العلماء، وخاتمة الأسخياء، قطب الزمان وثاني النعمان، أستاذ والدي وأستاذي الأعظم، مولى الموالي، ولي النعم، شيخ مشايخ الإسلام، المولى المرحوم يحيى بن زكريا[4] مفتي الأنام في جميع الآفاق بالاستحقاق. شعر:

---

(1) همع: جرى وسال.
(2) البيت لأبي تمام.
(3) في الأصل (قوالهم).
(4) هو شيخ الإسلام الذي قصده في رحلته الأولى إلى القسطنطينية.

لا زال في جنّات عدن ثاوياً يُسقى بكأس رحيقها المختوم

ثم لما سرت وقلقلت الركاب، وارتكبت مشقة مفارقة الأحباب، وركبت كاهل الخطر، وعلمت ان السفر بنقطة سقر، وسار معي الأهل للتشييع، ووقفنا وقفة التوديع، وودعت الرفاق، وروينا أحاديث الفراق. شعر:

لولا الدموع وفيضهُنُّ لأحرَقت أرضَ الوداع حرارةُ الأكباد

فسرت وساروا بعدما ودعوا، وفي القلب نيران التباعد أودعوا، وغاية المُشيِّع أن يرجع، وعاقبة الضيف أن يُودَّع. شعر:

عسى الله يجعلها فرقة تعود بأحسن مستجمَع

ثم سرت وقلت: اللهم يَسِّر لي ما فيه الخيرة لي في المشارق والمغارب، وجد لي بفضلك - حيث حللت - بجمع ما فيه رضاك من المآرب،أنت الخليفة في الأهل والولد، وأنت لي سند ونِعمَ السند، وانسدَّت نفسي بعد ما سَرَت عن نحو الديارعيسي. شعر:

إن الذي وجهتُ وجهي له هو الذي خلّفت في أهلي

فأنه أرأف مني بهم، وفضله أوسع من فضلي.

وبعد ما بعدت عن رَبوة دمشق ووداديها، وخلّفت القلب وَهناً في ناديها، أنشدت فيها ما قيل بديها. شعر:

رفيقيَّ جاوزنا حدود مواطن صحبنا الأيام طلقاً مُحيّاها

وما أن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنّة سُقياها

فسرنا نحث السيرعنها لغيرها، [و189] الى أن يَمنّ الله يوما بلقياها، فوجهنا محمولين على نجائب العناية الإلهية، والكلاءة[1] الربانية، نقطع المراحل، ونطوي المنازل والمناهل، الآهل منها وغير الآهل، و نفلّي بأنامل المَطّي ناصية الفَلا، ونذرع بباع الرواحل شقة النوى، وننظر في طريق الرمل وأشكاله، ونُكحِّل أبصار الانتظار ببعد أمياله، ونسير ونحن ما بين راكع وساجد في تهجُّد الكَرى، و(عند الصباح يَحمد القوم السُرى)[2]. شعر:

(1) الكلاءة: الحفظ والرعاية.

(2) عجز بيت للصحابي خالد بن الوليد.

ونسأل والدار تدنو بنا عن القرب في كل يوم مرارا
وما ذاك انا سئمنا السرى ولكن قربنا فزدنا انتظارا

[الوصول إلى القاهرة]

فلم نزل نجد بنا تلك القلاص والنجائب، ونطوى في سيرها المَهامه والسَّباسَب[1]، حتى هبطنا مصر هبوط آدم من الجنة، لما وجدتها كما قال ابو الطيِّب[2]: ملاعب جنّة، فكأنها مغاني الشّعب، وأنا المعني فيها بقوله[3]. شعر:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسانِ

فأنختُ بربوعها انضاء مطايا الهِمَم، بعد أن أخذ السير بقايا نشاطها، مُطنباً خيام الإقامة بفناء فسطاطها، وأحطت علما بها فيها، ورأيت ظواهرها وخوافيها، فما هي مصر بل أمصار، ولا تماثلها بلدة في جميع الأقطار، ذات طول ممدود، ولا يكاد يحدها حد محدود، فأسواقها بالأرزاق مغمورة، غير أن بها ضيق، ومنازلها فاخرة معمورة، وداخلها أنيق من الربوع العالية، والطباع[4] التي تكاد تخرق السبع الطباق.

وهي من الإقليم الثالث، ولو حُلف بأن فيها من جميع أهالي البلاد لا يكون حانث، وربما انها تعادل القسطنطينية من جهة الكبر، وتزيد عليها بما فيها من البشر، وبالجملة فالإطناب في حقها إيجاز، والحقيقة في وصفها مجاز، فأنشدت بعد لقياها، لمن كان يشوقني الى رؤياها، وقد كان يعهدها بخلاف ما هي عليه الآن، وقد أقفرت الديار من السكان. شعر:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعهد[5]

---

(1) المهامه جمع مهمه وهي الأرض المقفرة، والسبسب جمع سبابب بالمعنى نفسه.

(2) ديوانه ص247.

(3) نستغرب استشهاده بالبيت، حيث لم يكن النسيج الاجتماعي لمصر يختلف عما هو في دمشق. إلا أن يكون قد أراد أن وفرة الأرزاق فيها دفعت بالكثيرين لقصدها طلباً للرزق، نظير ما فعل هو حينما قصدها طلباً لمنصب قضائي يتولاه.

(4) الغالب أنه أراد الطباق، دلالة على أن من مباني القاهرة ما كان يتألف من عدة طوابق، يعزز هذا اشارته إلى علو ربوعها.

(5) البيت للفرزدق، وفيه: (... التي كنت تعرف).

وقد وافيناها فرحين، وحللناها مستبشرين، وتلونا متمنين (ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ)[1]. ولما قرَّ لي فيها القرار، بعد قطع الفيافي والقفار، أخذت أطوف حول هاتيك الديار، وأسرِّح طرف الطرف بين تلك المعالم والآثار، وقد تحرَّك ما عندي من الوجد الرسيس[2]، إلى إكحال أهداب المُقل بأثمد ثرى أعتاب الإمام محمد بن إدريس[3]، رضي الله عنه وعن بقية الأئمة المجتهدين، وذلك صبيحة يوم الدخول صُحبة بعض الرفاق الشاميين. ثم تشرَّفت بتلك الأماكن الشريفة، والمواطن المباركة المُنيفة، ومن فيها من الصحابة الكرام والتابعين، والعلماء الفخام العاملين. وبمقام السيدة نفيسة[4]، وتباركت بتلك البقاع الأنيسة.

ثم سرت لوفاء نذرٍ وَجَب عليَّ كفرضِ عَيْن، من زيارة قُطَّان سفح المقطم وسكان القرافتين، والتشبث بطراز ذيل العارض، مرقد سيدي وسندي العارف بالله عمر بن الفارض[5]، لا برحت تحايا الإله تتعاهد مثواه. شعر:

---

(1) يوسف ، آية 99.

(2) الرسيس: حمى الهوى.

(3) أنشأ ضريح الإمام الشافعي السلطان الملك الكامل الأيوبي سنة 608هـ/1211م، بمناسبة وفاة أمه، وشيد عليه قبة كبيرة من الخشب المصفح بالرصاص، دفنت تحتها الأميرة شمسة زوجة صلاح الدين الأيوبي، وابنه عثمان، ووالدة الملك الكامل، جدده السلطان قايتباي سنة 885هـ/1480م، ثم أعاد تجديده السلطان الغوري، وتكرر تجديده في العهود التالية، لا سيما في عهد علي بك الكبير سنة 1186هـ/1772م. وعلى قبر الإمام الشافعي صندوق يعد آية من آيات الفن الإسلامي.

(4) هي السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب (رض) دفنت في منزلها بخط السباع، عن شمال الذاهب إلى القرافة الصغرى، وبنى عبيد الله بن السري بن الحكم أمير مصر عمارة على قبرها، ثم عمر بابها أمير الجيوش سنة 482هـ ، وأنشأ الحافظ لدين الله الفاطمي قبة عليها سنة 532هـ، وقد أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء جامع عند هذا القبر سنة 714هـ/1314م، وما زال قائماً، وهو الذي زاره رحالتنا. قال علي مبارك «وقبرها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر،.. وقد زار قبرها من العلماء والصالحين خلق لا يحصى عددهم». الخطط التوفيقية ج5 ص133.

(5) هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي الحموي المعروف بابن الفارض لمهنة أبيه، ولد في مصر، ومال إلى الزهد، وسافر إلى مكة حيث اعتكف في أحد وديانها، وهناك نظم قصائد بالغة الرقة في العشق الإلهي، حتى لقب بـ (سلطان العاشقين)، وتوفي بمصر سنة 632هـ/1235م، ودفن في سفح المقطم في مسجد له هناك مشهور. ابن خلكان: وفيات

ولازالَ خفّاق النسيم مُرَقِقا عليه وأنواء السَّحاب تصوب

فلم أزل أجوب في أطرافها، وأجول في اكنافها، واتعجب في ربوعها الهائلة، واتغرب في قصورها العالية .شعر:

وصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

حتى وقفت بساحة القصرَين[1]، وسرَّحت فيها طرف العين، وأخذت أتعهد جوامعها العظيمة وأتردد الى مساجدها، والحاصل فلا تشابهها بلدة من البلدان، وليس الخبر كالعيان، لما بها من جمع الكثرة التي انتهى اليه منتهى الجموع، والأفراد التي جاوزت الحصر وبلغت الغاية في الشيوع، فهي أكثر من حَصى البطحاء، وأوفر عددا من رمال الدهناء، بحيث إذا ساروا [و191] غطوا الفضاء الواسع، وملأوا الفلا الشاسع، ويضيق عنهم المكان النائي، ويكونون كالجراد المنتشر بحذف كاف التشبيه في عين الرائي، إلى غير ذلك من لوازم الازدحام والكثرة، والوصف الذي لا استطيع حصره، لاسيما رؤية الروايا التي على الجمال والخيول والحمير والسقائن[2] والأحمال، فتضيق منهم الازقاء[3] والاسواق، وتتقبض من ذلك النفوس، ولا يصل المرور إلاّ بكَمال المَشاق. ولله دَرّ القائل حيث قال، وأبان عن الحال. شعر[4]:

يقولون سافر إلى القاهرة ومالي بها راحة ظاهرة

زحام وضيق وحَرٌ وما تثير بها أرجلٌ سائره

الأعيان ج1 ص383 وابن العماد : شذرات الذهب، ج5 ص149 وعلي مبارك: الخطط التوفيقية ج5 ص59.

(1) نشأت هذه الساحة حينما جوهر الصقلي قصراً للمعز الفاطمي عرف باسم القصر الشرقي الكبير، ويقابله من الجهة الأخرى القصر الغربي الصغير، الذي أنشأه للعزيز بالله نزار الفاطمي، وموقع هذا القصر اليوم المكان الذي يشغله مسجد الحسين وخان الخليلي ممتداً إلى المكان الذي توجد فيه المدرسة الظاهرية وقبة الملك الصالح نجم الدين ايوب، وكانت تقام في هذه الساحة الاحتفالات والمواكب الدينية والاستعراضات العسكرية. ويذكر المقريزي أنه كان يتسع لعشرة آلاف من الجنود والفرسان.. الخطط التوفيقية ج2 ص14 و15

(2) يريد السقائين

(3) يريد : أزقة.

(4) البيتان لابن سعيد المغربي كما في نفح الطيب للمقري، تحقيق احسان عباس، ج2 ص345.



بين القصرين

وأسواقها ضخمة إلاّ انها ضيقة، ومبانيها غير محكمة وهن طبقة على طبقة، وترابها أسود تستكدر منه أرجاؤها، ويسوء بسببه هواؤها. وعندما يصل المسافر اليها، ويُقبل المُقبِل عليها، يرى مُرّاً كدراً، وجوا مغبراً، فتنقبض نفسه، ويفر أنسه. وقيل: سُمِّيت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أمرها، لما يرى منها، وقد نظم ذلك بعض الشعراء، وقال عنها مخبرا. شعر:

يقولون مصر أحلَ البلاد — وروضتها جنة زاهرة
نعم هي مصر لأربابها — وللواردين هي القاهرة

ثم سرت الى القسطاس، وأرويت من ماء النيل الغليل، ورويت حديثه المسلسل عن ابن معين[1] في شفاء العليل، وليس في المياه أحلى منه ولا أعذب، ولا أروى منه ولا أخصب. والعجب فيه وجود الوفاء عند عدم الصفا، ويكون أبيض قبل المد الذي يزيد فيه ويفيض على جميع نواحيه، وعند عباب النيل يصير احمر. وفيه قيل. شعر[2]:

حبّذا الفسطاط من والدة — جنِّبت أولادها دار الجَفا
بَرَز النيل اليها كدرا — فإذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمُزن لا تألفهم — خجلاً لما رأتهم لطفا

(1) هو الإمام المحدث أبو زكريا يحيى بن معين البغدادي، ولد سنة 158 وتوفي سنة 233هـ.
(2) الأبيات لإيدمر المحيوي فخر الترك رواها عنه ابن سعيد المغربي كما في الوافي بالوفيات للصفدي ج10 ص2.

وأما بُركة الفيل[1] فيحق بها المقام والمَقيل، لاسيما إذا جرى على لُجَين [و192] الماء ذهب الأصيل، وأشرقت من أفقها كواكب النيل، وهي كالبدر والمناظر فوقها تسر النواظر، وإذا قابلتها الشمس فلها بذلك منظر عجيب، ومرأى حسن ورونق غريب، فمن رأى لطفها، أنشد ما قيل في وصفها. شعر[2]:

أنظر إلى بُركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالأهداب للنظر

كأنها هى والأبصارُ ترمُقها كواكبٌ قد أداروها على القمر

وأما فانه[3] من مُفرّجاتها المشهورة، ومنتزهاتها المعدودة المذكورة، ولا يزال يضعف حاله، حتى يصير الى ما قيل مآله. شعر[4]:

ما زالت الأمحال تأخذه حتى غدا كذوآبة النجم

وأما أيام الوفاء فإنها أعياد، فاقت به على سائر البلاد، فقد وقفت على جسره، ورأيت جَبّره بعد كسره، وتذكرت عند هذا السير العظيم، من دمشق من الأهل مقيم. شعر[5]:

كان السرور يتم لي لو كان أحبابي حضورُ

[زيارة الأهرام]

وأما الأهرام فقد كنا شغفنا بأخبارها في الشام، فلم يتيسر رؤيا الا من بعيد، لعدم رفقة في تلك الايام. وقد هالنا أبو الهَول، وضاق في وصفه مجال القول، واستصغرنا في جنب الهَرَمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكلٌ يأتي في وصفها بما نقله لا بما عقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت

---

(1) تقع بركة الفيل خارج باب زويلة، في شمال شرق السيدة زينب اليوم، ولم تكن بركة عميقة، وإنما كانت أرضاً زراعية يغمرها ماء النيل كل عام في زمن الفيضان، وقد تحولت إلى حي سكني في العهد الأيوبي. ينظر عبد الرحمن زكي: القاهرة منارة الحضارة الإسلامية، القاهرة 1979، ص50.

(2) البيتان لأبي سعيد المغربي كما في المقريزي: المواعظ والإعتبار في الخطط والآثار ج 1ص70.

(3) هنا كلمة نسيها الناسخ، وربما كانت (النيل) فإن الكلام ما زال متصلاً به.

(4) البيت للرصافي (محمد بن غالب البلنسي) كما في أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، بيروت 1388، ج3 ص345.

(5) ورد البيتان في الرسالة القشيرية غير منسوبين لأحد.

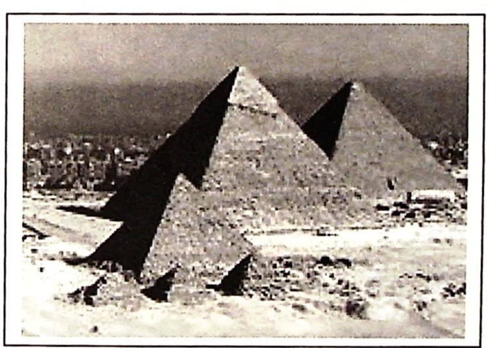
الأفكار عن توَهُم حدوده، فيا له من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية في آبائه وجدوده، وسُمّار الأخبار تذكر حديث أحداث عاده وثموُده، ويَدلّ إحكامه وعلوه على علو همة بانيه في بأسه وجوده. شعر:

إن البناء إذا تعاظم قدرُه　　　أضحى يَدلّ على عظيم الشانِ

وإن في الأرض الهَرَمين، كما إن في السماء الفرقدَين، وهما كالطودين الراسخين، وكالجبلين الشامخين، قد فنيت الدهور، وهما باقيان، وتقاصرت القصور وهما راميان، وكأنهما لأم الأرض ثديان، وعلى ترائب التراب [و193] نهدان، ولسلطان العالم عَلمان، وإلى مراقي الأملاك سلّمان، وهما لليل والنهار رقيبان، ولرضوى وشمام نسيبان، ومن زحل والمريخ قريبان، ولشخص الكرة الترابية ساقان، ولله درّ أبي الطيِّب حيث قال، وأفصح عن المقال: شعر[1]:

أين الذي الهَرَمان من بنيانه　　　ما قومه ما يومه ما المصرَع

تتخلف الآثار عن أصحابها　　　حيناً ويدركها الفناء فتتبع



هذا ثم إني تشرفت بساداتنا السادات بني الوفاء[2]، وتباشرت حيث حصل الإلهام

---

(1) ديوان المتنبي ص112.

(2) السادة الوفائية من ذرية الشيخ محمد وفا (المولود بالإسكندرية سنة 702 والمتوفى بالقاهرة سنة 765هـ) بن محمد بن الشيخ محمد النجم النازح من صفاقس إلى الاسكندرية، وهم من ذراري الأدارسة الحسنيين في المغرب، وقد أنشأ محمد وفا زاوية في اخميم في مصر، واعتكف عابداً في القاهرة حتى وفاته، وله مؤلفات. وقد وصف بأنه «من أكبر العارفين».

بأبي الإمداد على حصول المَدَد والصفاء، الذين ببركة أنفاسهم القدسية تتبهج الدنيا، وعلى عماد سيادتهم يضرب خيام المجد والتقوى، فهم روح أجساد من بهذه البلاد، من التجأ اليهم ينكشف عنه كل غم وهم، ويزول عنه ببركتهم ما يشكوه من ألم، ويحق لمن ينتسب اليهم، أن يجر ذيل الفخار على المجرّة والنعائم، وأن يتناول الثريا قاعدا غير قائم، كيف لا ! وهم إنسان عين الزمان، وبهم يفخر العصر والأوان، ذوو النسب الباذخ، والحَسَب العاطس من أنف شامخ، في نواصيهم يتلألأ نور السيادة، ومن مَفرق طُرّتهم ابتهاج صُبح السعادة، ثغور علاهم بَسأمة، والسيادة لهم علامة، شعر[1]:

جعلوا لأبناء الرسول علامة	إن العلامة شأنَ مَن لم يُشهَر
نور النبوة في كريم وجوههم	يُغني الشريف عن الطراز الأخضر

كتبت الى نور غُرَّتهم، وقيد جيش أسرتهم، مولاي وسيدي، وملاذي وسَندي، أبي التخصيص عبد الوهاب[2]، لا برح ممتطي كاهل السحاب، نجل الأستاذ العارف بالله تعالى سيدي أبي الإسعاد، وذلك تهنئة بعيد الأضحى، والفكر من سكر الغُربة ما صحا . شعر:

مولاي حماك كعبة القصَّاد	نسعى ونطوف حول ذلك النادي
فأبقى واسلم في ظل عيش رغد	يزهو ببقاك رونق الأعياد

وله ذرية صالحة منها من التقى بهم المؤلف على ما سيذكر. عبد الباقي الزرقاني: النفحة الرحمانية في نسب السادة الوفائية، مخطوط في مكتبة الملك سعود بالرياض، برقم 5916، الورقة 5-20. والسخاوي: الضوء اللامع ج6 ص21. وينظرمحمد توفيق بن علي البكري: بيت السادة الوفائية، القاهرة 1938م.

(1) البيتان لأبي عبد الله محمد بن أحمد الهواري المعروف بابن جابر الأعمى صاحب شرح الألفية.

(2) هو عبد الوهاب بن يحيى أبي اللطف بن أمين الدين بن عبد الرزاق بن ابراهيم أبي المكارم بن محمد أبي الفضل بن ابراهيم أبي المكارم بن أبي الفضل محمد بن أبي المراحم بن عبد الرحمن بن أحمد بن حمد وفا، المذكور جد السادة الوفائية، ولد سنة 1030هـ/1620م وتفقه على أعلام عصره، في مصر والمدينة، وتتلمذ على يدي العلامة علي الشبراملسي، وله ديوان شعر، ينظر الزرقاني: النفحة الرحمانية، الورقة 33، ولم يذكر وفاته لأنه كان حياً حين ألف كتابه سنة 1088هـ/1677م..

ثم تشرفت بتلك المنازل الفائقة بمن حلها على سائر البقاع، [و194] وقد كان بأوصافهم تشنفت الأسماع. شعر:

حتى اجتمعنا فلا والله ما نظرت عيني بأحسن مما قد رأى بصري

عين أعيان هذه القادة، وثمين دُرّ هذه القلادة، فرعَي أغصان الدوحة البكرية، وفَنَني الشجرة الصدِّيقية، التي لم لـ[1] من البركة والسمو في النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، الشقيقين الفرقدَين، بل الشمسين والقمرَين، المَولى عبد الرحمن مفتي السلطان على مذهب الإمام النعمان، والأوحد الأمجد، العَلَم الفرد، المولى شمس الملة والدين محمد، فهما تاج رؤوس من بها من العلماء الأعلام، ورونق الليالي والأيام، بهجة الجميع، ورداء حسنها البديع، من أضحت لهما في العلوم الحقيقية الرتبة الشامخة، والمعارف الإلهية القدم الراسخة، وهما فرسا رهان، ورضيعا لبان، ولا أقول نهران فإنهما بَحْران، وقد حصل لهما من طرف السلطنة العلية الإنعام برتبة قضاء بيت الله الحرام، وتشرفت بهما المراتب الدنيوية، لما سعت نحوهما رتبة المولوية[2]، ولو لم يكن لهما من عموم الشرف إلاّ خصوص هذه النسبة لكفاهما ذلك في الفخر وعلو الرتبة، وناهيك فخراً بأنهما ذرية من اختاره الرسول للصحبة والمصاهرة، واصطفاه للخلافة على ملته وشريعته الظاهرة، فيحق لأهل السنة والجماعة أن يطوفوا ويسعوا الى هذا البيت في كل وقت وساعة، فيا له بيت عموده الصبح وطينته المجرَّة، ومن ادعى نبياً يضاهيه فتلك منه معرَّة، إن تكافأت[3] البيوت في الشرف فعلى شرف هذا المُعوَّل، او تطاولت في الأنساب فدعائم هذا البيت أعزُ وأطول، وإني لأحمد الله تعالى على أن طبعني على المُغالاة في حبهم، وجَبَلني على الموالاة لأهل البيت ولأهل نسبتهم. ولله دَرّ شيخي وأستاذي العالم العلامة عبد الرحمن العمادي مفتي دمشق الشام، حيث قال في آل البيتين ملمحاً الى بيتي أبي تمام حبيب، [و195] فإنهما حق بمضمونهما عند كل أديب. شعر:

---

(1) كذا في الأصل.

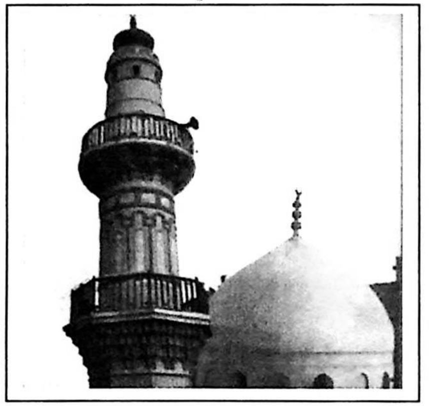
(2) المولوية رتبة تعني مناصب القضاء الكبرى في الدولة العثمانية. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ج1 ص467.

(3) في الأصل (يكافات).

صحَّ عندي في آل بيت حبيبي	ثم آل الصديق أقول حبيبي
أي شعب حَلّوا به حيث كانوا	فهو شعبي وشعب كل أريب
إن قلبي لهم كالكبد الحــرّى	وقلبي لغيرهم كالقلـوب

وقد عرضت عليهما رسائل الوداد الموروث عن الأجداد، المُحكم الطارف والتلاد.

ثم تشرفت بسليل الأولياء، سيدي يحيى حفيد قطب دائرة الديار المصرية، سيدي عبد الوهاب الشعراوي[1]، صاحب الطبقات العلية[2]، والعهود الوفية، المتخلق بأخلاق شريفة نبوية، المُتحلّي بحِلل منيفة مصطفوية، مُظهر أنوار الجمال الأحمد، ومظهر أسرار الكمال المحمد، من سلك مسلك آبائه العارفين، واهتدى بهدي سلفه المرشدين، فحاز بكسر النفس وخفض الجناح، ما تميّز به على أهل الأحوال والصلاح، قد اقتفى آثار أبائه وتابع أجداده، فله جد معروف في الطاعة وخلوص في العبادة، وتلتمس منه الدعوات الصالحة، ويُتبرَّك به وبأسلافه ذوي النسمات الطيبة الفائحة.



مقام الشيخ الشعراني

---

(1) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني، أو الشعراوي، نسبة إلى قرية في نواحي المنوفية تدعى (أبو شعرة) عاش فيها في شبابه، أخذ العلم عن كبار مشايخ بلدته، وانتقل إلى القاهرة سنة 911هـ/1505م، حيث واصل الدرس على أيدي علمائها ومشايخها من الصوفية، ولذا فقد عرف بعلمه في الفقه، وبالتصوف معاً، وألف فيهما، وفي علوم العربية، نحواً من ثلاثمائة كتاب، توفي بالقاهرة سنة 973هـ/1565م.

(2) يريد كتابه المسمى (الطبقات الكبرى) وهو في تراجم الصوفية.

ثم بسيدي محمد[1] شيخ الطائفة الخلوتيّة، ومظهر الأسماء الإلهية، ومالك زمام الواردات الرحمائية، مثبت إقدام المُريدين على صراط الطريقة، وحامل أرواح السالكين على زقاق الأسماء الإلهية في مدارج الحقيقة، وحافظ خزائن أنفاس التوحيد، وفاتق رَتْق قلب كل سالك ومُريد، من اشتمل على مجاهدات تلحقه بمقام الأبدال[2]، وتحلي بشعار يعرب عن كمال النعوت ونعوت الكمال، مع ما ضم الى ذلك من فضل عزيز وحسن سيرة، وسلوك أدب مع صفاء سريرة.

ثم عجتُ إلى رياض العلوم المُزَهَّرة بأصناف الفنون من منثور ومنظوم، فجنبت زهر الآداب من تلك الحدائق الرحاب، فكان بيت قصيدها، وواسط عقدها وفريدها، مالك أزمة هذه الصناعة، وفارس حلبة الإجادة والبراعة، جناب المولى الشهاب[3]، إنسان عين المولى[و196] وزيدة الأحقاب. شعر[4]:

علامة العلماء واللُج الذي لا ينتهي ولكل لُج ساحل

قد أشرقت بشموس علومه أفلاكها، ولمع بسنان النطوق والمفهوم سماكها، وتحلّت أجياد الطروس بعقود ألفاظه، وراجت نقود آدابه في سوق عكاظه، قد اتفقت كلمة أنه واحد عصره بلا خلاف، وأقرت له علماء دهره بالإعتراف. فانتهت اليه اليوم بلاغة البلغاء. فما تُظِل الخضراء - ولا تقل الغبراء- في زماننا أجري منه في ميدانها، وأحسن تصرُفاً لعنانها، وأما فنون الآداب فهو ابن بَجْدتها. وأخو جملتها. وابو عذرتها، ومالك أزمتها. شعر[5]:

فان أقرَّ على رق أنامله أقرَّ بالرق كتاب الأنام له

---

(1) هو الشيخ محمد بن أحمد بن علي البهوتي المعروف بالخلوتي، عالم جمع بين التصوف وعلوم التفسير والفقه والعربية وغيرها، ولد بالقاهرة، وفيها ترعرع وأخذ العلم عن علماء أسرته وغيرهم، ولازم العلامة نور الدين الشبراملسي وأخذ عنه الكثير، وولي التدريس والإفتاء، وله مؤلفات جمة، توفي سنة 1088هـ/1677م. المحبي: خلاصة الأثر ج3 ص390 والزركلي: الأعلام ج6 ص12.

(2) مصطلح صوفي يراد به أن قوماً من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، فإذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر.

(3) هو شهاب الدين الخفاجي وقد تقدم.

(4) البيت للمتنبي.

(5) البيت لأبي الفتح علي بن محمد الكاتب البستي.

وقد سقت عيون قريحته المسائل، ويَسَقت روضة أغصان الفضائل، وسلك سبل الشرائع بهدايته، وملك ازمة التحقيق بروايته، فصار عزيز مصره وقاضيها[1]، وناشر لواء العدالة في نواحيها، وبنى وشَيَّد بأيدي تحريراته معالم التنزيل، ونضا قناع خفايا الأسرار بمحكم التأويل، فكم أبدع بما أودع في خبايا الزوايا، فيما في الرجال من البقايا، فنظمه نسمات السَحَر، وقائد النحر، وغمرات الألحاظ المراض، وعطفات الحسان بعد الإعراض، ونثرُه النثرة[2] إشراقاً، وحباب الصهباء رونقاً واتساقا. شعر:

فقر لمّا يَزل فقيراً اليها كل مُبدي فصاحةٍ وبيانِ

وقد حصلت على ضالتي المنشودة من لُقياه، وظفرت بالكنز الذي كنت أتوقعه وأترّجاه، وشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالاً على فضائله، فجنيت من زهور آدابه كل يانع مُستطاب، وحَشوتُ صدفة أذني من تلك اللآلي الرّطاب، ثم بالمولى أنسى نخبة الموالي، ويتيمة المعالي، رفيق الجود وخليله، وزميل الكرم ونزيله، وغرّة الدهر وتحجيله، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله، جامع أشتات الفضائل، حاوي أصناف الفواضل،

ذو الاخلاق العذبة [و 197] المذاق، فنفحات الأزهار من آدابه، ونسمات الأسحار عطر أذياله وأهدابه، مفرد ديار الروم، طويل الباع في المنثور والمنظور. شعر[3]:

ألذ من الصهباء بالماء نظمه وأحسن من يسر تلقاه مُعدَم

مُحلّي أجياد الفضائل العاطلة، ومُروّي حدائقها الذابلة، قد فاح ثناه معطراً، ولاح كوكب مدحه مُزهراً، وهو فارس لا يُلحق، وبطل في ميدان الجواد لا يُسبق، عبير أوصافه اضاء فى الآفاق وعَبَق. جمعتني وإياه عدة مجالس، وكان أنسه لي مؤانس، وكنت على بَرَح اشتياق اليه، لما اشتهر من الفضائل لديه. شعر:

---

(1) هو محمد بن عبد الحليم البورسوي قاضي قضاة مصر، ومقصود المؤلف من رحلته إلى القاهرة، وقد تقدم.

(2) النثرة: عنقود من النجوم في صورة السرطان، وهو الثامن من منازل القمر.

(3) البيت للمتنبي.

ولما تلاقينا وجدتُ محاسناً   من اللطف أضعاف الذي كنت أسمعُ

والله سبحانه يطيل بقاه، ويَمُن على بلقاه، ولا يقطع عني أنباه، عسى الله وعساه، فإني أذكره وإن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبي وان كنت لا ألقاه. شعر:

وكيف أنسى وقتَ أُنسي به   وذِكْره ما غاب عن خاطري

ثم بخلاصة المحققين، المولى سَرِي الدين[1]، من سرى حديث فضله بأنه واحد عصره، وطار طائر صيته بأنه مفرد دهره، قد ضربت البراعة رِواقها بناديه، ولم يزل بديع البلاغة من كثب يناديه، طلاّع ثنايا المشكلات، وسبّاق غايات المعضلات، مفتاح رموز الدقائق، وموضح كنوز الحقائق، مغنى اللبيب بإيضاح تقريره، وكشاف أسرار البلاغة بحسن تحريره، صائغ جواهر العلوم بأكمل صياغة، عالم بالأصول والفروع ،وعارف بالمعقول والمشروع، مالك أزمة علمي المعاني والبيان، والمشار اليه فيهما بالبنان، ناشر ألوية المعارف، ومُسدي أنواع المعارف، تهتدي الفقهاء بعلمه، وتقتدي البلغاء بسرعة قلمه، رونق روض العلم بالمحفوف بفنون العلوم، المزهر بالأدب الغض المُونّق الرائق بالمنثور والمنظوم، قد قصرت ألسن البلغاء عن إدراك عُلاه، وزانت صدور الفصحاء والدواوين حلاه. شعر:

فضائله قد جاوزَ الحَدَّ حصرُها   أقرَّ بها عَرَب الورى والأعاجمُ

[و 198] تشرَّفتُ بمجالس دروسه، واقتبست من أنوار شموسه، فخصّني بفرائد فوائده، وقلد أعناق فضائلي ثمين قلائده.

ثم بنقيب السادة الأشراف السيد برهان، سليل آل عبد مناف طراز عصابة بني هاشم، وغرَّة وجه المكارم، ذي الحسب الظاهر، والنسب الطاهر، والأخلاق الزاهرة، والخصال الباهرة، المُرتضِع من المكارم أخلافها، والمنتجع من المحاسن أكنافها، طلعته طلعة جُود كَسَت الصباح إشراقها، وذاته ذات مجد تمنَّت المعالي طِباقها، تميز على أقرانه بالرتبة الشريفة، وانسلك في سلك الموالي ذوي الرُتب

---

(1) هو محمد سري الدين ابن الصائغ، رئيس الأطباء في مصر عهد ذاك. وسيذكره المؤلف فيما يلي ويثني عليه، ومما يلفت النظر أن جده محب الدين التقى بمن اسمه سري الدين ابن الصائغ رئيس الأطباء بمصر وأثنى عليه، وبعيد أن يكون من يشير إليه هنا، فرحلة الجد سبقت رحلة الحفيد بنحو 80 عاماً، فلعله سميه.

المنيفة، قد ارتفع على الحال محله، وذلك بعد انفصاله عن قضاء المَحَلّة[1]، وحاز الطريقين، وفاز بالرُتبتين.

[الجامع الأزهر]

هذا ثم أويت بعد ما ارعَوَيت إلى صحن جامعها الأزهر، وقد أقمَرَ ليل منادي وأزهر، وهو أشهر من أن يُذكر، فكل بَركة في هذه الديار، فمن بَركة ما يُتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار، من تلاوة القرآن العظيم، وإملاء حديث النبي النبيه الكريم، وأصول الدين وبقية العلوم، كما هو مشهور معلوم، به من الرُونق والرّواقات[2]، وانبساط النفس في جميع الساعات، ما لا يوجد في غيره من

---

(1) هي المحلة الكبرى، إحدى أكبر المدن المصرية اليوم، ذكر ابن بطوطة سنة 755هـ/1354م أنها «جليلة المقدار، حسنة الآثار، كثير أهلها... ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة» (تحفة النظار ج1 ص5) ووصفها علي مبارك سنة 1888م بأنها قصبة كورة الغربية وأكبر مدنها بل لا يزيد عليها في الكبر من مدن الوجه البحرى إلا الإسكندرية وموقعها على ترعة الملاح فرع بحر وبها قصور مشيدة بالبياض النفيس ومناظر حسنة بشبابيك الخرط والزجاج ومفروشة بالبلاط والرخام وقيساريات وحوانيت وخانات وأسواق دائمة يباع فيها الأنواع المختلفة من مأكول وملبوس وغير ذلك وفيها نحو أربعين مسجد غير الزوايا الصغيرة واكثرها عامر مقام الشعائر والجمعة والجماعة.. الخ. قلنا: وهي اليوم كبرى محافظة الغربية ودلتا النيل، تبعد عن القاهرة بنحو 110كم، وعن الاسكندرية بنحو 120 كم.

(2) من غير المحدد التاريخ الذي شهد نشوء أولى التجمعات العلمية المستقرة لطلبة العلم في الأزهر، ومن الراجح أنها نشأت في عهد المماليك، أو في أواخره على وجه التحديد، وسبب ترجيحنا هذا أنه ما أن انقضت صفحة آخر دولة مملوكية، ودخلت مصر في سيادة الدولة العثمانية، حتى وجدنا أن أكثر تلك التجمعات تنشئ لها (أروقة) لها داخل الجامع، تقترن بأسماء الأقطار الإسلامية التي وَفدت منها، فكان ثمة أروقة خاصة بالشوام (الشاميين) والأتراك والجاويين والمغاربة والصعايدة والبغداديين والهنود وغيرهم، وصرح الرُحالة التركي أوليا جلبي في أثناء إقامته في القاهرة في سنة 1083هـ/1672م بوجود طلبة من خمسين أمة يقيمون بأروقتهم المخصصة لهم حول صحن الجامع، ويعملون دوماً على تعلم علوم مختلفة، ونَوّه بأسماء بعض هذه الأروقة، فكان منها (رواق الأكراد)، إلى جانب أروقة (الروم) أي الترك، و(الفُنج) من السودان الشرقي، و(البلخي) و(التُستر) و(العجم) و(الداغستانيين)، وأن «أوقافه هائلة يقصر اللسان عن وصفها». سياحتنامه مصر، ترجمة محمد علي عوني، القاهرة 2003، ص272وفي التاريخ نفسه زار الرحالة ابراهيم الخياري المدني الأزهر فأعجب بالحياة العلمية فيه، وقال «وأما وضعه فأروقة تحيط بجوانبه الثلاثة، يختص كل رواق منها بطائفة مخصوصة».

الجوامع، مع كمال نظافتها وتزخرفها بأنواع النقوشات، وذلك سرٌ مُودَع فيه، وهو أكبر دليل على خلوص نيَّة بانيه، ولا غَرْوَ فإن لله خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وقد وجدت فيه من الأنس ما لا يمكن عنه وصف، وبه من أهل الله الواصلين الى رَبِّه الكشف، لو اقسموا على الله لأبرَّهم، ولو سألوا منه دوام السرور لمنحهم ما سَرَّهم، وبه جم غفير لا يعلم بعددهم إلاّ العليم االخبير.



صحن الجامع الأزهر

[لقاء العلماء]

ولقد لقيت به من العلماء والفضلاء النبلاء، والشيوخ والمُحدّثين الصلحاء، والمحدثين الفقهاء من هم بقية السلف الكرام، وعَيّن الخلف الفخام، كالعالم العامل العلامة، والبحر الحبر الفهامة، الشيخ المُعمّر علي الأجهوري[1]، وقد تزايد بلقياه

---

(1) سماه معمراً لأنه عاش نحو 99 سنة، فإنه ولد سنة 967هـ/1559م وتوفي سنة 1066هـ/1655م، وكان شيخ المالكية في عصره في القاهرة، نسبته إلى (أجهور الورد) في ريف مصر، وكان محدثاً فقيهاً، درّس وأفتى وألف، ورحل الناس إليه طلباً لفوائده، وله مؤلفات

سروري، وهو كبير علمائها، وشيخ شيوخ [و 199] إسلامها، إمام أئمة الفروع والأصول، محرر المعقول والمنقول، مُهذّب مذهب إمام دار الهجرة مالك، ومن أصبح لازمة الخلاف دون أصحابه مالك، عمدة الفقهاء والمحدثين، قدوة العلماء أئمة الدين، المنفرد في علوم الحديث بعلو الأسناد، والمنفرد بصحيح الرواية عن الجمع وترك الآحاد، بقوة حدسه الصائب وصفاء سريرته، حيث أضيف نور بصره الثاقب لأنوار بصيرته، قطب مصر وزمانه، وحافظ عصره وأوانه، فمثلت بين يديه، وتشرفت بقراءة حصة من صحيح البخاري عليه، واستجزت منه فيما له من رواية ودراية، ومشيخة هي لهذا المَرام أشرف غاية، فأجاز لي بكل ذلك متفضلاً مُشهدا بذلك عَليه تلامذته الفضلاء، بعد أن أمر بعض أفاضل حاشيته أن يكتب ثبتاً بذلك موشحاً بدر نظام مشيخته، وها هي عندي يتيمة، ولديَّ غالية القيمة، وكالعلامين المعتمدين العالمين العاملين الإمامين الهمامين الشيخين الجليلين الأخوين: شهاب الدين أحمد(1)، وشمس الدين محمد(2)، أما شهاب فهو قرة عين الإمام الأعظم أبي حنيفة وصاحبيه، من انتهت رياسة الحنفية بالقاهرة المُعزّية إليه، سراج المذهب. وأما الشمس فهو قرة عين الإمام محمد بن إدريس، ودر تاج جوهرها الغالي النفيس، رئيس الشافعية بالديار المصرية، مُعوَّل عليها عند جمهور

مهمة أكثرها في شرح متون معتمدة في العقائد والفقه والنحو. ترجم له المحبي في خلاصة الأثر ج3 ص157

(1) هو أحمد بن أحمد شهاب الدين الشوبري المصري الفقيه الحنفي، شيخ الحنفية في زمانه، قال المحبي «كان إماماً في الفقه والحديث والتصوف والنحو»، ولد ببلده (شوبر) ورحل مع أخيه شمس الدين إلى (منية الروح) حيث تتلمذا على الشيخ أحمد الشناوي، وأخذ عنه التصوف، ثم جاور في الأزهر سنين، وأخذ عن شيخ الشافعية محمد الرملي، وطار صيته حتى لم يبق من علماء الحنفية في مصر والشام إلا وأخذ منه، ولقب بأبي حنيفة الصغير، وذكر المحبي أن والده مؤلف هذه الرحلة «لقيه عند منصرفه إلى القاهرة سنة سبع وخمسين»، مع أنه ذكر في ترجمته أن رحلته إليها كانت سنة 1059هـ/1649، وتوفي سنة 1066هـ/1655م. خلاصة الأثر ج1 ص174.

(2) هو محمد بن أحمد الملقب شمس الدين الخطيب الشوبري الشافعي المصري، ولد سنة 997هـ/1589م وتتلمذ على يدي محمد الرملي مدة ثماني سنين، حتى أجازه بالإفتاء والتدريس سنة 1008هـ، وقصده كثير من العلماء، وألف كتباً كثيرة، منها حواش على كتب فقه الشافعية المهمة، مثل (المحرر) و(التحرير)، وتوفي سنة 1069هـ/1658م. خلاصة الأثر ج3 ص385.

الأنام، الخاص منهم والعام، اقتبست من أنوار الشهاب، وقرأت عليه بحضور بعض أفاضل الطلاب، من أوائل الهداية، وأجازني بما له من رواية ودراية، وها هي عندي بخطه مضبوطة بضبطه.

وكالعلامة من ثغور فضائله بسّامة، الشيخ المأموني إبراهيم[1] صاحب الفضل الباهر وكرم الخيم، زاكي الأصل، ونامي الفضل، قطب دائرة أفق التحقيق، ومركز إحاطة سماء التدقيق، شمس فلك الكمال، بدر منازل الجمال، وارث الفضل كابرأعن كابر، أخذ الفخر عن أسرةٍ ومنابر، عالم بالمنقولات، وعلم في المعقولات [و 200] حلل المجد لباسه، ونور العلم اقتباسه. يقطر من ألفاظه ماء الفصاحة، وتعبّق من أخلاقه نفحة السماحة، كامل في سائر الفنون، وفاضل يملأ بمحاسنه الآذان والعيون، لاسيما على المعاني والبيان والتفسير والعربية، وما ضاهاها من الفنون العقلية والأدبية، فانه مالك صناعتها، وفارس ميدان براعتها، وبيده زمامها، ولا بَدع فإنه ابن إمامها وهمامها.

وكالشيخ الكامل والعالم العامل الشيخ سلطان[2] صاحب التحرير والإتقان، شيخ القراء بالقاهرة على الإطلاق ومرجع الفقهاء بالإتفاق، صدر أهل العلم الراسخين، وبدر النحاة والأصوليين، رافع لواء مذهب الإمام محمد بن إدريس

---

(1) هو إبراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقب برهان الدين الميموني، نسبة إلى ميمون من صعيد مصر، ولد سنة 991هـ/1583م، ونبغ نبوغاً ظاهراً في العلوم العقلية والنقلية، حتى صار آية في علوم التفسير، وكتب فيه حاشية على تفسير البيضاوي، كما اشتهر بعلوم العربية، وألف فيها أيضاً، ترجم له المحبي وقال أنه كان «حسن الخلق، فصيح اللسان، وجيهاً مجللا عند عامة الناس وخاصتهم». توفي سنة 1079هـ/1668م. خلاصة الأثر ج1 ص45.

(2) هو سلطان بن أحمد بن سلامة بن إسماعيل المَزّاحي (نسبة إلى مَزّاح قرية بمصر) المصري الشافعي، أخذ علم القراءات عن شيوخه، وأتقنه، وأخذ الفقه عن كبار علماء عصره، حتى أجيز بالافتاء والتدريس سنة 1008هـ/ 1599م، وتصدر للتدريس في الأزهر، فكان يقرئ الفقه إلى قبيل الظهر، وبقية أوقاته موزعة لاقراء غيره من العلوم، وله مؤلفات نافعة في علم القراءات، وتوفي سنة 1075هـ/1664م. ترجم له المحبي وقال: ذكره الوالد- رحمه الله تعالى- في رحلته، فقال في وصفه..» ونقل ما أورده المؤلف هنا بحرفه. خلاصة الأثر ج2 ص210. وينظر الزركلي: الأعلام ج3 ص164 وكحالة: معجم المؤلفين ج4 ص238.

الهمام، مَنْ حظّه في العلوم موفور، وسعيه فيها مشكور، ومُعوّل عليه في منقولها، ومُطلع على فروعها وأصولها، منهاج الطلاب، وقدوة أرباب الفرائض والحساب، لم يغادر من قواعده كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ولم يدع من مسائلة جليلة ولا حقيرة إلاّ استولى عليها وحواها، واما حسابه الصحيح فليس عليه غبار، ورجحانه على أقرانه معلوم بميزان الاعتبار، لو رآه صاحب السراجية[1] لاقتبس من أنواره، أو أدركه ابن الهائم[2] لأفاق من هَيَمانه واهتدى بآثاره، قد رجع علماء العصر الى مقاله، وعالهم بموائد فوائده فأصبحوا في هذا الفن من عياله، ولا غَرو فإنه الآن لعلماء الأزهر سلطان.

وكالشيخ الإمام، والعالم الهمام، من كان له تبكيري وغلسى شيخي الشيخ علي الشبراملسي[3]، عمدة أهل الفقه وقرة عين الأصحاب، وشيخ اللغة والمعاني والبيان والإعراب، سيبويه زمانه، وثاني الخليل نحوا وعروضا، وعمدة مذهب الشافعي مسنوناً ومفروضاً، وله في الحديث السند العالي، وعلم القراءة يؤخذ من دَر لفظه الغالي. واما الحساب والفرائض، فهو فيها البحر الفائض، وقد أضحى في العلوم، من منطوق ومفهوم، علما لإيجاري، وغيث فضل لا يبارى، كيف لا! والعلم مدينة وعليٌ بابها، وكعبة فضل حَجَّت اليها طلابها. [و201] قد رضى من العيش بالكفاف، وسلك طريق الزهد والعفاف، ووقف نفسه وقفاً مُحبَساً على العلم والإفادة، وصرف نور بصره، واخلص لله عز وجل في العلم والعمل والعبادة.

---

(1) السراجية متن مشهور في علم الفرائض، من تأليف محمد بن عبد الرشيد السجاوندي الحنفي المتوفى في حدود 700هـ/1300م.

(2) هو أحمد بن عماد الدين ابن الهائم، عالم اشتهر بالرياضيات والفرائض، ولد سنة 753هـ/1350م وتوفي سنة 815هـ/1412م.

(3) في الأصل تصحف إلى (التمريلسي) هو علي نور الدين بن علي الشبراملسي، وشبراملس قرية في مصر، ولد سنة 997هـ/ 1588م، ونبغ صغيراً إذ حفظ متون العلوم، والقراءات العشر، وحضر دروس العلامة عبد الرؤوف المناوي في المدرسة الصلاحية بالقاهرة، وعن جمهرة كبيرة من كبار علماء عصره، ثم تصدر للإقراء في الجامع الأزهر، وتوفي سنة 1087هـ/1676م. ترجم له المحبي وأثنى عليه، ومما قاله «كان جبلاً من جبال العلم لا يضجر من البحث في الدرس». خلاصة الأثر ج3 ص174

تلمذت له مدة إقامتي بالقاهرة، واكتسبت من فضائله الباهرة، مع الملازمة والمثابرة، وذلك بالجامع الأزهري، حيث أضاء بصباح علمه الأزهر.

وكالشيخ العُمدة أبي الضياء حسن الشرينلاني[1]، مصباح الأزهر وكوكبه المنير المتلالئ لو رآه صاحب السِّراج الوهّاج[2]، لاقتبس من نوره، أو صاحب الظهيرة[3] لاختفى عند ظهوره، او ابن الحسن لأحسن الثناء عليه، أو أبو يوسف لأجله ولم يأسف على غيره، ولم يلتفت اليه عمدة أرباب الخلاف، وعدة أصحاب الاختلاف، صاحب التحريرات والرسائل، التي فاقت أنفع الوسائل الفضائل، بإيضاح تقريره، ومحي ذوي الإفهام بدُرَر غُرَر تحريره، نقال المسائل الدينية، وموضح المعضلات اليقينية، صاحب خُلق حسن، وفصاحة ولسَن.

وكالشيخ الكامل، والعالم الفاضل، الشيخ زين الدين عامر الشبراوي[4]، فقيه أضحى لمذهب الإمام الشافعي حاوي، حائز للعلوم والعرفان، وفائز بالقدح المُعلى من التحقيق والإتقان، عَلَم العلم والهُدى، ومنار الفضل والتقى، بيده عنان الفواضل، فيمنح بها كل محتاج، ومالك أزمة الفضائل فينشرها على كل لائذ وراج، زبدة العلماء الراسخين الأخيار، وعمدة الجهابذة المتورعين الأبرار.

وكالشيخ الفاضل شهاب الدين القليوبي[5]، العالم الكامل، شرف العلماء العاملين، أوحد الفضلاء المعتبرين، مفيد الطالبين، صدر المدرسين، عين السادة

---

(1) تصحف في الأصل إلى (الشرينلاني) وهو حسن بن عمار بن يوسف الوفائي المصري المعروف بالشرنبلالي، من قرية (شيرى بلوله) في المنوفية بمصر، ولد سنة 994هـ/1069م وتفقه في القاهرة، ودرّس في الجامع الأزهر، وألف مؤلفات كثيرة، معظمها في فروع الفقه الحنفي، والقراءات، وتوفي سنة 1085هـ/1659م.

(2) السراج الوهاج في شرح المنهاج، كتاب في الفقه الشافعي لأحمد بن حسن الحابردي.

(3) الإشارة إلى ابن ظهيرة القرشي المخزومي، من كبار الأدباء والنحويين، له (المنهل المأهول في الفعل المبني للمجهول).

(4) هو جد العلامة عبد الله بن محمد الشبراوي شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة 1171هـ. محيي الدين الطغمي: النور الأبهر في طبقات شيوخ الأزهر، بيروت 1992، ص81.

(5) في الأصل (القليوني) نسبته إلى قليوب في مصر، وهو عالم شافعي في الفلك والطب، له عدة مؤلفات في الفلك والطب، فضلاً عن مؤلفات في علم الحديث.

الشافعية الفقهاء، وذخر المُحدّثين والفضلاء، مغني الطلاب بلفظه الوجيز، المنصوب محل رفعته على التمييز.

وكالشيخ الفاضل، جامع الفضائل ،الشيخ ياسين الشامي، صاحب الفاضل النامي، كمال المحققين الأعلام، جمال المدققين ذوي الأفهام، ذخر الفضلاء البارعين، فخر البلغاء المتفوهين، عُدّة النحاة والمُعربين، عمدة الفصحاء واللغويين، من جد في طلب [و202] العلوم فوجد، ومَدَّ باعه الى أقصى الفضائل، وفتحت له العلوم العربية كنوزها، فاطلع على دقائقها ورموزها، فاضحى نصيبه منها متكاثراً، ذو الطبع السليم والاخلاق الحسنة، والفهم المستقيم والخصال المستحسنة.

وكالقاضي الفاضل، البارع الكامل، عمر المغربي[1]، رئيس قضاة المالكية بالديار المصرية، وحاوي الخصال المَلكية، زين القضاة، وعين الولاة، من لمذهب الإمام مالك، حائز ومالك، ذو الفضل الغزير، والتقرير والتحرير، له النظم الوافي الوافر، والنثر المتكاثر، قد سافر من القاهرة الى صعيدها، فتلقاه بالاقبال جناب أميرها ووحيدها، الأمير الكبير علي، كبير أمرائها الكرام، فكتب علي حصة من صحيح الإمام البخاري – رضي الله عنه- في تلك الايام وسمّاه (المصابيح على الجامع الصحيح). ثم لما قدم من الصعيد، وأتى بهذا التأليف الفريد، طاف به على علماء مصره، وفضلاء عصره، وطلب منهم التقريض، فكتبوا له عليه بما يُخجل الروض الأريض، وقد طَوَيتُ ذكر البعض طلباً للاختصار، وأثبتُ ما وقع عليه الاختيار، فصورة ما كتبه علامة عصره وزمانه، وفهامة دهره وأوانه، الحَبر السامي، والبحر الطامي، المولى الشهاب[2]، طود العلوم والآداب، بنور المعاني أشرق اللفظ فاكتسى بثوبين من حسن بديع بلا زور .

ففي عمر عالم الذرِّ وعد له ... الى اسم سرى من أجل ذا قيل تقديري

ومن قال ذا التقدير غير محقق ... فقد سار في ظلمات جهل بلا نور

---

(1) هو الشيخ المحدث عمر العمري التونسي المغربي، شيخ رواق المغاربة في الأزهر عهد ذاك.

(2) هو شهاب الدين الخفاجي وقد تقدم.

قسماً بأيمان بَيْعة الأرواح، قبل أن تمتطي نجائب الأشباح، وأبى ذرها وصدق وعده، وعروته المشدودة بأواخر عهده، لقد أحيا هنا الفاضل ما أندرس من مَوات الفضائل، ومن أحيا مواتاً فله ما جدّدته همَّته، ومن غرس غرساً مثمراً فله ثمرته، بما علقه من المصابيح، على أبواب الجامع الصحيح، صحيح البخاري الذي شهد بفضله كل مسلم، إذ كان نور النبوة أشرق بما فيه من جوامع الكلم، من مصباح مشكوة النبوة وكواكبها [و203]الدُرِّيّة، والعلم ليس ملكاً لأحد فانه من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية، فجزاه الله تعالى خير جزائه، وجزى من أعانه وكان سبباً لإحيائه، بهمته العلية، ومواهب أياديه السنية، لا زال علياً كاسمه[1]، فدلالة كل اسم على مسماه جلي، ألا تراه منادى كل حين: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي! فقد جذب بضيعه[2] وهو حَبس داره عليه من الفقر والصبر ثوبان، طارحاً برد التجمّل لابساً بالتعفف، فأحياه الله كما أحيا الحديث الذي نُسى في كل قديم وحديث. شعر[3]:

وإنما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حَسَناً لَمن وعى

والحمد لله أولاً وأخراً، وظاهراً وباطناً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام، وكتبه أضعف العباد احمد شهاب القاضي بمصر المحروسة سابقاً.

وصورة مارقمه سعد التحقيق، وسيد التدقيق، زبدة العلماء الراسخين، المولى سَرِيّ الدين:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد، فإن ناظم هذه الفرائد في سلك التأليف، ومُزيِّن سماء الطُروس بمصابيح تزهو على الكواكب وتنيف، قد جمع فيه من الفوائد ما يحمى المحامد، وما يحيي المحامد، وصَحَّت به أحاديث كماله، فحبّذا الجامع الصحيح، قامت بذاك قيمة مُرتاب في شأنه، أو

(1) الإشارة هنا إلى الأمير علي أمير الصعيد، وواضح أنه قدم من العون المادي ما يسر له انجاز هذا الكتاب.

(2) وقد تقرأ (بضبعه) وكلاهما لم نر له وجهاً.

(3) البيت لابن دريد.

مُكذب إذ طلعت به شمس الفضل من المغرب، فالله المسؤول أن يُعمِّر به ربع الفضائل، كما عَدَل به إلى عامرٍ من المجد بكل حَسَن من المآرب آهل. كتبه العبد الفقير محمد سري الدين عفى عنه.

ثم لما طلب مني الكتابة مقرضاً على كتابه، وتكرر ذلك من جنابه، أجبت بالامتثال، وأجَلْتُ جواد القلم في ذلك المجال، وجعلته استعاذة من شرعَيْن الكمال، فما أحقني بقول من قال. شعر:

جعلتُ تقريضي له عوذة   تقيه من شرّ أذى العين

فصورة ما كتبته عجلا ورقمته خَجلاً :

حمداً لمن شرَّف هذه الأمة مغرباً ومشرقاً، وجعل أفق السعادة بأنوار فضلها مُشرقاً، وصلات الصلوة على سيدنا وسَنَدنا [و 204] محمد واسطة عقد الموجودات، والوسيلة العظمى من استفاضة الكمالات، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها ذلَّ وهوى، وعلى آله الفائزين بسُنَن سنته، وأصحابه المتمسكين بذريعة شريعته.

وبعد، فلما اطلعت على التصنيف وطالعته، وصعَّدت طرف الفكر في محاسن هذا التصريف وصَوَّبته، ونزَّهتُ ناظري في نضارة حدائقه، ولتمت بشفاه الإعجاب ثغور أُقاحه وشقائقه، شاهدت جواهر المنقول، منتظمة في أسلاك بل كواكب القبول، سائحة في بروج الأفلاك، قد جمع فيه مؤلفه فأوعى، وبلغ من محاسن الجمع الغاية القصوى، ولعَمري لقد أجاد وأفاد، وأحرز قصبات السَبق ولا أقول كاد، قد دَلَّ بمنطوقه ومفهومه، على أن علم جامعه لا يُحد، وان فضائله الجمّة لا يحصرها عَد، قد أورد له العلم حوافل ضُروعه، وأجنى ثمرات أصوله وفروعه، ولا غَرْوَ فلم تصدر عوارف هذه المعارف، من طرائف هذه اللطائف، إلاّ عن فهم أشد من البرق لمعاً، وأحَدّ من السيف قطعا، ومَلَكَة راسخة البنيان، وجامعية فنون ذات أصول وأفنان، وما هذه —والله- فضيلة تنال بالاكتساب، وانما ذلك لمحض الفيض من الملك الوهاب، ولا بَدع فالعلم منَح إلهية، يخصُّ الله بها من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولو لم يكن له من عموم منافع السفر الدنيوية، إلاّ خصوص هذه المثوبة الأخرَوية، حيث أسفر عن تأليف هذا السِّفر، الذي قرَّت به

عيون العلماء في كل مصر، وأقر له ثغر الفضلاء بالبِشر، فحين وقفت على ما حَفَّ به من أرقام الأقلام، والخطوط المنسوبة الى العلماء الأعلام، وما طرّزوا به طُرز طُرس موشية، وما قلدوا به لبات صدوره وحلوا به جنبات حواشيه، وما رصعوا به غرائب نظمهم، ورصفوا به دُرر غُرر نثرهم، سلكت هذا المسلك معترفاً بالقصور، مشياً على أقدام تلك الفحول، وإن لم يدرك الضالع شأو الضليع في الفضل، ففي الفضول جعل الله تعالى سعى مؤلفه مشكورا، [و 205أ] وصيَّر عمله بالبر الآخروي مبروراً، ولا زال في أوّج الكمال يرتقي، ممتطيا صهوة الإقبال ما بقى، هذا ما أوردته من تراجم أكابر علمائها الأئمة، الذين بذكرهم تنزل الرحمة، وأما تراجم بقية من بها من العلماء الأعيان، والفضلاء ذوي الشأن، فلما كان أمراً يعجز العقل عن حصره، ولا يُهتدى اليه ويضيق نطاق النطق عن شرح مُفصلّه، ويقف خاضعا لديه، ثنيت عنان اليراعة إذ ليس كذلك غاية، ولم يحصر وصفهم هذا المختصر، وفيما أوردناه منهم كفاية.

وقد كنت كتبت الى دمشق الشام، سقى حماها صوب الغمام، بعض مكاتبات وأبيات، وأحببت أن يكون لبعضها وجود وإثبات، فمن ذلك ما كتبت به، وانا نائب الحكم الشريف، والشرع المنيف، بالمحكمة الصالحية[1]، الى ساداتنا السادة العمادية، روح جثمانية تلك الديار، من بالفضل والمجد اليهم يُشار. شعر[2]:

ليت الكواكب تدنو لي فانظمها عقود دُرٍّ فلا أرضى لهم كَلِمي

مخاديم المرحوم شيخي وأستاذي العلامة عبد الرحمن العمادي، أبقاهم الله سبحانه كهفاً للفضلاء الكرام، مدى الايام. شعر:

لو جعلنا بحارَ مصر مداداً ومِلأنا إقليمها أقلاما

ليس تحصي ما عندنا من غرام لا ولا أن تثبت عني سلاما

---

(1) هي المحكمة الصالحية النجمية، وكانت في أصلها مدرسة أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتقع في شارع المعز لدين الله بالنحاسين، وقد نشرت وثائقها د. سلوى علي ميلاد: القضاء والتوثيق في العصر العثماني، دراسة وثائقية، سجلات محكمة الصالحية النجمية، الإسكندرية 2008.

(2) البيت لعمارة بن علي اليمني.

شيّد الله تعالى عماد الدين والتقوى، وأخلد سرادُقات العلم والفتوى، وزين بشهاب الفضل أفق سماء المعالي، وأدام بوجوده افتخار المخاديم السادة الموالي، وألف على المحبة والخلة الإبراهيمية الإتحاد، وأبرم اتصال أسبابها الى يوم التناد، ببقاء من تزينت بتاج مآثرهم هام الأيام، وتاهت بهم على سائر البلدان بلاد الشام، فأضحوا في وجنة الشام شامة، وللفضل والمجد علامة، وصَدَحت وَرْقُ فصاحتهم في ناديها، وسارت محاسنهم مع الرُكبان رائحاً وغاديها، كيف لا! وهم كالحلقة المُفرَغة لا يُدري طرفاها، وكالشمس لا يفضل أولاها على أخراها، الثلاثة الأعيان، أصحاب الفضائل وأهل العرفان. شعر:

فعماد دين الله ثم شهابه بدر العلى وخليل إبراهيم[1]

أمتعنا الله تعالى وجمع المخلصين [و 206] بدوام أيام حضرتهم الشريفة، وأرتعنا مع جملة الداعين المخصصين في رياض فضائلهم الوريفة، بحرمة سيد أنبيائه، ومبلغ أنبائه، وبعد فالمُنهى أولاً خلوص الولاء، وخصوص الدعاء، وثانياً عظيم الأشواق الذي ملك جنودها إقليم الفؤاد، وضربت على مخيمها فسطاط الخلوص وصِدق الوداد، وعرض أليم الفراق، يعجز عنه نطاق النطاق. شعر:

وأما احتراقي واشتياقي ولوعتي فتلك أمور لا أطيق لها حَصْرا

وحين عجزتُ أوجزتُ، ولما قصَّرتُ اقتصرت، وكيف أشرح شوقا[2] لا يُشرَح، ووجدا مُبَرِّحاً لا يَبرَح، ولولا خشية الإملال، بعد رعاية عدم الإخلال، لأرخيت عنان أدهم القلم، في ميادين الشوق والألم، فأسأله تعالى أن يعيد لي من الحضور لدى حضرتكم نعيم اللقا، ومن رَيّا رؤيتكم نسيم الالتقا.

هذا ولما قوَّضتُ خيام الإقامة من دمشق المحمية، ودعاني داعي الشوق الى القاهرة المُعزيّة، وعنان مطايا الحواس بين ثان وهادي، وطوارق الوسواس بين رائح وغادي. شعر:

إني ارتحلتُ وذكركم أبداً على طول المدى مائي النمير وزادي

---

(1) عماد الدين وشهاب الدين وابراهيم العماديين لهم تقريض على كتاب الرحلة المصرية سنة 1059هـ

(2) في الأصل: شوق.

لم أزل أحثّ مطايا السير والسُرى، وأصد عن ثغور العيون طلاء الكَرى، حتى حططت بها الرِّحال، وأنخت العِيس وألقيت فيها عصا الترحال، وذلك بخدمة قاضيها، وناشر لواء العدل فيها، من تشبثت بأذياله الآمال، صادق الأقوال والأفعال. شعر[1]:

فسار مسير الشمس يطوي منازلاً إلى مصر حتى حل في أهلها غمطا[2]

ثوى فيهم كالشمس يعطي ضياءه وليس لمثل البدر يأخذ ما أعطى

وحطّت بمصر رحال الأماني بساحة سماحة ناديه، وزادت أصابع نيلها من فيض نائل أياديه، وهو يخصكم بدعاء طار بأجنحة الإخلاص، الى حدائق القبول والاختصاص، وتالي آيات سور مدحكم وحمدكم على الرائح والغادي، وناشر ألوية صور محاسنكم في كل نادي، وكذلك أخوه النبيل النبيه[3] مصطفى القادة المخاديم، وبدر أفق الفضل والتعظيم، وهو متقيد [و 207] بأحوالنا، ومتعهد بتبليغ آمالنا، دام لأهل الأدب سَنَداً وملاذا وعَضُداً. ويذكر ما مَرَّ له مع حضرتكم الجليلة، ويتذكر تلك الأيام وينشد في لياليها القليلة، شعر:

ليال مضت في مصر وصل كأنها على وجنة لمتع شام

وقد حمدت الله تعالى حيث تيسر لي رؤية هذه المدينة العظيمة، والتمتع بمشاهدة حضرة هذا المولى، والتشرف بخدمته الكريمة، وما شاهدت منه إلاّ المحبة والالتفات في كل الأوقات والساعات. شعر[4]:

ولو لم يكن في مصر ما سِرتُ نحوها بقلب المَشوق المُستهام المُتيَّمِ

وقد طفت حول خلال هذه الديار، وأطلقت جواد طَرفي في تلك المعالم والآثار، وتشرفت بزيارة مراقد من بها من العلماء والأولياء الصلحاء، لاسيما بمرقد سيدي الإمام الشافعي، والسيدة نفيسة، ولم أنسى حضرتكم والمخاديم الكرام من صالح الدعوات في تلك الأماكن المباركة الأنيسة.

---

(1) البيتان لعلي بن موسى ابو الحسن الأنصاري الأندلسي الجياني، كما في فوات الوفيات للكتبي.

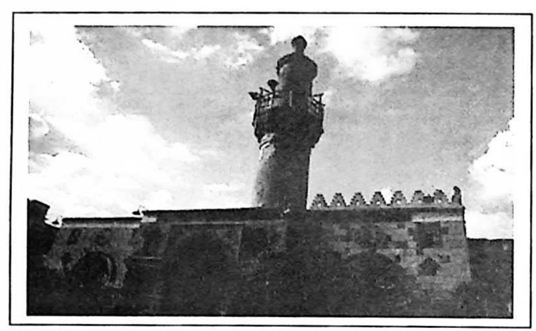
(2) غمط: جحد النعمة التي هو فيها، واستخدم محمد أمين ابن المؤلف صدر هذا البيت وجعل عجزه كالآتي (.. على أنه لا محق فيه ولا خسفا).

(3) في الأصل (لنبيه).

(4) البيت للمتنبي.

وقد نزلنا بمنزل بالقرب من الجامع المعروف بالأقمَر[1]، وتشرَّفنا بعلماء الأزهر، وبأعيانها الكرام، وأمرائها الفخام، وما منهم إلاّ قابل بالإقبال، والإكرام والإجلال، لاسيما آصف الزمان، العالي الشأن، الوزير المشير، صاحب القدر الخطير، مُدبِّر أمور الجمهور بالرأي الصائب، والفكر الثاقب، فلكي الهمم، ملكي الشيم، عزيز مصر، ذو اللطف والبِشر، وأمير أمرائها، وكبير كبرائها، الجناب العالي المنيف، الأمير رضوان أمير الحاج الشريف[2]. شعر:

وما كل من يُدعي أميراً مُؤمَّراً ولا كلّ من يُدعي الوزير وزير



الجامع الأقمر

---

(1) يقع في شارع النحاسين وقد بناه الوزير المأمون بن البطايحى بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى سنة 519هـ (1125 م). وسمى المسجد بهذا الاسم نظرًا للون حجارته البيضاء التى تشبه لون القمر. وهو يتألف من صحن صغير مربع مساحته عشرة أمتار مربعة تقريبا يحيط به رواق واحد من ثلاثة جوانب وثلاثة أروقة في الجانب الجنوبى الشرقى، أى في ايوان القبلة، وعقود الأروقة محلاة بكتابات كوفية مزخرفة ومحمولة على أعمدة رخامية قديمة ذات قواعد مصبوبة وتيجان مختلفة تربطها عمد من الخشب. على مبارك: الخطط التوفيقية ج2 ص12. وموقع (علماء الآثار).

(2) هو الأمير رضوان بك كتخدا الفقاري، أمير الحاج المصري الكرجي الأصل، بدأ حياته مملوكاً لأحد الأمراء، وبعد وفاة سيده استغنى ونبه قدره، وملك المئات من المماليك، وولي امارة الحاج مرات عدة، وكانت له الآثار الحسنة في طريق الحاج المصري، وفي الحرمين، معتنياً بأهل الحجاز، شفيقاً عليهم، وأنشأ في القاهرة مبرات عدة، منها زاويتان، و جهات بر وخيرات، ومن آثاره قصبة نسبت إليه تتألف من حوانيت كثيرة وقفها على منشآته الخيرية هذه. وتوفي سنة 1066هـ/1655م وقيل 1065هـ/1654م ودفن قرب ضريح الإمام الشافعي. الخطط التوفيقية ج2 ص35 و38.

هذا والمسؤول إغماض عين الإعراض عما في خلال هذه السطور من الهفوات والقصور، فيحق لمن بَعُد عن هاتيك القصور، أن يوجد في طبعه فتور، وما أظن إلاّ اني أحسنت، ويقال لي: لله دَرُّك ولله أنت. هذا وأهدى سلاماً فاح نوره، ودعاءً لاح نوره، وثناءً ضاع عطره، وتأرّج نشره، إلى خدمة المخاديم الكرام، الأعزَّة الفخام. شعر:

فهم الثلاثة تشرق الدنيا بهم عندي وغيري في المَقال كَذوبُ

قصدي الدعاء لهم بجمعي مدحهم، من غير[و 208] أفراد، وذا أسلوب حقق الله تعالى بهم الظنون والأمل، وأقربهم عيون أهل الفضل، وقد فعل؛ والسلام بالاكرام التام على جُملة الطلاب، ومَن بالباب، والله سبحانه يُبقيكم لأهل الشام فخراً، ويديمكم لذوى الفضل ذخراً، والسلام.

فأرسلوا إليَّ جواباً عن ذلك، سلك الله بهم وبي أشرف المسالك:

نُهدي اليك اشتياقاً لستَ تتكره منا ونخفي احتراقاً انت تعرفه

لا أوحش الله ممن لا نرى أحدا من الأنام إذا ما غاب يخلفه

ننهي أشرف التحية، وأتحف الأدعية المرضيّة، الى حائز رتب الفضل والمجد، عن الأب والجد، جامع أشتات الفواضل والفضائل، الى محاسن الشيمة مع لطف الشمائل، عَيْن مخاديم الشام، وواسطة عقد مدرسيها الفخام، زبدة البلغاء الأعيان، وأعز الأهل والإخوان، جمع الله تعالَ الشمل بعَوْده، وجمع الشمل بفضله وجُوده، ونبدي بعض ما عند هؤلاء الإخوة من غزير الغرام، وعظيم الظمأ والأوام[1]، إلى زلال العذب الخصر[2]، وكفى بذلك مُغنياً عن الإطناب بتأسيس الغرام، وإن طال الوصف فيه فمختصر. شعر:

فسَل قلبَك عمّا لك في قلبي من حُبِّك فقد أخبَرَني قلبي عمّا لي في قلبك

هذا ونحمد الله تعالى الملك الوهاب، على كمال الصحة والعافية لنا ولجملة الإخوة والأولاد والأهل والأحباب، غير أنهم جميعاً معنا يَشكُون من أليم البعاد، ومن فقد أنيس كريم ذلك الناد، فنسأله – سبحانه- حُسن اللقاء على أحسن

---

(1) الأوام: حرارة العطش.

(2) خصر: اشتد برده.

حال، وأكمل منوال، بالنبي والآل، وقد وصل الكتاب الكريم، وحصل به الحظ العميم، وتأملنا مضمونه، وأسلوبه ومكنونه، فوجدناه في الحقيقة على أسلوب غريب، ولا بَدَع فانه صادر من الفضل وذلك الأديب الأريب، فقد تداولناه مع الإخوان، وتدارسناه في أغلب الأوقات والأزمان، وحسدنا مؤلفه على تشرّفه بتلك البقاع، ومن بها من المراقد الشريفة، والمواطن المباركة المنيفة، وعلى الخصوص حضرة الإمام الشافعي، والسيدة نفيسة، وشيخنا عمر الفارضي[1]، وحضرته الجمالية الأنيسة، ونرجوا[و209] من فضل المخدوم، أن يخطرنا في خاطره العاطر نحن وأولادنا وذلك جُلّ ما نروم، لدى كل محل شريف معلوم. شعر

أذكرُونا بعض ذكرانا لكم ... رُبَّ ذكرى قرَّبَتْ من نَزَحا

فالله تعالى يَمُنَّ علينا بالاجتماع قريبا للشمل مع الفضل، وذلك منه سبحانه من محض الفضل.

ومما أرسلوه ثانياً إليَّ، وأسبَلوه من رداء فضلهم عليَّ، لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا الى أرواحنا سبيلا.

إلى الأخ العزيز، من أضحى في مصر هو العزيز، ومن أنسى بما انشأ القاضي الفاضل، فضلاً عن ابن العماد وابن العميد[2]، وما كل قاض قاضي تبريز[3] دام من حفظه تعالى في الحرْز الحريز، ننهى الدعاء الموصول بالقبول والثناء الذي عُرفه أزكى من أرَج نسيم الصَّبا والقبول، ونبث بعض ما في القلب من الحب الراسخ، ونبث قليلا ما لدينا من مزيد الغرام، الذي هو لحديث التصبُر ناسخ، فنسأله تعالى أن يُقصِّر ما قد طال من مشقة الفراق والبَيْن ، ويطوى شِقة البعد والبَيْن وهاتيك الفراسخ، وما ذلك على الله سبحانه بعزيز. شعر:

إذا وصفَ الناس أشواقهم ... فشوقي لذاتك لا يوصف

---

(1) يريد الشيخ عمر ابن الفارض وقد تقدم.

(2) ابن العميد، هو ابو الفضل ابن العميد، أحد وزراء الدولة البويهية، اشتهر بأدبه وترسله حتى ضرب المثل به، وأما ابن العماد فلم يتحدد من يعنيه. والظاهر انه يقصد الأديب العماد الكاتب الأصفهاني، محمد بن صفي الدين، صاحب خريدة القصر، المتوفى سنة 596هـ، فهو ممن يضرب المثل بأدبه وأسلوبه في الكتابة.

(3) مثل ورد في مقامات الحريري، المقامة التبريزية.

وكيف أعبّر عن حالةٍ ضميرُك مني بها أعرَف

هذا ونحن بخير مع أولادنا، وجملة أخواننا وأحفادنا، خصوصا الأخوة الكرام، وابنا العم، وفضل الله سبحانه على الجميع قد عَم. شعر[1]:

جمع الله شمل كل مُحبٍ وبدا بى فإننى مشتاق

أنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

فكتبت لهم الجواب، وأرسلته الى فسيح تلك الرحاب. شعر:

يا بَرْقُ إن جرَت الديار بجُلَّقٍ وعَلاك من حلل التهاني رَونق

قل للذين بها: تركتُ محبكم من كل مشتاق إليكم أشوقُ

شوقي شوق الغريب الى الوطن، والنازح إلى السكن، بل شوق الصادي الى ماء صفاء[2]، وكثير عَزَّة الى لوَى تيْماء، وليس هذا الوجد والهُيام، مما يدفع من الشوق الأوام، وقد كانت الحالة هذه وليس بيني وبينهم حاجز إلاّ الجدار، إذ كانوا حفظهم الله تعالى جيران الديار، فكيف الآن بالغرام وأنا بمصر[و210] وهم بالشام، وما غيبتي عنهم الآن إلاّ كما قال بديع الزمان: عيشة الحوت في البر، والثلج في الحَر! على أن الحاجة إليه الآن ضرورية لتسكين حرارة الأكباد، التي أضرم فيها نار الصيام والبعاد، وناهيك بحر مصر الذي يذيب دماغ الضَّب، ويشبهه قلب الصَّب. شعر:

لولا نسيم الصبا منكم يريحني لكنت محترقاً من حَرِّ أنفاسي

فالله أسأل، ونبيِّه النبيه أتوسل، كما أطال ظلال الغربة أن يُقلِّصَها، وكما أغرق النفوس في سيول الكُربة أن يخلصها، وأن ييسر أسباب العَود إلى دمشق والى نسيمها البليل، الصحيح العليل، وإلى مائها الذي هو في الصحة والرقة كهوائها، أو كطبع أبنائها، ويعيد لي تلك الأيام الزاهرة، والليالي التي كانت- لعمري- بجنابهم الشريف مُقمِرة باهرة. شعر:

---

(1) البيت الأخير من أربعة ابيات لاسماعيل بن عبد الحق الحجازي ذكرها ابنه محمد أمين المحبي في (نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة).

(2) في الأصل (صاء).

وفضل إلهي قطب دائرة المُنى فإن عليه في العطاء مدارُها

هذا وأما الكتاب الذي وَرَد قبل الآن، فما كان إلاّ حظ الأمان من الزمان بل الحرز الحريز، والجوهر النفيس العزيز، فهو أبهى وأبهج من خط العذار، وأبْيَن وأحسن من مناجاة محبَّين، بعد طول البَيْن، بعتب واعتذار. شعر[1]:

كأن كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب

فلم أدْرِ قرب نَوى بعد البعاد، أم حبيب قدم بلا ميعاد، فقبلْته بعدما استقبلته، ولثمته غب ما استلمته. شعر:

وقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بخير كتابٍ جاء من خير كاتبِ

وأما خطه فحسناً خط العماد أو أخي العماد، وهو كما قال الصاحب ابن عباد[2]: هذا خط قابوس أم جناح الطاووس؟[3] أو كما قال المتنبي وكأنه عنه يُنبى. شعر[4]:

من خطِّه في كل قلب شهوة حتى كأنَّ مداده الأهواءُ

وأنا أقول ما هو ألطف، وأبدع وأظرف، ما قاله شيخي وأستاذي وعتادي، المرحوم العلامة العمادي[5]. شعر:

وضاعفت تشريفي برفعتك التي مسوَّدها السامي لقدرى مسوّد

فأبيضها يفديه في العين أبيض وأسودها يفديه في العين أسود

وقد حصل التقصير الناشئ من إجلال، والتوقير في إرسال الجواب، لتشتت البال في الاغتراب، فالعفو [و211] مأمول، والستر مسبول، ويعز على أن ينوب الآن في خدمتكم قلمي عن قدمي، وأن يرد مشرع الأنس كتابي قبل ركابي. شعر[1]:

---

(1) البيت للمتنبي.

(2) أحد وزراء الدولة البويهية، عرف بأدبه، توفي سنة 385هـ.

(3) هو شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر، أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان، كان خطه في نهاية الحسن، حتى قال فيه الصاحب بن عباد قولته هذه التي اشتهرت، توفي سنة 403هـ.

(4) ديوان المتنبي ص4.

(5) هو عبد الرحمن العمادي وقد تقدم.

وَإِنّي لأَرْجُو اللّهَ حَتّى كَأَنَّنِي أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللّهُ صَانِعُ.

ومما كتبته إلى حضرتهم العلية، هذه القصيدة النونية، وهي قولي:

حمائم الدوح مازالت تناغينا في النوح والسجع قد رامت تحاكينا

الخ عدد 23[2] .

ومما كتبت به الى القريب الأريب، والكامل الأديب، محمد حلبي الاسطواني[3]، حُفَّ باللطف الرّباني، وهو قولي[4]:

القلب منى في ذراك رهينٌ فأحفظه كي يوماً تَفك رُهون

الى آخر القصيدة، عدد 21 [5].

سيدي حَرَسك الله تعالى وحَماك، تعلم أن القلب رهنٌ في حماك. شعر[6]:

فغرامي القديم فيكم غرامي ووِدادي كما عهدتم ودادي

وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، وإن للبيت رباً يحميه، وهذا ما اقتضاه الآن شوقي وغرامي، وأوجبه عليَّ تعطشي وأوامي. وما كنت ممن يكتفي في الخطاب بقصيدة، ولا يجتزئ في مكاتبة الأحباب برسالة فريدة، وممكن الشوق حاكم حاسم، ولو شئت لقلت حاكم ظالم، فإنه يجري الأقلام، بما لا تشتهيه من نقض وإبرام، ولولا ذاك لكتبت كما يكتب الناس، وملأت بالسلام والكلام القرطاس، ولكن كتبت الآن بحكم الشوق والغرام، هذا الكلام، وهي نفثة مصدور، وعلالة صاد لولاك لم ترويها الصدور، وبديهة غريب من الأحبة مهجور، والطبع وان كان

---

(1) البيت لأحمَد بن العَبّاس النَّمَري .

(2) على الهامش العبارة الآتية : موجودة برمتها في هذا المجموع.

(3) هو محمد بن أبي الصفا بن محمود بن أبي الصفا الأسطواني الدمشقي، ولد في سنة 1024هـ/ 1615م ومهر في صناعة الإنشاء العربي والتركي، فعمل كاتباً في وقف سنان باشا بعد أبيه، ودرس في المدرسة الظاهرية الكبرى بدمشق، وكان خلو العبارة حسن المعاشرة، شاعراً. ترجم له المحبي وأثنى عليه وقال «كان بينه وبين والدي مودة أكيدة». وتوفي سنة 1077هـ/1666م. خلاصة الأثر ج3 ص339.

(4) على الهامش العبارة الآتية: موجودة كلها في هذا .

(5) أثبت المحبي منها خمسة ابيات ليس منها هذا البيت.

(6) البيت لابن الفارض.

في حَلبته جواد، فقد يكبو الجواد، وقد يبخل الجَواد. وقد حصل الإهمال في إرسال الجواب، الى ذلك الجناب، وترك ذلك ترك إجلال لا ترك إخلال، فالمعذرة إليك، والسلام على أهل منزلك وعليك.

وكتبت ثانياً اليه أسبغ الله تعالى نِعَمه عليه، وهو قولي[1]:

حديث غرامي في هواكَ صحيح وقلبي كأقوال الوشاة جريح

الخ عدد (27).

وهذه نفثة غرامية، فضلية سلامية مصرية شامية، كتبت بها الى شقيق روحي، وغبوق صبوحي، صنع الله جلبي، ملحوظا بعين عناية النبي العربي، وهي قولي[2]:

يا صاح بلغ سلامي إذا حللت بشام

عدد 20

ومما كتبته [و 212]الى ابن العم الأمجد، مولانا الشيخ محمد[3]، أبقاه الله تعالى مدى الآباد، وقد اقترح علينا جبة عَسَليّة وحصة من السُكَّر المُعاد[4] وصَلَ اليَّ- أوصل الله تعالى اليك أسباب العلى، وألبسك رائق الحلى- كتابك الخطير، وروض خطابك المطير، فأخذته مستبشراً أخذ من أوتي كتابه بيمينه، وفاز بعد تطاول مدى البَين بوصال أليفه وقرينه، وحصل به من السرور، أضعاف ما فيه من السطور، فوضعته على رأسي، وقرأته عدد أنفاسي، ووجدته أبهى من الحلل المنسوجة، وأرق من الصهباء الممزوجة، وأحلى من السكر المُعاد، بل أشهى من رشف الرُضاب بعد البِعاد، وقد هَيَّج بلابل بلبالي، ولواعج أشواقي وآمالي، الى لقاء منشئ بلاغته، ومتولي صياغته، لازالت عوارف المعارف عليه منهله، وذيول

---

(1) هذا هو البيت الأول من القصيدة، وهي في تسعة أبيات، وقد أثبتها المحبي في خلاصة الأثر ج3 ص282.

(2) على الهامش العبارة الآتية : موجودة بجملتها في هذا.

(3) هو محمد بن عبد الباقي بن محمد محب الدين المحبي الدمشقي، ولد سنة 1016هـ/ 1607م وأخذ العلم عن عبد الرحمن العمادي وغيره، ودرس في دار الحديث الكبرى بدمشق، وولي النيابات فيها، وولي قضاء بعلبك ثم صيدا، وتوفي سنة 1060هـ/1650م. وكان موسقيا «له في الضروب واصطناع الأغاني طائلة». خلاصة الأثرج3 ص479

(4) في الأصل (البعاد).

مجده من بحار المكارم مبتلة، وما بثّه فيه من عظيم الأشواق، ونثه من أليم الفراق، فكأنما عبّر فيه عن قلبي،، وقرأ وصفه عن صحيفة صدرى. شعر[1]:

وافى كتابك وهو بالأشواق عني يُعرب   قلبي لديك أظنه يُملي عليك فتكتب

هذا وإن استفسر سيدي- أطال الله تعالى بَقاه- عن جملة الأحوال في خير، والمال يعلمه الله وقد سبقت الأقدار بالمكث هذه المدة في هذه الديار، ولو شرحت الحنين الى الوطن، والشوق الى الأهل والسكن، لعجز عن ذلك القلم، وكَلَّ لسانه وضاق صدر الطرس، وإن كان متسعاً لعجز ميدانه. شعر[2]:

فَأمَّا غَرَامِي وَاصْطِبَارِي وَسَلْوَتِي   فَلَمْ يَبْقَ لِي مِنْهُنَّ غَيْرُ أَسَامِي

فالله سبحانه ييسر أسباب التلاق، ويطوي شقة البعد والفراق، ويجمع الشمل على أحسن حال، وأنعم بال.

ومما كتبته إلى بعض أخوان الصفا، وخلاصة خلاّن الوفا، طراز حلة الصداقة والمحبة، وفارس حَلبة الخلة والصُحبة، صديقي في الوداد، ورفيقي في خلوص الاعتقاد، نظم الله سبحانه شمل الأحباب، بحسن وداده، وأعلى بضاعة الأصحاب، وإن كانت مُزجاة في سوق فؤاده. هذا ولست أصف شوقي، الذي فوق طَوقي، إلى سيدي [و 213] أطال الله تعالى للمحاسن بقاه، وأدام في بقاع الارتفاع عُلاه. شعر[3]:

لا يعلم الشوق إلاّ من يكابده   ولا الصَّبابة الاّ من يعانيها

فاسأله سبحانه كما قدَّر الفَراق، ان يَمّن علينا بالتلاق، على أحسن وأنعم بال. وبعد فقد وصل قبل الآن، ما حصل به غاية الامتنان، ووددت لو كان صحبته كتاب من ذلك الجناب، وأنا عاتب لذلك فانه مظنَّة العتاب، ومن تأخّر عنه كتاب صديقه فلابد أن يخطر له خاطر الارتياب، والضنين بالمَودّة لا يرى إلاّ ضنينا، وقد قيل انها وديعة وقليلاً ما تجد على الودائع أميناً، هذا والمعذرة اليك بهذا الحديث الغَث، والكلام الرَّث. شعر:

---

(1) البيت للبهاء زهير.

(2) البيت لابن الفارض.

(3) البيت لأبي الشمقمق.

فكل عتاب جَرَّ وصلاً فانه صوابٌ ومغفور له هذياني

والله تعالى يرعاك ويرعانا في جميع الأحوال، ويبلغك وإيانا جميع المآرب والآمال.

وكتبت ثانياً إلى جنابه، مذكّراً بإرسال جوابه. شعر[1]:

فليتَ هوا الأحبَّةِ كان عَدلاً فحمِّلَ كلُّ قلبٍ ما أطاقا

لم أعلم كيف أبدأ سيدي، لا برح شمل الأحباب منتظما بوجوده، ولازال ربع الأصحاب عامرا بجُوده، طوفان ميامي، وطغيان هُوامي[2]، وقد خلطا سلامي وكلامي بغرامي وملامي. اما السلام والكلام فانها يتزايدان بتزايد الغرام، وأما الملام، فالباعث عليه ألم الهجر، وكثرة القلق وقلة الصبر. شعر:

خُلقتُ ألوفاً لو رحلتُ الى الصِّبا لفارقت شيبي مُوجَع القلب باكيا

هذا وليت شِعري ما صنع البِعاد بقلب سيدي، هل غيَّره عما عهدته عليه من الوداد، فان ذلك صُنع الأيام بالقلوب، تقلبها يميناً وشمالاً، وتلونها حالاً فحالا، وقد كنت أحاشيه أن ينسى من ليس ينساه، أو يعتاض من لقياه غير ذكراه، وقد كان عهدي به لا يبخل على أحد، ولا يرضى أن يُنظَم في سلك أشحَّة البلد، فما – باله أدام الله تعالى أنسه وزكّى نفسه– لم يكاتبني بعد مكاتبتي، ولم يخاطبني بعد مخاطبتي، وقد أنشدت حين شاهدت ما شاهدت. شعر[3]:

ودع الوثوق بطبعه فلطالما نشط الجَوادُ بشوكة المهماز

أخاف أن اعرف حقيقة خطابه، أو أبلغ غَوْر كتابه، أم لأنه يأنف لكتابه اللطيف عن جوابي [و 214] الكثيف، ام لأن أخوانه الذين استظرفهم بعدي، واعتاضهم مني، شغلوا يده عني. شعر:

أحبّايَ أنتم أحسَنَ الدهرأم أسى فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخلُ

فما كنت أظن أن يحفظ لكل جديد لذّه، وينسى لكل عتيق حَرَمه، بل ظني أنه ثابت ركن الوفا، وصافي شرب المودَّة والصَّفا، في الشدة والرخاء، وحافظ على

---

(1) البيت للمتنبي.

(2) الميام: المياه، والهوام: حشرات الأرض، والأسد، والحية.

(3) البيت في غرر الخصائص الواضحة للوطواط غير منسوب لأحد.

الغيب ما يحفظه على اللقاء، فاسأله تعالى واهب الصور، أن يهب اقتراباً صافيا من الكدر، وفي القلب إلى أن تدنو الديار أوار، ولا غرو فلكل سائلة قرار، والله تعالى يقيك، ومن كل شوب[1] ينقيك.

ومما كتبته الى بعض الأحباب، جواباً عن كتاب، ورد على كتاب شقيق روحي وصديقها، ورَيحان مَسَرَّتي وشقيقها، القريب الأريب، الذي في جوانح الجوارح مقامه، والنبيه النبيل الذي في سواء السويدء مقامه، أدام الله تعالى وجوده، وأسبل عليه نعمه وجوده، فاستظهرته حرفاً حرفا، وقبلته ألفاً ألفا، وكنت إليه قبل وروده أشوق من الصَديان الى الماء القُراح، والحيران تبلج المصباح. شعر:

نفسي الفداء لواصل بكتابه   أهدى اليَّ روائح الإخوان

إلاّ أنه قد زادني تشوقاً وحرقا، وغراما وقلقاً، وسرَّني مضمونه العجيب، وشوَّق للأوطان كل غريب. شعر:

وأذكرني وجداً وما كنت ناسياً   ولكنه قد زاد وجداً على وجدي

فالله سبحانه يُكحِّل مقلة الأشواق، بأثمد التلاق، ويداوي لسع الفراق، بأنجع دِرياق. شعر:

دهرنا أمسى ضنينا   باللقا حتى ضنينا

ياليالي الوصل عودي   فاجمعينا جميعنا

فنسأله تعالى إزالة الأرَق، وتبديل الرقاد مكان الأرَق، وأن يجمع الشمل بعد الشتات، على أحسن الحالات، وفي أقرب الاوقات، وأسعد الساعات، بجاه سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وتم التسليمات.

ومما كتبت به[2] إلى الأخ الأعز دام مدى الايام، وقد أبَق إليَّ بعض الخدام، علَّم الشوق مقلتي سهر الليل، فعادت من غير نوم تراكا، المنهى الى شقيق روحي، ومن لم أزل استفيض له المَدَد السبُوحي[3]، ومن إذا خطر ذِكرُه في خاطري [و215]

---

(1) شاب: اختلط بغيره.

(2) نقل ابنه محمد أمين هذه الرسالة في كتابه (نفحة الريحانة) ص494.

(3) السبُوح: المنزه عن كل سوء.

على أن اللازم البيِّن لباطني وظاهري أرتاح اليه ارتياح النفس الى النفس، وأقصد الوادي المقدس بأنوار التجلي، متلمعا شعاع المدد الالهي، لعلي آتيه بقبس، فأسأله سبحانه ربه وربي أن يقر عيني بقربه وعينه، ويجمع شملي به وشمله بي بجاه النبي العربي. وبعد فإن ياقوت الممقوت، سوَّد الله وجهه، وعامله بالنكال، إينما توجه قد أبق في هذه الأيام، كما هو دأب جنسه الخسيس الخبيث فما عليه ملام. شعر[1]:

واللوم للحُرّ مقيمٌ رادعٌ والعبد لا يردعه إلاّ العصا

ولما بلغنا ذهابه من اليَم، تباشرنا بزوال الهَم، وأنشدنا إلى حيث القت رحلها أم قشعم، وأحواله لديكم معلومة، وأفعاله الذميمة القديمة مفهومة، ولو طلب منا اجازة أجزناه، والمكاتبة كاتبناه ودبرناه، وعن خدمتنا أبعدناه، ولو أردناه تطلبناه، وبما يليق عاملناه. شعر[2]:

وإذا رأيت العبد يهرب ثم لم يُطلب فمولى العبد منه هارب

ولو لم يكن في هذه السفرة من الربح الذي ليس به خفاء إلاّ زوال هذه النقمة السوداء عنا لكفى، وفي الحديث الشريف: اطلبوا الخير عند حسان الوجوه[3]، ومن أمثالهم قبح اللكع ومن يرجوه، وقد كنا من قديم نسمع أن الخادم بمنزلة النعل يُلبس ويُخلع. شعر[4]:

والعبد لو كانت ذؤابه رأسه ذهباً لكان رصاصه رجلاه

ومن أبَقَ عن الخدمة فقد يُعدّ بعده نعمة، وقربه نقمه، فقد يفر المُهْر من عليقه، ويطير الفراش إلى حريقه، فما كل شجرة تحلو لذائقها، ولا كل دارٍ ترحب بطارقها. شعر:

ما كل من قصد الحِمى سمع الندا من أهله أهلاً بذاك الزائر[5]

---

(1) البيت لمحمد بن الحسن، ابن دريد.

(2) البيت لناصح الدين الأرجاني أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الإرجاني.

(3) حديث موضوع.

(4) البيت لابن سعد كما في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ج2 ص97.

(5) البيت في كتاب (زهر الأكم في الأمثال والحكم) للحسن اليوسي، المغرب 1401هـ، على النحو الآتي:

ومن أبَقَ عن مولاه مغاضباً، وجانب إحسانه الذي لم يكن له مجانباً، يجد من مفارقة معاهد الإحسان، ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان، ويكون ذنب عقابه فيه، وكم عبد أبق من مواليه. وقد روى مرفوعاً عن سيد الأمة (أيُّمَا عَبْدٍ أبِقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ)[1] وفي رواية (لم تُقبل له صَلاة) فنعوذ بالله من مقت الله، وبالجملة فقد حصل لنا بذهابه غاية المسار، (فلا رَجعت ولا رجع [و 216]الحمار)[2]، ورحم الله أبا الطيِّب حيث قال، وأبان عن الحال. شعر:

لا تشتري العبد إلاّ والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

ومما كتبت به إلى الفيوم، للعارف بالله الشيخ محمد العجماوي المعلوم:

غِب تقبيل أيدي سيدي وعُمدتي، وذخر دنياي وآخرتي، شيخي ومحل اعتقادي، ومن عليه بعد الله تعالى اعتمادي، قطب فلك الولاية، إنسان عين العناية، نفعنا الله سبحانه بلجة من بركاته، ونفعنا بنفحة من نفحاته.

وبعد، فإن شوقي الى كريم لقائه، وهبوب نسيم القبول من تلقائه، على الديار وتطاول الأيام وتباعد المَزار، شوق الروض الى الغيث، والملهوف الى الغَوث، وكيف لي بِعَدٍّ ما لا يُعد، وقد غلب الوجد وغاض الجلد، وفاض الكمد، شعر[3]:

وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن   أمور جَرَت في كثرة الشَوق

قلت وكنت سابقاً أرسلت كتاباً إلى ذلك الجناب، والتمست عنه الجواب، فلم أظفر من سيدي بسَواد مداده، وعسى ان أكون قد ظفرت ببياض إمداده، ومازلت أتوسل الى الله تعالى في كل مقام وسير، أن يكون المانع خيراً لا غير، ولست أدري كيف أصف اختلال احوالي، واعتلال آمالي، ولم اعلم ما ينتهي اليه مآلي. شعر[4]:

وعُنوانُ شاني ما أبثك بعضَهُ   وما تحته اظهارُهُ فوقَ قدرتي

(ما كل من زار الحمى سمع الندا   من أهله: أهلاً بهذا الزائر)

(1) صحيح البخاري، باب الإيمان

(2) عجز بيت أورده الجاحظ، فسار مثلاً. وصدره (إذا ذهب الحمار بأم عمرو).

(3) البيت لعمر ابن الفارض.

(4) البيت لعمر ابن الفارض.

كأني سفينة بالأفكار مشحونة في يَمّ غم عجاج، كثير الأمواج، وكلما رامت البر، دخلت إلى لُجَّة البحر، وإذا طلبت الخلاص، لم تر لها مناص، فهي عائمة، وبالاشواق هائمة، هي بحالي الآن أشبه، وإن خفي عليَّ النجم واشتبه. شعر[1]:

أبيتُ بجفن السُهاد معانقٌ   تصافح صدري راحتي طول ليلتي

وقد أردت أن أؤدي الفَرْض فعجزت فلا جُناح، فلذا ألوَيت رأس القلم تحت طي الجِناح، فلم أدرِ ما أقول، ولكن بساط الرجاء ممدود، وحبل العناية موصول، وقد أرسلت الآن ورقة العبودية، أخطب بها إمدادت سيدي الباطنية والظاهرية، فالمسؤول من كرمه أن يُنعم بالجواب، لأحظى منه بلذيذ الخطاب المستطاب [و217]، فإنني من أشوَق الناس الى كتابه، لأطّلع على ما تبرُز به الإشارات من جنابه، ولا بأس بالتصريح، فلسان سيدي بنور المعرفة الالهية فصيح. شعر:

فيُخبر من في الحي عني ظاهراً   بجُملة أسراري وتفصيل سيرتي

ومما كتبته به إلى الأخ، أبقاه الله تعالى ووقاه وحرسه:

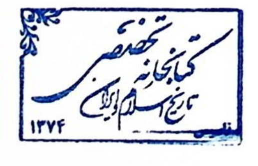
فنَومي مفقود، وصُبحي- لك البقا- وسُهدي موجود، وشوقي نامي، سلام لا يتضاهى، وغرام لا يتناهى، إلى جناب الأخ الأعز، أعزّه الله، وبعين عنايته رعاه، ومنّ عليّ بلقياه، ويتقبل دعاء أخيه فيه كما تقبل دعاه، بحرمة النبي ومن نباه. والذي نبديه اليه، أسبغ الله رداء القبول والإقبال عليه، إننا بحمد الله الكريم، ولطفه الشامل العميم، في الصحة الكاملة، والنعمة الشاملة، ونرجو منه جلَّ وعلا، أن تكونوا جميعاً دائماً في السلامة والعُلا، هذا وقد وصل في أيمن الأوقات، وأسعد الساعات، الكتاب الكريم، وقوبل بالتكريم، وحمدنا الله سبحانه على صحتكم، وسلامتكم وعافيتكم، وقد كنا ننتظره انتظار هلال شوّال، ونسأل عنه من كل جانب نسيم الجنوب والشمال. شعر:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم   ولقد قنعتُ اليوم بالمسموع

وقد حصل به كمال السرور، وغاية الحُبور، وقد كان أنشد لسان الحال، بل المقال، في تلك الأحوال، قول من قال. شعر[1]:

---

(1) البيت لعمر ابن الفارض.



قد كنت يوسف إذ بِعتم كأخوته بالبَخس مني فتى تغلو به القِيَمُ

فالمرجو إرسال الأخبار صحبة من يتوجه من تلك الديار، فأننا في غاية الانتظار، ولا يخفى ما قيل، وكفى بذلك دليل. شعر:

إذا ما غاب عنك أخ شقيق ولم يكتب إليك فقد جفاكا

فنعوذ بالله تعالى من الجفا، من أهل الوفا، ونسأله سبحانه الصفا، وحسبنا الله وكفى، والسلام.

ومما كتبته إلى الأخ الصغير، لما تخلفنا عن المسير:

في قرى مصر جسمُه، والأُصَيْحاب شاماً، والقلب في أجياد

الشقيق الأمجد الأسعد، والشفيق الأوحد الأرشد، أسعده الله تعالى، وأرشده وقربه منا بعد ما أبعده، أهدي اليه سلامي مع كل رائح وغاد، واستنشق نسيم سلامته من كل واد، وأسأل [و218] ممن قدَّر النوى، أن يُطفئ بالقرب نار الجَوى، ويجمع الشمل بعد تشتته بجاه سيدنا محمد وعترته.

وبعد، فإننا بفضل الله تعالى مُفيض الآلاء في الصحة والعافية والنعمة الوافية، ونرجو واليها، أن تكونوا جميعاً فيها، هذا وقد قدم ثامن ذي القعدة الحرام[2] الأخ القديم عبد الرحمن افندي القائم مقام، وبلغنا من حضرة المولى السلام، لما بيننا وبين خدمته الكريمة، من الحقوق القديمة، فاستشرنا في التوجه بعض الأعيان، فحسَّنوا لنا الإقامة برهة من الزمان، فاقتضى الحال أننا تخلفنا عن المسير، بخدمة مولانا وسيدنا المولى قاضي عسكر مصر، ذي الجناب الخطير، وقعدت عن خدمته، بقلب قائم الى حضرته. شعر[3]:

لئن قعَدَتْ عنه أجسامنا لقد سافرَت معه الأنفس

---

(1) البيت ليوسف أبي الفتح، قاضي العسكرين، من معاصري المؤلف، ذكره ابنه محمد أمين في نفحة الريحانة.

(2) من سنة 1059هـ الموافق 13 تشرين الثاني من سنة 1649م.

(3) البيت لمحمد بن جعفر المتوكل قاله للمعتمد حين أراد السفر إلى الشام كما في الوافي بالوفيات للصفدي ج2 ص222.

وذلك لشدة شتاء الطريق في هذه الأيام، وقد اقتدينا برحلة المرحوم الجد الى هذه الديار، صحبة المرحوم جوى زاده شيخ الإسلام[1]، وشتان بين الرحلتين، وبَوْن بعيد بين المتخلفين، وكما كنا اقتدينا به أولاً في المسير، اقتدينا ثانياً في التخلف والتأخير، وهي سُنّة سَنّها لنا السلف، واقتدى بها الخلف، ومشيت على عادتي في اقتفاء آثاره، والاغتراف بعد الاعتراف من بحاره، ولا غرو أن أحذو حذوه، واقتفي في سيره خطوه. وقد توجه المولى والقلب بجناح الشوق بخدمته طائر، واللب معه سائر. شعر[2]:

مثل صاع العزيز في أرحل القـوم ولا يعلمون ما في الرِّحال

والله سبحانه يوضح بفضائله إلى المعالي سبيلاً، ويجعل له حرز السلامة والعافية على الدوام خليلا، فالمقصود التقيد بخدمته العلية، ولا تنفكوا عن حضرته السنية والسلام.

هذا وقد صرت بعد فراق ذلك المولى أحْيِر من ضَب، وإلى الأوطان شائقاً صَب، لا سمير لي أجالسه، ولا نديم عندي أوانسه. شعر:

أقلبُ طرفي لا أرى من أحبه وعندي ممن لا أحب كثير

وقد ضاقت بي تلك الرحاب، وزند التذكر يقدح الأسف فيهيج الانتحاب [و219]، فتمثلتُ والجوانح في التهاب، وذخائر الصبر ذات انتهاب، بقول من أقام وسارت عنه الأحباب. شعر:

خلفتموني في الديار وسرتم رَهن الأسى وطليق سهم البَيْن

أبكى كأنَّ عليَّ حقاً واجباً أقضيه في شرع الهوى من عيني

فإن لاح ثنا بارق من نحو الشام، شاقني أو ترَنَّم شاد للبشام، حدا بي الى الهيام، وساقني إذ دموع شوقي عند ذكرها لا ترقا، وجفوني ليس لها من الأرق مَرقى، وشجوني تنمو إن صدحت بفننها ورقا، فيها لها من ذات طوق، مثيرة لكامن

(1) تقدمت ترجمته.

(2) البيت لأبي بكر محمد بن أحمد بن حمدان المعروف بالخباز البلدي كما في يتيمة الدهر للثعالبي ج2 ص244.

شوق، جالبة له من يمين وشمال وفوق، قد أذكرتني بصوتها حمائم الغوطتين[1]، وذكرتني بصوتها بلابل النيِّرين. شعر:

نزلتُ على حُكم القضاء ببلدةٍ   يذكرني وكع الإماء فصاحها

نديمي بها في كسر بيتي دفتر   وقُمريَّة ثكلى كسير جناحها[2]

تتضاعف زفرات هذا الصَّب، وتتزايد أشواق ولكن رب مملول لا يستطاع فراقه، فالأنسان مُسيَّر لا مُخيَّر، واللقاء مقسوم مُقدّر، والحركة والسكون بيد الله، ولا يكون إلاّ ما قدَّره وقضاه، وليس الى المخلوق شيء من الأمر، والتسليم أسلم، وهو سبحانه أبرُ وأرحم، وبالحال أعلم، ومن كل كريم أكرم. ثم لما قدم فائز حلبة كتائب سباق المعالي في مضمار المجد، المَحْدو بذكر محامده المحمودة في كل غَوْر ونجد، جرثومة المحامد والفضائل، وأرومة قطب الأماجد والأفاضل، ناظم عقود المعالي بأرقام رقامه، وراسم مراسم السعادة في طروس نظامه، صاحب المعارف التي يُبارى سناها، غرَّة الصباح والعوارف التي يجاري مسرى ذكراها، هبوب الرياح والشَيم التي التي تجمع الأهواء المتفرقة على محبته، وتؤلف الآراء المشتتة في مودَّته، والفهم الذي يخطئ نادرة الصواب، ولا يخشى عليه بادرة العثار في الجواب، شعر[3]:

فكان الذكاء يبعث منه في   سداد الأمور شعلة نار

ذو الأخلاق الأريَحيّة، والأحكام الشريحية، واحد الدهر، بجميع أدوات الحصر، فالجود عبد هو سيده، والفضل عقد جيده مقلده، والبلاغة سوار ليس لغيره، عليها يد [و 220] ورداء، المعارف لم تتلفَّع سوى قامته به قَد، وماء الفصاحة لا يجري إلاّ بناديه، وينابيعها لا تتدفق إلاّ من فيض أصابع أياديه. ولعَمري إنه التسابق الذي لا يُجارى في مضمار العلوم، والمُفرد العَلم في المنثور والمنظوم، عامر أندية المفاخر، مشيد دعائم المآثر، من رياض علمه أنيقة، ودوحة مجده وريقة، وجملة ما ذكر من القضايا، وشرح من المناقب والمزايا، قطعي البرهان، بل مرئي بالعيان، غني عن البيان. شعر[4]:

---

(1) متنزهان مشهوران قرب دمشق، على نهر بردى، يمتدان من الزبداني إلى مشارف دمشق.

(2) في الأصل (كثير)

(3) البيت للبحتري.

(4) البيت للمتنبي.

فوا عجباً مني أحاول نعته وقد فُنيَتْ فيه القراطيس والصُحُف

أعني بذلك عين مخاديم الروم الكرام، من نقل من قضاء دمشق الشام، وعاد متقلد أحسام قضاء القاهرة، والعَود أحمد، صاحب الفضائل الباهرة، حضرة المولى شيخ محمد مخدوم المرحوم، صدر الصدور، وحسنة الأيام [و] العصور، العالم الكبير، والنحرير الشهير، من سارت الركبان بذكره الجميل في الافاق، قاضي العسكرَين[1] بالاستحقاق، المولى الهمام حَسَن، من حديث فضله متواتر حسن، لازالت آي المجد بألسن أقلام المدح متلوَّة، وأبكار الأفكار بمدائح محامده مجلوَّة، ولا بَرِح روض مجده مبتسم ثغور الزهور، ودرر حمده ومدحه تفوق على قلائد النحور للحُور، فحمدت إذ ذاك وتهللت فرَحا، وقلت: الوَحى الوَحى[2]، فالولد سِتر أبيه، وفرع الأصل النبيل النبيه، شنشنة عَرَفها من أخذم[3]، ومن يشابه أبه فما ظلم، وعلمت أنه احرز رقى بالولا، لما ورث عن أبيه العُلا، فسمحت القريحة الكابي جوادها، وأورى قدح زند الأفكار الخابي زنادها، هذه القصيدة الغراء، والخريدة العذراء، مفصحاً فيها بنزرٍ من فضله وعدله، وتأبي محاسن مثلها أن تكون إلاّ من مثلي في مثله، فجاءت تتمايد في زي عجيب، وتتمايل في شكل بهيج اريب، وترفل في بُرد قشيب، ولا غَرْوَ فنظم الغريب غريب، فقد أنشدته حال عرضها على منيف حضرته، لما رفعتها لعالي سُدّته بعد ارخاء أستار الخجل اعتذاراً، وإبداء وجه السرور استبشارا، والتماس الفضل الفيّاض، واقتباس أنوار القبول من أنزه الرياض. شعر[و222]:

وبضاعةُ الفُضَلا إن أنفقتها نفقت وإن كسدتها لم تنفق

وقد كان يقوى في الظن أن شيمته الزاكية تتلقاها بالقبول، ويلحظها بالمقلة الراضية، وما هي إلاّ وسيلة في الانخراط في سَلكه، والانضمام إلى حاشية مُلكه، ولتجديد براءة العبودية، وإحياء مراسم المودّة الصادرة من حضرته العلية، ولم

---

(1) يريد قاضي عسكر أناطولي (الأناضول) وعسكر روميلي، بحسب التشكيلات القضائية في الدولة العثمانية.

(2) الوحى: بالعجل.

(3) أخذم: اعترف بخطاه وسكن.

يفرض لها فكر جائزة واجبة إلاّ القبول، وأن ينظم ناظمها في سلك المشمولين بشريف نظره الذي لا يكره إلاّ نفي الشمول، وهي قولي. شعر:

العلى بالمنى تبسم   لشمال البِشر مُذ تنسَّمُ

الخ عدد (58)

فحين عرضتها على جنابه الرحيب رحاب المجد، وأحللتها بتلك الأبواب التي هي مواقف الفوز والسُعد، لحَظها بعيون ترى النجوم ظهرا، وقابلها بقبول تخلق بقلائد المدح من المكارم صدرا، وان كنت في ذلك كمهدٍ نور البراعة لذكاء فلك الذكا، وجالب بُرود وشي بلاغة لضيعا، وإن كان المديح لا يزيده رفعة قدر، فإنه كما قال الأعرابي الذي ضلت ناقته في مدح البدر. شعر[1]:

ماذا أقول وقولي فيك ذو قصَرٍ   وقد كفيتني التفصيل والجُمَلا

إن قلت لازلت مرفوعا فانت كذا   أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

كيف لا وقد أغلى قيمتي، بعدما بيعت بثمن بخس بضاعتي، وبلغني في دولته بعض آمالي، وتقيد بانتظام حالي. شعر:

فمن يغرس المعروف يجنِ ثماره[2]   فعاجله شكرٌ وآجله أجرُ

فقد فتح لي باب السعادة، والله سبحانه يكبت أعداءه وحُسّاده، ويخرق بطول بقائه العادة، وأحسن ثانياً بنيابة بولاق[3]، وصفا الامان بها وراق، وحصل الانس والصّفا، وكأنّ الدهر قد كان وَعَد بذلك فوفى، ومضت لنا أوقات، تعد من الدهر حسنات. شعر[4]:

ءَاهًا لايّامِنا بِالْخَيْفِ لَوْ بَقِيَتْ عَشْرًا   وَ واهًا عَلَيْها كَيْفَ لَمْ تَدُمِ

---

(1) البيت من تفسير (مفاتيح الغيب) لمحمد بن عمر التيمي الرازي. ج2 ص 108.

(2) في الأصل (نعرس المعروف نحن ثماره).

(3) أي نيابة القضاء فيها. وجاء في الدر المختار للحصكفي أن نائب القاضي المفوض إليه الاستتابة نائب عن الأصل وهو السلطان فلا يملك أن يعزله القاضي بغير تفويض منه ص 393

(4) البيت لعمر بن الفارض.

فيالها من ليال وأيام، مرّت كأضغاث أحلام، وشيمة الدهر أن يُبدّل الصفو كدرا، ويوسع أيام عقوقه طولا وأيام بره قصرا. ولا أقول إلاّ أنه شعر بتلك المَسرّة المسروقة، فأقام عليها حد القطع، ورأى العيش فيها خفضاً فأزاله بعامل الرفع. شعر[و222][1]:

ما أعجَبَ الأيامَ توجِبُ للفتى منِحاً وتمحَنه بسَلبِ عَطاء[2]

وإلى الله تعالى المشتكى من دهر إذا اساء أصرَّ على إساءته، وإذا أحسن ندم من ساعته، ولا بَدع فهذا دأب الأيام، فليس عليها ملام، وقد توجَّهتُ بخدمة جنابه العالي، إلى منازلي وأوطاني، ومعهدي الذي مطايا العز أوطاني، والأفق الذي به منازل ذات اقمار سائرة فيها، والمنازل الذي لا يحصي الواصف محاسنها ولا يستوفيها، ومرآها الجليل الجميل، وبيوتها التي لم تخرج عن عروض الخليل. شعر:

فمنظرها عندي ألذ[3] من الكرى لعيني وأحلى في فؤادي من الشهد

كيف لا! [و] قد تجمّلت بأنواع الأزهار والرياحين، وحُفت بالأنهار والبساتين، وتشرّفت بأن أوى الله المسيح وأمه (إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)[4]، ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل، ففي تلك المغاني والرُبا، مَهب الشمول والشمال والجنوب والصَّبا. شعر[5]:

أيا جَبَلَيْ نَعْمانَ بالله خَلّيا نسيمَ الصّبا يَخْلُصْ إليّ نَسيمُها

أجِدْ بَرْءَها أوتشْفِ مني حرارة[6] على كبدٍ لم يبقَ إلاّ صميمُها

فان الصَّبا ريحٌ إذا ما تنسَّمت على نفس مهموم تجلَّت همومُها

---

(1) البيت لابن الفارض.

(2) في الأصل (وتمنحه نسلب).

(3) في الأصل (التي).

(4) المؤمنون آية 50

(5) البيت لمجنون ليلي.

(6) هكذا في الأصل، وفي القصيدة (صبابة).

ولا غرو فإنها جنة المَشرق، ومطلع حُسنه المونق المُشرق، ولله دَرّاصدق القائلين فيها: إن كانت جنة في الأرض فدمشق لاشك فيها، وان كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها. شعر[1]:

إن تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ولا يكون سواها

أو تكن في السماء فهى عليها قد أمدّت هواءها وهواها

بلد طيبٌ وربٌ غفور فاغتنمها عشيّة وضحاها

فما تذكرت تلك المرابع، التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي [هي] مطالع العيش الناضر، والحدائق التي أخذت بدائع زخارفها، ونشرت ظرائف مطارفها، إلاّ فاضت الدموع من الأجفان، وتزايد الشوق والأشجان، وأهديت من شدة الغرام اليها جزيل السلام. شعر[2]:

سلام على تلك المعاهد إنها شريعة وردي أومَهَب شمالى

ليالى لم نحذر حَزون قطيعة ولم نمش إلاّ في سهول وصال

فقد صرت أرضى من نواحى أرضها بخُلّب بَرق أو بطيف خيال

[و223] وقد كنت طويل الليل منذ فارقتها بل قصيره، وقليل الأنس بعدها بل كثيره، أما طول ليلي فلتذكُري طول غيبتي، وأما قصره فلقطعي له بتمنّي أوْبَتي، وأما قلة أنسي فلبعدي عنها الآن، وأما كثرته فلتمثلي لها بالعَيان. شعر:

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن بأرض الغضى ليلى على يطول

فياليت شعري هل ابيتنّ ليلة وليس له غوث إلىَّ سبيل

وقد تذكرت قول الشاعر، والأديب الماهر، وقد أجاد في وصف الباءات الثلاث الموجودة في هذه البلاد. شعر[3]:

ثلاث باآت بُلينا بها البَقُ والبرغوثُ والبرغشُ

---

(1) الأبيات في رحلة ابن بطوطة نقلا عن بعض شعراء دمشق.

(2) الأبيات في يتيمة الدهر للثعالبي غير منسوبة لأحد.

(3) في حياة الحيون للدميري أن هذه الأبيات أنشدها الحافظ زكي الدين عبد العظيم لشيخه الحافظ أبي الحسن المقدسي.

ثلاثة أوحش ما في الورى   ولست أدري أيهم أوحشُ

وبالجملة والتفصيل، فيكفى في هذا المقام ما قيل: إن خير الأمور الوسط، وحب التناهي غلط، ولله درّ القائل حيث قال، وأصدق في المآل. شعر[1]:

في حلب وشامنا   ومصر طال اللغط

فقلت قول مُنصف: خير الأمور الوسط

وقد كان نطق اللسان معربا عن الجنان، ولا غرو فحب الوطن من الإيمان، فأهنأ العيش ما كان في الوطن للمقيم، بين الأهل والسكن والنعيم. شعر:

عليكَ بجِلّق سكنا   فنعم الدار والمَسكن

وغضّ الطرْفَ عن مصر   فما هيَ بلدة تسكن

فنسألك اللهم يا مُفيض سر النماء والإحياء على سائر المخلوقين، ونتوسل باسم نبيك محمد سيد المرسلين، وآله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الاخيار، والتابعين لهم من المهاجرين والانصار، أن تعطينا الهداية والتوفيق، والوصول بكرمك الى أقوم طريق، فها أنا رافع أكف الضراعة الى جنابك، وعاكف بنجب الامل لدى بابك، فلا أقطع عنك الرجا، ولا أقعد عن الالتجا.

هذا ولنجذب الآن عنان أدهم القلم، فيما رقمناه في هذه الطروس من الحِكم، ونجعل مسك الختام الصلوة والسلام على سيدنا محمد سيد الأمم، وسند العرب والعجم، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه رياض ثمرات المجد والكرم، ومنابع فيض الفضل والنعم.

---

(1) البيتان في نفح الطيب للمقري غير منسوبين لأحد.

[تذييل للناسخ]

هو الله الذي لا رب غيره

الحمد لله في السَفر والحضر، عدد من غاب وحضَر، الذي لا يُرحَل إلاَّ إلى كريم بابه، لقضاء الوَطر، ولا يُسفر سفر عن وجه الظفر إلاَّ ذلك السفر، والصلوة والسلام على رسوله المعزز الموَقر، من تضرب اليه أكباد الإبل في كل ما يُرجّى ويُحذر، جدي سيدي وسندي محمد المنصور المظفر، الذي له هجرتان على ما تحقق في الاسفار وتقرر، وعلى آله وأصحابه أصحاب محمود ذات السير، وعلى من هاجر معه ونصره على من كفر، صلى الله تعالى عليه وعليهم عدد من أقام وسافر.

أما بعد فهاتان الرحلتان الرومية والمصرية، للشريف فضل الله بن محب الله بن القاضي محب الدين الشامي، اقتفي فيهما أثر جَدّه المرحوم، فله أيضاً رحلتان منطويتان على المنثور والمنظوم، إحداهما في توجهه الى مصر، والأخرى الى الروم، حذا فيهما حذوه، ونحا نحوه، في طريف ما أتى به وتالده، ولا غَرْوَ أن يحذو والده إلاّ أن هاتين لا يخلوان من سقطات من جهة اللفظ والمعنى، لا يرتضيها كل عالم مُهذَّب كما لا يخفى، لكنني كتبتهما على ما فيهما من عوَج، ومع ما يوجد في تضاعيفهما مما يُعاف ويُمَج، لأن غالبها عند ذوي الانصاف يليق بالاستجادة والاستظراف، ولا يترك اللبيب النبيل الخير الكثير لاجل الشر القليل، ولا يهجر الورد بلا شك لما يقارنه من الشوك. هذا وقد أصلحت عند الكتابة، بعدما عدم فيه الإصابة، مما لا يحتاج الى تكرير النظر، قل أو كثر، وأما الهنات التي تحتاج الى كثير من المحو والاثبات، فتركتها على تلك الحالات، إذ ما انا بانشاء أثر من لسانه بضَمين، وما أنا باصلاح ما أفسد قبل سؤاله بقمين، ولو التمس ذلك مني لوجدني غير ضنين. وأما الأشعار التي كتبت قبل هاتين، فهي أيضاً آثاره، وديوانه وما حال نظمه إلاّ كحال نثره في الإصابة والغلط، فانه مزج في شعره ايضاً المرضي بغير المرضي وخلط، وكتبت كله لضيق الوقت عن أن يُنتقى ويُلتقط، والله الموفق للسداد وهو الهادي الى سبل الرشاد، وذلك كله في شهر ربيع الأول من شهر عام ثلاث وسبعين والف من هجرة من أنزلت عليه (لإيلاف قُرَيش إيلافهم رِحلة

الشتاء والصيّف)[1] صلى الله تعالى عليه وسلم، ما رحل راحل ونزل نازل، وكتبه العبد الضعيف عبد الله السيد الشريف الشهر بسعدي زاده[2]، الراجي من مولاه كل ما أراده، القاضي سابقاً بمدينة سلانيك[3]، بفضل من لا نديد له ولا شريك، [ما] سَجَع في أرجائها طائر [و][4] ما ناح الحمام وصاح الديك، وعُفي عنه وغفر له آمين.

---

(1) قريش، الآيتان 1 و2.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) مدينة في القسم الأوربي من الدولة العثمانية، في مقدونية، وهي مركز الولاية واللواء اللذين يحملان الاسم نفسه، في عمق خليج سالونيك، فتحها العثمانيون سنة 834هـ/ 1430م.

(4) ما بين العضادات يقتضيه السياق، وفي الأصل (طائر الأمن ما ناح).

ملحق

رسائل لعدد من علماء القرن الحادي عشر للهجرة[1]

(1) يوجد في المجموعة التي احتوت هذه الرحلة عدد من الرسائل التي كتبها بعض العلماء في حلب والشام إلى المؤلف يقرضون فيها رحلته، على عادة المؤلفين آنذاك، ورسائل أخرى كتبها علماء دمشق في التشفع لدى السلطات العثمانية لقاضيها، ورسائل أخرى لأغراض مختلفة، ونظراً لأن بعض من وردت أسماؤهم في هذه الرسائل موجودون في الرحلة أيضاً، وربما جمعها المؤلف نفسه، فقد رأينا من المفيد نشرها هنا، لا سيما وأنها تمثل نماذج من أدب الرسائل في ذلك العصر.

[1]
[من عبد الرحمن العمادي إلى كمال الدين طاشكبري زاده[1]]

صورة المكتوب الذي أرسل به الفاضل المرحوم عبد الرحمن العمادي الحنفي[2]، المفتي بدار السلام دمشق الشام، دامت عَطِرة ما شمٌ شام، إلى شامة وجه الأنام، كمال الدين المرحوم الشهير بطاشكبري زاده، حشره ربه مع أصحاب السعادة:

أمولاي يا روح الكمال تعطفا ... بمن ليس يثنى مدحه عنك بل يثنى

وتالله ما استأثرت غيرك سيّداً ... إليه برٌ لا يخاف فيستثنى

وإن لم تكن عندي كسمعي وناظري ... فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

أسبغ الله تعالى ظلال الفضل والكمال، وبلغ أهل العلوم والفضائل أبلغ الآمال، واخضل روض المجد ورواه، ورفع سمك عماد الدين وسواه، بدوام سعادة أيام ملك العلماء الاعلام، وحسنة الليالي والأيام، التي دهرها بمثلها عَقام[3]، أسعد الله تعالى بسعوده جناب العلم، وحمى حماه، وخلد بوجوده اسم الكمال ومسمّاه، أعنى به أكبر الموالي الكرام شأناً وسنا، وأعظمهم حِسّاً ومعنى، صاحب المجد الذي استمجد مرخ الماجدين، وعقارهم [و111] من مجده، وبيت العلم الذي ورثه عن أبائه وأعمامه وأخواله وتربى معه في مهده[4]، ضاعف الله تعالى إجلاله، وخلد فضله وكماله، وأمتعه بفروعه الكرام حتى يرى منهم أصولاً أمثاله، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

---

(1) هو محمد بن أحمد بن مصطفى، كمال الدين، المشتهر كأبيه بطاشكبري زاده، أخذ عن أبيه مؤلف كتاب (الشقائق النعمانية)، وعن شيخ الإسلام أبي السعود العمادي، وولي التدريس في مدارس القسطنطينية، ثم عين قاضياً في حلب، ونقل منها إلى دمشق سنة 1005هـ/1597م، وعزل عنها، وأعيد إلى قضاء حلب، ثم ترقى في المناصب حتى ولي قضاء العسكرين، أي قضاء عسكر روميلي وأناضولي، وتوفي سنة 1030هـ/1620م. خلاصة الأثر.

(2) تقدم التعريف به.

(3) في هامش الأصل ما يأتي: العقام بالفتح العقيم.

(4) في هامش الأصل: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعقار، فالعقار الزند، وهو الأعلى، والمرخ الزند وهي الأسفل. قاموس.

وبعد فان العبد مقيم على وظيفة الدعاء المعهودة، شاكر لما لا يزال يَردُه من حياض رياض الفضل المورودة، وأثلج الله قلوب الوافدين الواردين بورد بَرد زلالها، وأنام المخلصين المخصّصين في أمان شريف حمى كمالها، ووريف ظلالها، آمين. هذا وقد شرُف مكتوبكم الشريف صديقنا وتلميذ والدنا مولانا العلامة الشيخ عمر القاري، وشنّف الأسماع بقراءة ذكر عبدكم في الحاشية القارئ، فلعمري لقد صار عبد الحاشية بكتابة سيده حرّاً، وبأبرد ما وقعت تلك الغيمة الباردة على هذه الكبد الحرّى، فلا جَرَم أن نظم العبد عقود اللثم في سلك ذلك الدرّ المنثور، كما يعلمه عالم خفيات الصدور، وإن كان قد فضح حين افصح بما للعبد معترف به من التقصير الذي ليس له عذر الإ كمال القصور، أدام الله تعالى من صحاح جوهري كلام تلك الحضرة جَبْراً لكل قلب مكسور، ما تجددت الأيام والدهور، آمين. ثم أن هذا العبد ليقسم ببارئ النسم، وإنه لأعظم قسم، أنه لم يكن له سبب في قصور الهمّة، عن السعي الى قصد الخدمة، وفي تثبيط النفس عن بلوغ أقصى الآمال، وتأخرها عن نَيْل السعادة بالوصول الى محل الكمال، وتقاعد حظها الناقص من مشاهدة أنوار هاتيك الحضرة الكمالية الجمالية، وتقاعس طالعها الناكص عن الفوز بعظيم هذه الأمنية السنية، الآ ما ابتلي به من ضعف الحال، وعاقه علاقة الأولاد والعيال، فان له ثلاثة من الأولاد، وأصغرهم قد بلغ العشرين، وكلهم بحمد الله تعالى كالحلقة المفرغة في صفات الفضل والدين. ثم أن أصغرهم قرأ بعد اتقان المقدمات النحوية والصرفية والفقهية، مفصل الزمخشري وشرح الألفية، وقرأ القدوري وملتقى الأبحر بطرفيه، مع التزام [و112] دروس أخويه، من الجامي ومغني اللبيب ومختصر المعاني والأختيار والدرر والغرر. وقرأ من الأدب المقامات وديوان المتنبي، وحفظ أكثره وغيره من محاسن الشعر الغرر، وهذا كله يعلمه الفَضَلَة من أهل الديار الشامية، المترددون الى العتبة العلية، فإن جاز أن تشرفوه بالدانشْمَنديّة[1]، لتأكيد نسبتنا الى الحضرة الشريفة الكمالية، كان ذلك أقصى الآمال، من البلوغ الى نسبة الكمال، وقد كان أحد أخويه شرّفه المولى علي زاده، والأخر شرّفه المولى شرف افندي جزاهما الله الحسنى وزيادة، ولعل الحظ

---

(1) دانشمند: لفظة فارسية بمعنى: عالم، يريد: رتبة العلماء، أو العالمية.

الأعلى، والمدح المُعلّى، يكون لهذا الثالث إبراهيم، وكم من محظوظ كان تأخيره سبباً للتقديم، وما سُوّغ للعبد هذا الإقدام الذي قرب له تناول النجم الساري، إلاّ سماع سماحكم بمثل ذلك لابن ابن القاري، فقالت النفس العروف: بقدر نسبتها الى هاتيك الحضرة الشريفة، ما كان أولاني بموضع هذه المنقبة المنيفة، والله تعالى يمتع بدوام سعادتكم العلماء في جميع البلاد، ويرتع من لهم من الأولاد في وريف ظلالها الدائمة الامتداد، آمين.

العبد الداعي عبد الرحمن العمادي عُفي عنه

[2]

[من احدهم إلى قاضي حلب]

لغيره للمولى المرحوم:

يا من تفرَّد بالكمال، وتوحد بنعوت العظمة والجلال، نحمدك ما ماسَ غصنٌ ومال، ونصلي على من ألبسته حلة الجمال، ونشرت أعلام علمه في الآفاق، حتى سما على إقرانه وفاق، ونسألك أن تديم عنايتك بمن أحكمت بإحكامه المسددة المنورة، قواعد هذه الشريعة الشريفة المطهرة،، حضرة مولانا مولى الموالي صاحب المقام العالي، يتيمة عقد هذه السادة، وفريدة هذه القلادة، من أضحى به البلد آمناً محروساً، ورأس الظَلَمة بسطوة عدله منكوساً، كمال الدين والدنيا، خافض أعناق أهل النفاق بهمته العليا، لا زال محفوظاً في نفسه وولده، آمنا [و113] من كدر العيش ونكده، بالقرآن والنبي الكريم، آمين آمين، بحرمة سيد المرسلين.

[3]

[من عبد الكريم المصري إلى قاضي حلب]

قال عبد الكريم المصري مؤرخا وفاة بنت المرحوم كمال الدين[1] المرقوم متعها الله بدار المقام سنة 1001[2].

---

(1) هو كمال الدين محمد طاشكبري زاده المتقدم.

(2) كذا ورد في نهاية الرسالة السابقة، دون إثبات نص عبارة التاريخ.

[4]

[من عبد المعين إلى قاضي حلب]

قال الشيخ المعرِّف الخطيب، مؤرخاً لقضاء المولى المذكور بحلب الشهباء

قال عبد المعين في المولى المزبور

قاسوا نداه بالسحاب فأخطاؤا   اتقاس بالسحب البحار الدّفق

إذا رمت صبرا عن هواه وذكره   يقول الهوى لن تستطيع معي صبرا

[5]

[من عمر العرضي[1] إلى قاضي حلب]

مما أهدى إلى المولى المرقوم المرحوم بحلب المحروسة:

مولاي سيدي! ابّد الله لك الدولة الرفيعة، وأبقى لك ولذريتك العزة المنيعة، مقروناً ذلك طيّب بين الأنام، وما فيه بدنية وسيرة لا يشوبها مَلام، لعبدك شوق الى لقيا ذاتك الكريمة، وتعطش الى الجلوس في تلك الحضرة النقية السليمة، لكن والذي مَنَّ عليك بما مَنْ، إنني مشغول بالدعاء لك سيما إذا الليل جن، ثم ننهي اليك من جهة سليل شيخنا قطب العالم بلا نزاع، الولي المقطوع بولايته بلا دفاع، الشيخ عبد القادر الجيلي، فانه محترف بصنعة الزراعة، وليس له رزق إلاّ منها بحسب الظاهر، وقد طال عليه المطال والإقامة بحلب، فأما أن تفصلوا القضية بما أراكم الله ونوَّر به صدركم الشريف، وأما أن تعطوه إذنا في الذهاب الى حماه، ليدفع البذار الى الفلاحين، فإن أيام الزرع تضايقت، والأيام تلاحقت، والشيء إذا فات استحال [و113] عَوده، وامتنع تداركه، ومثلك أهل الحنو والشفقة، واذكروا قول النبي – صلى الله عليه وسلم– (من أسدى لأولاد عبد المطلب معروفاً فعلى

---

(1) هو عمر بن عبد الوهاب بن إبراهيم العرضي الحلبي الشافعي القادري المحدث الفقيه، ولد في حلب سنة 950هـ/1543م ودرس على يدي والده وعدد من كبار علماء مدينته، ثم درّس وأفاد، ولازم الزاوية الحبشية مدة أربعين سنة، وصار مفتي الشافعية بحلب وواعظها بجامعها. ألف تآليف كثيرة. توفي 1024هـ/1615م. خلاصة الأثر ج3 ص215.

مكافأته يوم القيامة)[1]. ولا تؤاخذونا بسوء الأدب، والسلام بعد تقبيل اليد بل العتبة. من عبدكم الداعي عمر بن العرضي.

[6]

[دفع علماء دمشق لتهم الحقت بقاضيها حسن افندي]

هذه كتب من علماء الشام في تسرية قاضيها عما رماه المُبطلون، وطعن فيه الطاعنون:

الحمد لله بارئ النسَم، وصلى الله على سيد العرب والعجم، محمد النبي وعلى آله وصحبه وسلم، ما أذعن مُبطِلٌ للحق أو سَلّم، وبعد، فلما طنَّ على آذان سكان الشام، من المشايخ والصلحاء والعلماء الاعلام، ما دبَّره المُبطلون، وخاض فيه قوم عن الحق مُعرضون، من ترتيب قصَص، وكتابة أوراق، تتضمن على قاضي قضاة الشام دمشق المحروسة، مولانا حسن افندي، لا زالت بعدله وديانته وتقواه مأنوسة، وأنهم أكثروا من الرُّشى لبعض البطّالين، وأكثروا من الإعطاء للقوم المفسدين، الذين تركوا ديارهم، وفارقوا مكانهم، وسكنوا بالقسطنطينية المحمية، للشكوى على الناس ورَميهم بكل بليّة، فخاضوا فيما ليس لهم به من علم، بل ربما لم يدخل أحد منهم دمشق الشام، ولا وقفوا على ما بها من نقض وإبرام، وإنما قاضيها المذكور، والمُنوَّه باسمه في هذا المنشور، من دين قضاة الإسلام، وممن جمع بين العلم والورع والتقوى والعدالة التامة بين الأخصام، بعث ذلك على كتابة العلماء والصلحاء هذا المحضر الشريف، وله رسالة الى ذلك المقام العالي المنيف، ليتحقق من في تلك الدرّكات العليّة[2]، والأفنية الشريفة المؤيد من حلّها بالعناية الربانية، إن من رتّب ذلك وأنهاه، وأرسل به من بلد الى بلد ليبلغ به ما يتمناه، لم

---

(1) أورد السخاوي هذا الحديث كالآتي (من صنع إلى أحد من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا فعلي مكافأته إذا لقيني) . ينظر المقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الحديث رقم 1058.

(2) في الأصل تعليقة على الهامش هي: قوله في تلك الدركات عربوا لفظة دركاه هكذا ح. والذي في معجم (الدراري اللامعات): والدركاه، بكاف فارسية: العتبة، والباب. والملك، والتكية، والخانقاه.

يكن في قصده سوى الفساد، والبغي على الناس والعناد. لا جَرَم صرعه الله لان للباغي مصرعا كما وردت بذلك الآثار، ونطق به صحيح الأخبار. ثم ان مولانا المشار اليه، المفترى عليه، بريء مما رُمي به، وأُنهي في حقه، [و115] وبسببه فأنهينا ذلك على نهج الصحة والصواب، وكتب كل منا خطّه بذلك راجياً جزيل الصواب.

الحمد لله ناصر المستضعفين من عباده، وناشر ألوية العدل في أرضه وبلاده، وقاهر من تمرَّد في ظلمات ظُلمه وقبيح عناده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد عباده، وصفوة أهل وداده، وعلى آله وأصحابه وأنجاده، وبعد، فقد تجلّى الحق على عباده برحمته الشاملة، وأمطر عليهم سحائب كرمه الهاملة، بقدوم مولانا قاضي القضاة بدمشق المحمية، القائم بتقوى الله في ظواهر الأمور وبواطنها الخفية، الآمر بالعدل والإحسان، المتمسك بكتاب الله الكريم المنّان، استقامته مشهورة، وسيرته حسنة مأثورة، إمام أعلق نار[1] العدل فتستعر لفحه، واغلق باب الظلم فتعسر فتحه، فالحساد الذين انتصبوا للشكوى وتعيَّنوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)[2] فيا ذوى النفوس الزكية، ويا له كان[3] الدولة العادلة الراضية المرضية، المنتصرين للحق بالعصبية، اصدعوا بالحق صدر الباطل، وميِّزوا العالم من الجاهل.

قاله وكتبه الواثق باللطف الخفي، زين الذين بن محمد بن سلطان الحنفي!

حمداً لرافع الوداد، وناصب الأقطاب في العالم والأوتاد، وخافض الطاغين أهل البغي والفساد، وصلاة وسلاماً على صاحب الفيض والإمداد، وعلى آله وصحبه وتابعيهم على السداد، وبعد فلما طرق الأسماع ما هو الى هذا الرقيم داع، نزّهنا مولانا قاضي القضاة عن الذي به الحَسُود رماه، فعِرضه مَصُون عن ذلك، وفقه الله خير المسالك، وحمى هذه الشريعة المحمدية بهذه الدولة الشريفة العثمانية، وخلد سلطانها في العباد، وعاملها باللطف [و]الإسعاد، ما برق

---

(1) علقت به النار: نشبت. ويجوز أن تكون العبارة (أما من علق نار..)

(2) الحجرات، آية 6.

(3) كذا في الأصل، ولعلها (أركان).

[و116]بالأبرقين، ونَفَرَ نفرٌ بالعلمين، ورقصت قلوص بالمَأزمين[1]، وسجدت لله جباه العباد، وفرغت عن شواغل الدنيا قلوب الزهاد. قال ما ارتقم، وزيره بالقلم، فقير عفو الله سبحانه، محمد بن الحجازي لطف لله به حامدا مصليا مسلماً.

الحمد لله المنعم على مخلوقاته، والصلوة والسلام على سيد بَريّاته، وعلى آله وأصحابه أنصار الدين وحُماته، صلوة تبَوِّء قائلها غُرف جناته. وبعد، فالذي نعرفه يقينا هذه الأيام على جانب عظيم من الانة، ومعروف بالعلم والديانة، فمن قال غير ذلك فقد اجترى، ومن أظلم ممن افترى، فيستحق الإهانة الوافرة، والطرد والعقاب في الدنيا والآخرة، ويُثاب ولي الأمر - أيد الله به الدين وقمع به المفسدين- بذلك الثواب الجزيل، بالقصد الجميل. قال ذلك وكتبه، فقير ذي اللطف الخفي، محمد بن محمد بن البهنسي الحنفي، حامداً مصلياً مسلماً.

أما بعد حمد الله، والصلوة على رسول الله، فالذي نعرفه ونشهد به ونتحققه عين اليقين ندين الله به، أن مولانا المشار اليه بريء مما نُسب إليه، بل هو أكمل الناس ديانة وعفة، فيجب على ولاة الأمر ردع من بغير ذلك وصفه، وله الأجر الجزيل، بالقصد الجميل. قال ذلك وكتبه أحقر الورى عبد الرحمن بن تاج الدين.

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، فالذي نقول - وبالله التوفيق- ان ما قالته السادة العلماء[2] المذكورون أمامه صحيح لا ريب فيه. وكتبه الفقير الى الله أحمد بن سلمان:[و 117]

حَسَدوا الفتح إذ لم ينالوا سَعْيَه	فالناس أعداءً له وخصومُ
كضرائر النساء قلن لوجهها	حَسداً وبُغضاً انه لدميم

أحمد الله على جزيل الإنعام، وأصلي واسلم على سيدنا محمد سيد الأنام، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام، صلاة وسلام دائمين الى يوم القيام، ما أزال ضياء الحق غياهب الشكوك والأوهام. وبعد، فإن مولانا قاضي القضاة بدمشق الشام، مرقد الأنبياء الكرام والأصحاب العظام، لم يزل بالعدل معروفاً، وبالبر

(1) القلوص: الإبل المجتمعة، والمأزمين: الطريق من عرفات إلى البيت الحرام.

(2) في الأصل (السعادة).

والإحسان موصوفاً، ما علمنا عليه سوءً في الأحكام، بل علمناه يشيد الشرع الشريف، ويحكم أصوله وفروعه أي احكام، ما نسب اليه ما يشين إلاّ حسود ظالم، فقطع الله دابره، أراد أن يصلح دنياه بالإزراء على غيره، فأفسد على نفسه الدنيا والآخرة. لا جَرَم أن ذلك جزاء من اجترح كذباً واجترى، فقد قال الله جل جلاله (وقدْ خابَ مَنْ افترى)[1] والله المسؤول، والمرجو والمأمول، أن يحرس بالملائكة الكرام، مولانا أمير المؤمنين، سلطان الاسلام والمسلمين، مولانا السلطان مراد[2]، خلد الله مُلكه، وجعل الأرض كلها ملكه، وفتح له فتحاً مبينا في ظل عدله الأنام، وملّكه من مشارق الأرض الى مغاربها ليكون الجميع ببركته دار اسلام. قال ذلك وكتبه المذنب المسيء إسمعيل بن النابلسي، حامداً مصليّا مسلماً.

أحمدك يا من أكرم العلماء المتقين، أهل الشريعة البديعة الرفيعة، وقمع الحسدة الفسدة المنافقين، أهل البدعة الشنيعة الوضيعة، وصلوة تاماً دائما، وسلاما للمبعوث على الباطل حساما، وعلى آله وصحبه ومن تلى، وحزبه وحُبّه ومن تلى. وبعد، فقد اشتهر أن عمدة العلماء الأعلام، وأقضى قضاة الاسلام بدمشق الشام، هو مولانا المُنوَّه بذكره، والمُعرَب عن شأنه، وأمره لم يزل موصوفا، على كل لسان بأصناف الإنصاف معروفاً، عند كل انسان بالعدل والعفاف قائما، [و 118] بالحق على الحق في كشف الأمور مراقبا، لم يعلم خائنة الأعيُن وما تخفى الصدور. وبالجملة لا ريب أنه مُبرّأ عما يقوله المبطلون، مع صفاء نية، وحسن طوية، يشهدها المقربون، لم نطلع له على مَيْل إلى مَيْن أو عَيْب، ولا ما يريب الافتراء ورجماً بالغيب، ومن تقوَّل عليه فقد أعلن بعطبه، وباء بسخط الله وغضبه، لإذاعته باطل القول ونقله أراجيفه، ويكفيه أنه تكلم بما يَحمَرّ الوجه ويسود الصحيفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، قال ذلك وكتبه الراجي عفو ربه الأعظم، عبده الفقير الحقير احمد بن المكرم الحنفي عفى عنه.

لعل هذا رُفع إلى المرحوم كمال الدين أفندي إذ وُجد مع المهديات اليه.

---

(1) طه، الآية 61

(2) يريد: السلطان مراد خان الرابع.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)[1] الآيات (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). لعمرك أن العفو أقرب للتقوى، وإن لطيف المَن أحلى من السلوى، وإن الرضى والصلح خير لأهله، وإنك أولى بالمكارم والجدوى، إمام جليل عالم متعفف تولى عليك الفضل في السر والنجوى، وأرجو لكم خير الأمور ودمتم تراعون وجه الله بالبر والتقوى، وأمر ابن والي والعز يمين والذي يُصوَّر في الدعوى يقابل بالدعوى، نزاع طويل، واستطال به العنا، وليس يخاف أن ذاك من البلوى، (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ومن أبى ذلك بالألوى، وذاك لوجه الله جل جلاله وليس بمأمور عليكم ولا دعوى، وما عندنا نقول تحامل على أحد والشكر أولى من الشكوى، ومن فضلكم نرجو الصلاح فإنه تفاقم هذا الأمر من غير ما جدوى، فريقان قد طال التنازع منهما فلالا ولالالا ولالالا ولا مثوى، [و 119] وهذا مقام لا يليق بعاقل فأما وأما والمعاند ذو شقوى، لحضرتكم في كل شيء تأمل جميل وتحقيق الى الغاية القصوى، فمهما رأيتم في إصلاح فإنه هو الخير والاهواء تجر إلي الاهوا، ومن يثق الرحمن يرزق وأدعا، ويجعل له سُبلا الى كل ما يهوى، وانتم بحفظ الله والفضل واسع والطافة أحلى، من المَنّ والسلوى، وسطَّرها عبد الكريم[2] مفوضاً الى الله يرجو الفوز بالبر والتقوى، اليكم المعذورة فإنها سُطِّرت على غاية من العجلة، فأسبلوا على ما فيها ذيل الستر، والسلام، وحسبنا الله ونعم الوكيل. هذه الأبيات كتبت في ضمن ورقة معروضة عليه:

وهذا مراد لا يتم بغيركم	فمنّوا على الداعي به وتفضلوا
فما غيركم للعبد مولى ومقصد	يجود بمقصود العبيد ويفعل
وفيكم لنا أحسن اعتقاد وتأمل	ومنكم لنا الخيرات تُجبى وتحمل
وحاشا الذي أضحى يؤمل أفضلكم	يعود بلا شيء وجودك يهطل

(1) الحجرات، آية 9.

(2) لم يذكر اسم أبيه أو لقبه لنعرفه، والراجح أنه عبد الكريم العبادي الدمشقي وقد تقدم أن المؤلف كتب إليه رسالة من مصر متشوقاً.

ومن أنا حتى استحق لمثله وما ذاك إلاّ نعمة وتفضل[1]

[7]

[من أمير لواء سلمية إلى العالم كمال الدين[2] يهديه مشمشاً]

الى المرحوم كمال الدين:

أدام الله تعالى ذلك الكمال الذي لا يحيط ببعض أوصافه مجموع، والمحامد التي تشرفت بانضيافها اليه وبلغت صيغة منتهى الجموع، وأحلّه من الرفعة وعلو المقام محلا تتقاصر إدراكه الأفهام، بحيث يستجدي جدواه صَوب الغمام، وينحني ظهر الهلال ليقبل تلك الأقدام، وتنافس الثريا في التشبّه بما يضاف اليه، فيصير كنعل فَرَسه لو كانت هي كاللجام، وجعل قياسات قاصد به منتجه لحصول المَرام بمحمد عليه الصلوة والسلام، ويميناً بالذي جعلكم ملجأ العالمين، وأتاكم ما لم يؤتي أحد من العالمين، إن العبد ليتصبب حال الكتابة عرقاً، ويتخيل لفرط الشوق إنه يخاطبكم فيُطرق إجلالاً وفرَقاً، ويحسد على ان سبقه الى تقبيل تلك الأنامل كتابة، وتتنازع لديه عوامل [و 120] الشوق فيرتفع مقام الحسود، وقد ترجّح عند المُرسل مثوله بالخدمة وانتصابه، فمُر لي بتقبيل تلك العتبة التي تعلو على الأثير، وتفوق حصباؤها على الدر النثير، وعسى أن يكون قريباً فيبرد غليل فؤاد زاده نَدب البعاد وجوباً أسدا، والعبدُ بعد تقبيل الأرض، يعرض أشواقاً فسيحة الطول والعرض، ويتذكر عهودا من تشرفه بالمجالسة، وتلذذه بلطيف المؤانسة، اياه كان له بعض مناسبة بالمناسبة، وإضافه الى جناب حضرات السعد وزويه لأدنى ملابسة، فنحن يا أيها المولى، ومن هو بالكمال أولى، من عبيد تلك العتبة، وبحلول أنظارها العالية تيَسُّر للعبد ما طلبه، مما كان ذوو الحسد يرونه بعيدا ونراه قريباً، والداعي عن لسان الاستعداد ومساعدة السعد ينادي قريباً، وقد شاهد والدنا المرحوم من لطفكم ما قصرت العبارة عن آدابه، وحملتموه من الجميل ما مات وهو مُكبٌّ على ثنائه، مبالغ في دعائه، ونحن ندّعي استحقاق حنوكم بأرث القربة،

---

(1) تكرر هنا لفظ (نعمة).

(2) هو كمال الدين محمد طاشكبري زاده وقد تقدم.

فهي أقوى من قرابة النسبة، ولما أدرك لحماه المحمية ما هو مُعول عليه. بحسب الشركة والخصوصية، وهو المشمش الذي يُسقى بمياه الخمسة، وصار لفرط ذبوله تتهادى الواحدة منه في خمسة، وجهنا منه للحضرة شيئاً قليلاً، عساه يكون مقبولا إنشاء الله تعالى.

من العبد حسن ميرلوا سلمية[1] حالاً

[8]

[من بدر الدين القرافي إلى العالم كمال الدين]

لفريد عصره، ووحيد دهره، وواحد مصره، بدر الدين القرافي[2]، الى العالم النحرير المولى كمال الدين، الذي بدر كماله ليس بالخافي:

يا كتابي إذا وصلت اليه	فبحق الوداد سلم عليه
دمت تبقى وترتقي للمعالي	بكمال له الأماثل ساروا
واليك الفخار يسعى بحق	عنده ذو العلا أقرُوا وصاروا
وحِماك المُشيَّد بالعز دهرا	فيه مأوى لذي المعالي ودار
بالحبيب الشفيع خير نبي	بحماه جمع الخلائق داروا

[و 121]إن اسنى تحيات ترفعها ملائكة القبول على أجنحة الإقبال، وأسمى تسليمات زاكية الأصول بالإجلال، من فضل الله العلي ذي الجلال، وأعلى مودّات مؤدّات بكمال الخلوص لذلك الجمال، وأغلى عهود لم يغيرها طول البعاد، بل

(1) مدينة تبعد عن مدينة حماة (33) كم وتقع إلى الشمال الشرقي منها، وكانت في عهد المؤلف تحت سيطرة آل أبي ريشة رؤساء آل فضل الطائيين.

(2) هو محمد بن يحيى بن عمر بن يونس، بدر الدين القرافي المصري المالكي، ولد سنة 939هـ/1532م وتوفي سنة 1008هـ/1599م، عالم جليل له مؤلفات جمة في النحو والتراجم، نسب إلى قرافة مصر. قال المحبي في خلاصة الأثر مترجماً إياه «ذكره جدي محب الدين في رحلته فقال في حقه: وأما مولانا العلامة والعمدة الفهامة المتصف بالفضائل والفواضل في جميع المسالك، الحائز في الآداب وللفتوة متمم وللفتاوى مالك» إلى آخر ما ساقه من أوصاف المدح والثناء.

توالت بمزيد الاتصال، تحيات تحمل الى هذا المجد العالي، والقدر الشامخ الغالي، الكفيل بالأفضال الراقي في مراقي كمال الكمال، أدام الله مجده رافلاً في حلل السيادة والإقبال، وأبقى جده زاهياً باهياً، باهراً زاهراً، بحرمة حضرة المصطفى وصحبه والآل آمين. يا قريب، يا مجيب، ينهى عند رقٍ على الوفاء مقيم، وعلى الود والخلوص مُديم، انه بشهادة علام الغيوب، المطلع على القلوب، لم يزل من سويداء القلب محبة هذا العبد، ولا تقاعست ولا أعرض عن التعلق بهذا الود، وإن طالت الأيام وتباعدت كلما تذكر الاجتماع بتلك المشاعر المعظمة، بمكة المكرمة، والتلاقي والقرب سفر او حضرا بتلك الشيم والاخلاق والأوصاف المحترمة، زاده ذلك شَوقاً وهياماً، واشتياقا وغراماً:

وما كنت أدري حالتي بعد بعده ولا متعبات القلب حتى تباعدا

ولما كتب هذا العبد مكتوباً ينوب عنه في أداء الخلوص، وأرسله مع بعض الفقهاء الازهريين لم يرد عن ذلك خبر، ولا ظهر أثر، وبنى الفقير الأمر في ذلك على اشتغال الحضرة المخدومية بالمفادات العلمية العلية، والآن قد بدل العبد تلك الرّسل، ولا يرسل عبوديته إلاّ مع مَن سلك أحسن السبُل. ويرجو هذا الحقير أن يكون في ذلك الضمير، فإنه يعلم الله تعالى خلوص هذا العبد في المحبة لله تعالى، والحب في الله من الايمان، وقد ورد في الحديث الشريف، كما هو في مفادكم المنيف (مَن أحبَّ رجلاً فليُعلمه)[1] والله سبحانه أسأله من فضله العميم، وإحسانه الجسيم، أن يزيد حضرة هذا المولى كمالاً وجمالاً، وبهاءً وإجلالاً، وفضلاً يتوالى، وإحسانا مُوالى، آمين يا مجيب السائلين. العبد الداعي بظاهر الغيب، بدر الدين القرافي المالكي عفى عنه [و 122]

[9]

[من بدر الدين القرافي إلى كمال الدين أيضاً]

وله اليه أيضاً:

أسوق الى مجد تعالى مكانه وإمكانه، فخراً يزين كماله، تحية ودّ من عُبَيد ومخلص، يجيد دعاء يستدرّ نواله، أسأل الله ان يدوم عمادا وكمالاً، زهي لأهل

(1) الحديث كما في أبي داود وأحمد (إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه انه يحبه)

الكمال، يشهد الله ذو الجلال، باني في كمال الخلوص والاجلال، تحية الله تعالى الكاملة، ونعمته الشاملة، والأوه المتواصلة، وجود هذا المجد المشتمل على أقاصي الفضائل، ونواصى الفواضل الفاضلة التي من تعلق بحماها، وانتسب لمحياها، نال المراد والفاصلة، نتيجة الوقت ووحيده، وولى الكمال وفريده، لازال في عزّة ترعى محامدها، ورفعة نال هذا المجد بهجتها، آمين يا قريب، يا مجيب. ينهى عبد رق على الوفاء مقيم، وعليم بما أقول عليم، إن لديه أشواقاً قام سُوقها، واشتياقا تزايد غرامه وتتابع هيامه، ما كنت أعلم أن العبد يتعبني، ويوهج القلب نيرانا وإتعابا كلما تذكر زمن ذلك اللقا وتلك الفرائد المستجادة، والفوائد المستزادة، صار إلى قلق أكيد، وحال شديد، وتعب مديد، أمري الى الله في بُعد بُليت به وما أقاسية من شوق وأضرار، ما حيلتي في الورى إلاّ مكاتبتي، ثم الدعاء بسرٍ ثم إجهار، جمع الله شمل كل مُحب، وبدأ بي فأنني مشتاق. وقد وجه هذا العبد[1] عدة من الكاتيب، ولم يرد على العُبيد من جناب هذا المولى ما عسى ان يندفع به بعض الغرام، إذ الأحباب فاتهم التلاقي فلا شيء أسرّ من الكتاب، وبعد ذلك كله فالذي نرجوه من الله سبحانه وتعالى ونريده، بقاء حضرة المولى في عزة عالية ورتبة غالية ويمده الله بفضله ويزيده، ودعوة المؤمن لأخيه بظهر مستجابة، أرجو من أنعامه الإجابة، ونَيْل الإصابة، بحرمة المصطفى المختار من مضر خير الخلاق، من عرب ومن عجم، والله تعالى يمد هذه الحضرة العلية بمدد أفضاله، ويوالي لديه مزايا إقباله، وباهر فضله وفاخر كماله، آمين يا [و123] رب العالمين، ما دام الحجاج آمّين، من العبد القديم بدر الدين القرافي المالكي.

[10]

[تقريض لمحمد نجم الدين الأنصاري على كتاب الرحلة الرومية للمؤلف سنة 1152]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصوة والسلام، على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله الكرام، وأصحابه ذوي الاحترام. وبعد، فلما تشرفت الشهباء بقدوم

(1) في الأصل (العب).

مولانا فخر الفضلاء، وعمدة الأدباء، الوارث سلالة المجد والعز عن أبيه وجده، الحائز قصبات السبق في ميدان البلاغة بعزمه وجده، من فاق ببلاغة نثره النظام، وسما في متانة نظمه على البحتري وأبو تمام، وملك ديوان الإنشاء، ولا بدع فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكان قدمه عليها، وروده اليها، من دار السلطنة العلية، قسطنطينية المحمية، راتعاً من طيب العيش بحصول المآرب، ناهلاً من وروده على ألذ المشارب، أوقفني على هذه الرحلة التي تُشدّ اليها الرحال، وتقف عندها مطايا الآمال، فوقفت على حديقة أريجة النبات، وصحيفة بهيجة الصفحات، وأجلتُ طرفي في ألفاظ أرق من السُلافة، وألذّ من الأمن بعد المخافة، ومعان أحلى من لُعاب النحل، وأعذب من الخصب بعد المحل، جمعت فضائل الآداب، وملكت معاقل الألباب، تعرب عن بلاغة منشئها، وتبلغ الأنفس من أمانيها، فلا زالت الأعين بلقائه مبتهجة، والألسن بحسن ثنائه ملتهجة، وامدّه الله سبحانه وتعالى بسعد لا انقطاع لحبله، وأيّده بمجد لا انصداع لشمله، ولا برح يرتع في رياض الفضائل، ويطبق من أصول دلائله المسائل على الدلائل، آمين. قاله وكتبه العبد المفتقر الى الباري، نجم الدين بن محمد الأنصاري، خادم التفسير الشريف بحلب، والخطيب بجامعها غفر الله تعالى ذنوبه وستر عيوبه، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك من شهور سنة اثنين وخمسين وألف[1].

[11]

[تقريض محمد سري الدين على كتاب الرحلة الرومية للمؤلف]

الحمد لله الذي تفضل على من شاء فكان له محبّاً، وشغفه بالكمال فكان به ولوعا وصبّا، والصلوة والسلام على أشرف الأنام، الذي ترق في حضرات القدس ومشاهد الأنس دُنوّا وقرباً، وعلى آله وأصحابه الذين لم يجعل لهم في سوى اقتفاء أثاره حاجة وأربا. وبعد، فقد بعث إليّ من وادي الأدب المقدس هدية سنية، وسفرا أسفرعن بدائع عبقرية حيرتني، فلست أدري أروض ربحته أيدي الغمام، أم عسجدية حبتها فارس بأنواع التصاوير والأرقام، بَيد أنها أعربت عن سمو همة

(1) الموافق أوله 12 أيلول (سبتمبر) من سنة 1616م.

مبدعها بالاقتداء في الهجرة بالآباء الكرام، فسار مسير الهلال في منازل التحصيل، ثم التراقي الى وجه التمام، فالله تعالى يكثر من أمثاله، إذ لم نَرَ له مثلاً فضلاً عن أمثال، ويبقيه صدراً للإفادة ومحتداً للفضل والافضال. قاله ونمّقه أفقر العباد المذنبين، محمد سَري الدين عفا عنه رب العالمين.

[12]

[تقريض عماد الدين وشهاب الدين وابراهيم العماديين على كتاب الرحلة المصرية، سنة 1059هـ]

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لك يا من جعل لنا الأرض ذلولا لنمشي في مناكبها، وسخّر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره ولنمتطي كإبل مراكبها، وأمرنا بالسمي ابتغاءً لفضله ،ولطف بنا في تيسير التسيير براً وبحراً، حزنه وسهله، وصلوة وسلاما على سيدنا محمد خاتم الأنبياء الكرام، وحاتم الكرم القائل (سافروا تغنموا)[1] والمهاجر من حَرَم الى حَرَم، وعلى آله وصحبه المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم ما دار الفلك الدوار. وبعد، فقد وقفنا على هذه الرحلة التي تشد اليها الرحال، وتعجز عن بِكر فكر منشئها فحول الرجال، وسرّحنا طرف الطرف في روضها النضير، وشرحنا الصدر بلذيذ بناء مبتدأ الخبر المُعرب عن ضمير مقتضى الحال، ولا ينبؤك مثل خبير، وأمعنّا النظر في مجاز حسن معانيها، اعجاز بلاغة تراكيب قصص معانيها[2]، فلم نجد لها في الحقيقة من نظير، وعرفنا بها عرف ذلك الفضل الموروث عن طيّب الأصل فلم نعبر عنه بسوى العبير، نجنى [و125] طوراً من ذلك يانع ثمار الأخبار عن كثب، وأذنة نرتع في روض أريض من الأدب، لما أودع فيه محرره من لطائف النكات، وأبدع فيه من ظرائف الأبيات الأبيات ما يُطرب كل سامع، ويعجب كل مطالع، بحيث صار ذلك أنساً للحاضر المحاضر، وزاداً[3]

---

(1) أخرج السخاوي في بيان الأحاديث المشتهرة على الألسنة، رقم الحديث 529 هذا الحديث كالآتي «سَافِرُوا تَرْبَحُوا، وَصُومُوا تَصِحُوا، وَاغْزُوا تَغْنَمُوا»، عن أحمد عن أبي هريرة .

(2) لعلها (مغانيها).

(3) في الأصل (زاواً).

للحامل المسافر، وقد حذا في ذلك حذو جده فنثر ونظم، ومن يشابه أبَه فما ظلم، واقتفى أثره في سيره ففاته بمراحل من رحلته المشحونة من أدبه، فكان المشبه أبلغ من المشبه به، وجده بجده فورى بما روى قدح زنده، ولا بدع فهو ليس بدعي فيما يدعي، وقد تلمذ للمولى المرحوم شيخ الإسلام الوالد الماجد مدّه، وفاز منه بما أجازه وأمده، وورث الفضل والحسب عن جد وأب، فضلاً عما منح به القبول فحسب، إذا قيل من أضحى بجلق مدهشاً، بتبريزه في الفضل والعلم مذ نشأ، فقل: واحد كالألف في كل مجمع، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. هذا بعد ما طالعنا رحلة جده العلامة المرحوم المشملة على مراحل مصر والروم، واطلعنا على ما حفت به من أرقام الأقلام، وحظوظ الخطوط المنسوبة الى العلماء الأعلام، فكان ممن انتظم في سمطها، والتحف بمرطها[1]، وأجاد وجد المرحوم شيخ الإسلام المولى عماد الدين العمادي الجد، فقد نثر في طرسها جواهر كلمه، ووشى بما أنشى في طرازها من نفس نَفَس قلمه، فشاد عند ذلك منا العماد، دعانا داعي الفضل في اقتفاء الأجداد، فلا جرم حينئذ أن تحذو الفروع حذو الأصول، وإن لم يدرك الضالع شاو الضليع في الفضل ففي الفضول، مع الاعتراف بالبضاعة المُزجاة مُترجِّين من فضله سبحانه حسن القبول، وما خاب من رجاه، فجزى الله تعالى المؤلف على هذا التأليف من أنواع الألطاف آلافاً، وضاعف لم جزاء هذا التصنيف من خيري الدارين أضعافاً، وأدام بكتابه الانتفاع، ولجنانه الارتفاع، ولأحبابه الإمتاع، ما نفحت رياض الآداب، فرنَّحت القلوب والألباب، وما طُويَت شقة بَيِّن واغتراب، وقفل غريبٌ الى وطنه وآب. رُقم بقلم المحبين المخلصين عماد الدين وشهاب الدين وابراهيم العماديين، وذلك في أواسط شهر شعبان سنة تسع وخمسين وألف[2]، أحسن الله تعالى ختامها بالخير. آمين.

---

(1) المرط: كساء من صوف أو كتان أو نحوهما يؤتزر به.

(2) ويوافق الأول من أيلول (سبتمبر) سنة 1746م.

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والمواقع

المحتويات

